مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ طه

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة طه

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة طه

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾

ابتدأت سورة طه بقوله تعالى ﴿ طه ﴾ والتي اختلف المفسرون فيها على أقوال: فمنهم من رأى أنها من حروف الهجاء. أي: من الحروف المقطعة، التي تماثل ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم، كسورة يونس، وسورة هود، وسورة يوسف، وسورة مريم. وقال البعض: أنها يا رَجُل باللغة السريانية، والحبشية، والنبطية. وقال البعض أنها اسم للرسول صلى الله عليه وسلم. وقيل: أنه قَسَمٌ، أَقْسَمَ اللهُ تعالى به. وقيل معناه:

يا رَجُل، وقد رجح الإمام الطبري رحمه الله تعالى أن معنى ﴿ طه ﴾ يا رجل، وهو ما ذكره: ابن عباس رضي الله عنهما، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة. رحمهم الله تعالى جميعاً. وقال ابن جرير الطبري: والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه، قول من قال: معناه: يا رَجُل، لأنها كلمة معروفة في عَكٍّ، فيما بلغني، وأن معناها فيهم: يا رجل[1] وهي من قبائل اليمن. وقال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: ويقول الكلبي: هي بلغة عك. قال ابن الأنباري: ولغة قريش وافقت تلك اللغة في هذا المعنى، لأن الله سبحانه وتعالى لم يخاطب نبيه بلسان غير قريش. انتهى. وإذا تقرر أنها بهذا المعنى في لغة العرب، كانت ظاهرة المعنى، واضحة الدلالة، خارجة عن فواتح السور التي قدمنا بيان كونها من المتشابه في فاتحة سورة البقرة[2]

وفي كونها أحد لغات العرب، فإن في ذلك استغناء عمن أولها: أنها: يا رَجُل باللغة السريانية، والحبشية، والنبطية، وأنه لا يصح فيها ذلك. وقيل في معناها ما نقله ابن كثير رحمه الله تعالى: أنه كان صلى الله عليه

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٥-٨) وذكر تلك التقسمات أكثر كتب التفسير.

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣/٣٥٦)

وسلم يتكلف في القيام، فيرفع رجل ويرخي الأخرى، فأنزل الله تعالى ﴿ طه ﴾ يعني: طأ الأرض[١] وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: طأ الأرض بقدميك. قاله مقاتل بن حيان رحمه الله تعالى[٢] والمتأمل في جميع تلك الأوجه والدلالات يجد أن لكل وجه نصيب من الاحتمال، فكون معناه اسم لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فإن الخطاب الذي يليها مُخاطب بها النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ وكونها من حروف الهجاء، أي: الحروف المقطعة، فليس هناك ما ينفي ذلك، وكذلك كونها قسم من الله تعالى، وهي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، ذكرها الطبري رحمه الله تعالى[٣] فتكون بذلك قد أعطت عدداً من الدلالات، وإن كان الأرجح هو ما رجحه الإمام ابن جرير الطبري، ولا يعني نفي المرجوح، فكلمة الراجح تعطي أولوية القبول، وتقديمه على غيره، مع عدم نفي المرجوحات. ومن فوائد ذلك أنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وكذلك أنها بيان للإعجاز البياني في القرآن الذي شد عقول قارئي وسامعي القرآن العظيم ليسأل ويتفكر ويتدبر في دلالات ما يحمله هذان الحرفان من حروف الهجاء، فأعطت هذا الزخم الهائل من المعرفة التي تدل على الإعجاز البياني للقرآن، الكريم. مما يدفع متلقيه شوقاً لمتابعة ما بعد ذلك من الآيات العظيمة.

ثم بعد أن استفتح الله عَزَّ وجل هذه السورة العظيمة بكلمة ﴿ طه ﴾ يقول سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ ليس في نزول القرآن عليك ما تشقى به أبداً، فقد نفى سبحانه وتعالى عن القرآن جميع دلالات الشقاء، ليفيد أنه ضد الشقاء ومناقض له، وأن فيه السعادة الأبدية للدنيا وللآخرة، فأوضح سبحانه وتعالى أن الهدف لهذا القرآن العظيم هو تحقيق السعادة، التي ينتفي بها الشقاء تماماً، وكذلك ينتفي منه وبه جميع ما يمكن أن يكون من العناء والمشقة والتعب والنصب، فما كان نزول القرآن العظيم عليك ليحصل لك به الشقاء في عبادتك، وفي دعوتك إليه، وفي تشريعه وواجباته، فليس فيه من التكاليف ما يشق عليك أيها النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين، فتعجزون عنه، أو يتطلب منكم ذلك مشقة وعناء. قال قتادة رحمه الله تعالى: لا والله، ما جعله الله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً، ودليلاً إلى الجنة[٤] فلن تشقى بتلاوته، ولن تشقى بالقيام به، ولن تشقى بتدبره، ولن تشقى بحفظه، ولن تشقى بتشريعه

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٤٩/٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨٨/٥)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧/١٦)

(٤) المرجع السابق (٩/١٦)

وتطبيقه، ولن تشقى بالدعوة إليه، وبما فيه من الترغيب والترهيب، والنهي والأمر والامتثال، بل هو محقق للسعادة. وبالتالي فإن كل من أخذ بالقرآن فلن يناله الشقاء أبداً.

وفي هذا دلالة على ألا تُحَمِّل نفسك على ما لا طاقة لك به، سواء من القيام به، أو دعوتك الناس إليه. ولذلك جاء التخفيف في سورة المزمل ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ حتى لا يتكلف النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك المؤمنون ما لا يستطيعون. وفي هذا معالجة لما يتعلق بجميع شؤون هذا الدين. لأن القرآن هو المصدر التشريعي الأول لهذا الدين، ومن ذلك ما يجده صلى الله عليه وسلم في دعوته من عناد المشركين، المنافية لحرصه وشدة رغبته عليه الصلاة والسلام في إسلامهم، فلا تكلف أيها النبي نفسك في دعوتهم إلا ما تُطيق، مما يفيد أن هذا الدين يُسْرٌ على المؤمنين، وأنه منهج وطريق للسعادة في الدنيا والآخرة. وقد قال صلى الله عليه وسلم (إن الدين يُسر، ولن يُشاد الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدُّلْجَةِ) (١)

ثم يبين سبحانه وتعالى الحكمة العظيمة من إنزال القرآن الكريم ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ فما أنزلنا عليك هذا القرآن أيها النبي إلا موعظة بينة يتذكر بها من يخشى عقاب ربه جَلَّ في علاه، وبالتالي لا تنزعج ولا تأسف على من لم ينتفع بالقرآن.

وأما ما يخص بلاغة البيان، فهو التخصيص والقصر الذي تضمنته الآية الكريمة، إذ من جمال البيان ودقته حصر الاستفادة في الذين يخشون الله سبحانه وتعالى ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ مما يدل على منزلة الخشية من الله تعالى، فإنها تجعل لمن يخشى الله عَزَّ وجل تفاعلاً عظيماً مع آيات القرآن الكريم، فترق قلوبهم لذكر الله تبارك وتعالى، وما نزل من الحق، ومن خشية القلوب لله تعالى أنها تخاف عقابه، فتقلع عن الذنوب، وتستهدي بهديه، وإن حصل منها ذنباً فلا تتمادى فيه، بل سريعة الإقلاع، والطاعة، وقوية في التوبة، وفي اجتناب المعاصي، وسريعة في طاعة الله تعالى. إذ بَيَّنَ سبحانه وتعالى صفة من يتذكر، أنهم أهل الخشية ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ بما خَصَّهم سبحانه وتعالى من الخشية المحققة للانتفاع، فقال تعالى ﴿ إِلَّا ﴾ التي تفيد الاستثناء من جميع الأحوال البشرية التي يمتنع بها الانتفاع، كالحاسدين والمعاندين، والمستكبرين،

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٢٩/١) برقم (٣٩)

والمقدمين مصالح الدنيا على مصلحتهم في الآخرة ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ فالذي يخشى هو الذي ينتفع، وهو الذي يخاف عقاب الله تعالى، ويخشى العاقبة في الدنيا والآخرة ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾

وسمى سبحانه وتعالى أثر القرآن ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ وفيه بيان أن القرآن الكريم يذكر الإنسان بما تَغَيَّبَ عنه، نتيجة فرطه في شواغل الدنيا عن الآخرة، ويُذَكِّر الإنسان بفطرته، من الإقرار بالتوحيد. فهو يرى أن القرآن العظيم يُذَكِّرُهُ بما فطره الله تعالى عليه، فهو تذكرة للناسي والغافل، وتعليم للجاهل. بما يفيد أن النفوس التي تخشى العاقبة، فإنها تخشى الله تعالى فتستأنس به ولطاعته، وتُقْبِلُ عليه، وتستعذب كلامه، وتتأثر بمواعظه، وقصصه، وأخباره، ووعده ووعيده، وتتفتح أنفاسها على بشاراته.

ثم يخبر الله تعالى عن مصدر القرآن الكريم، مقروناً بعظيم من التبجيل والإجلال ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ فالذي أنزل القرآن العظيم هو الله الذي خلق الأرض والسماوات المرتفعة العالية التي ترونها. مما يُوجِبُ عليكم أيها الناس الإذعان لمن خلق الأرض التي تمشون عليها، والسماء المرتفعة التي تظلكم، وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والأجرام السماوية، وما يجري فيها من السحب التي ينزل إليكم الماء منها بالقدر الذي يغيثكم ولا يهلككم به. فإنه توجيه عظيم، يلفت انتباه الْمُخَاطَب للمحسوسات العظيمة التي يتفاعل معها، ويتنعم بها الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته، والتي يرى فيها عجائب قدرة الله تعالى. وفي هذا لفت الانتباه إلى عظائم مخلوقاته تبارك وتعالى، وذلك لإدراك عظمة كلام رب العالمين، وأهمية الانتباه له، والعناية به.

بل لفت سبحانه وتعالى الانتباه إلى علو السماء ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ فأضاف صفة العلو إلى ذكر السماء، من أجل شد الانتباه إلى عظمتها وبُعْدِ ارتفاعها عن الأرض. مما يفيد في العملية التعليمية أهمية التذكير، وأهمية لفت الانتباه إلى المحسوس، وما فيه من العبر والآيات، ليستدل بها على غيرها من قدرة الله تعالى. كما لفت الانتباه قبلها إلى الأرض التي يسير عليها الْمُخَاطَب ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ ﴾ لإثارة الفكر والتأمل بين علو السماء وانخفاض الأرض التي سخرها لكم. فإن الذي خلق ما ترون هو الذي أنزل القرآن العظيم. فأوجب ذلك عليكم التصديق.

ثم يرتقي ويرتفع الوصف إلى ما هو أعلى من السماوات العلا ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ فبعد أن لفت الانتباه إلى علو السماء، وعظيم ارتفاعها، يشير إلى ما هو أعلى منها، وهو عرش الرحمن. فإن من أدرك ببصره علو السماوات، وعظيم ارتفاعها حتماً سيؤمن بما هو غائب عن نظره، فالذي خلق هذه السماوات العظيمة ورفعها بهذا العلو العظيم، الذي يراه الْمُخَاطَب فإنه قد خلق العرش العظيم الذي هو أرفع المخلوقات

وأعظمها وأوسعها ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ فينتقل من الموجود المشاهد إلى الموجود الغائب عن المشاهدة، فقد استوى سبحانه وتعالى على العرش استواء يليق بجلاله وعظمته عَزَّ وجل، من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل. فإيمانكم بما ترونه يجعلك تؤمن بما أخبرك به خالق الأرض والسماء من غير أن تروه. فسبحان الله رب العرش العظيم، الذي آمنا به، وبالعرش، وبالاستواء. فمن جلال البيان: أن ذكر سبحانه وتعالى انخفاض الأرض وعلو السماء وارتفاعها، ثم ذكر سبحانه وتعالى العرش، ليدرك الْمُخَاطَب أن المشاهد دليل على غير المشاهد.

وبعد البيان لعظيم خلق الأرض والسماوات العُلَى، واستوائه عَزَّ وجل على العرش يخبر تبارك وتعالى عن عظيم ملكه وسلطانه وقدرته ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ فإن لله تعالى جميع ما في السماوات وما في الأرض ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ليشمل بهذا الحصر جميع ما يراه الإنسان أو يحسه، وما يعلمه، وما لا يراه ولا يعلمه من مخلوقات الله تعالى التي لا يمكن للبشر ولا الجن قاطبة إحصاؤها وعدّها، ويؤكد ويقرر ذلك أيضاً بحصر ما بينهما ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ ليفيد الحصر والتقرير والمبالغة في التخصيص. فكذلك ما بين السماوات والأرض من مخلوقات لا يعلم عددها وأنواعها إلا هو سبحانه وتعالى، سواء مما يراه الإنسان من الأعيان والأجرام المتحركة، أو يسمعه كصوت الرعد، وصوت الرياح، أو يحسه كالهواء، فإنه كله ملك لله تعالى. وأنه بالرغم من أن كل ما علا وارتفع عن الأرض فقد سما، وهو داخل في مفهوم السماء، إلا أنه قد تم تخصيصه وتعيينه بالذكر، فقال تعالى ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ قال الإمام القرطبي: والسماء كل ما علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت: سماء، والسماء: المطر، سُمّي به لنزوله من السماء[١] وفي هذا التخصيص شَدُّ الانتباه والذهن، مع لفتةٌ كريمة للعباد نحو التأمل والتدبر في عظمة مخلوقات الله تعالى التي نزلت بقدرة الله تعالى عن السماء، وارتفعت عن الأرض، فاستقلت بنفسها بين السماء والأرض، ليتأمل العباد عظمة الخلق التي تدل على عظمة الخالق العظيم سبحانه وتعالى. فيأملوا في مخلوقات الله تعالى السَّيَارَة بين السماء والأرض، فقد استقلت بنفسها عن سقف السماء فلم تتعلق به، واستقلت عن الأرض فلم تثبت عليها.

ثم ذكر سبحانه وتعالى الثرى بالتخصيص من بين مكونات وحالات الأرض ﴿وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ لتشمل جميع الموجودات مما هو تحت التراب، ومن طبقات الأرض المتعددة والمتنوعة، ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أن الثرى هو: الندى، يقال للتراب الرطب المبتل ثرى، والثرى كل شيء مبتل. وما تحت

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥١/١)

الثرى: ما حُفر من التراب مبتلاً[١] وقد خص سبحانه وتعالى الثرى ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ بالرغم من أنه داخل في الأرض، فورد التخصيص للتأكيد والتقرير، والمبالغة في التعيين له، بأنه التراب الندي المبتل، المشتمل على الرطوبة. فجميعه ملكه، وتحت قهره وسلطانه، فيُصَرّفُه كيف يشاء، بما يبين ويؤكد أنه لا أحد يتصرف في ملكه غيره سبحانه وتعالى، ولا يعلم ولا يحيط بملكه أحد غيره عَزَّ في علاه، وأنه أحاط بملكه علماً وإرادة وقدرة، والجميع تحت قهره وسلطانه. لينتفي بذلك كل معبود غيره سبحانه وتعالى. فكيف تعبدون من هو تحت قهره وملكه وسلطانه.

وفي تخصيص الثرى من عموم حالات الأرض، وبقية مكوناتها ما يعني أن هناك خصوصية لها، من بين التي ليست ثرى. بالرغم من أنها داخلة في عموم ملك الله عَزَّ وجل ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ فأفاد التخصيص من جملة ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ لفت الانتباه إلى ما تحت هذا النوع من الأرض. فإن في هذا التخصيص دليل على النوع من الخصوصية التي تتمثل بها الأرض ذات الثرى. ليتساءل الإنسان عَمَّا هو الذي تحت الثرى، والذي خَصَّه الله تبارك وتعالى بذكره، فاستثناه من جنس الأرض. وإذا تأمل الإنسان ما تحت الثرى يجده يتميز بقابليته للحياة والنمو، كالنباتات التي تنشأ وتنمو ابتداء تحت الثرى، لوجود عوامل الحياة والنمو. فإن له من الخصوصية ما لا ترونه من الخلق الذي ينمو ويتكاثر، والتي يجهلها الإنسان، ويجهل كيفيتها، مع أنه يعيش فوق الأرض، ومع هذا لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، سواء من حيث النوع، أو الكم والعدد، أو مقدار النمو ومراحله التي يمر بها حتى يخرج على وجه الأرض، ويعلم ما يتوقف نموه، وما يظهر على سطح الأرض، فيعلم ذلك النمو الذي تحت الثرى، وما يتخلق تحته من نبات، أو حشرات الأرض التي تدب على سطح الأرض، لتعيش عمرها بين الزروع. فهو المالك لها، والمحيط بها قدرة وعلماً. فإن شاء أكمل نموها، وإن شاء أماتها، وإن شاء أضعفها. فسبحان الذي وسع كل شيء علماً وملكاً وقدرة. فهو العالم بما غاب عن عباده. فأنتم تترقبون وتنتظرون ما تحت الثرى الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، فاطلبوه منه سبحانه وتعالى، واعبدوه واشكروه على ما يُخرجه لكم من المعايش.

ثم يتدرج البيان في تفاصيل دقة علمه عَزَّ وجل، وإحاطته حتى بالألفاظ المنطوقة علناً، والتي يتخفى بها صاحبها، فلا يتلفظ بها ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ فقد توجه البيان في انتقال متدرج بديع إلى بيان عظمة علم الله تعالى من أحوال العباد فيما يجهرون به من القول وما يسرون به وما يتخفون به ويتكتمون عليه مما في الصدور.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/١٦)

فاعلم أيها الإنسان قدرة ربك ومعرفته بك ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ ﴾ فإن تُعلن وتُظهر القول فترفع صوتك به، أو تسر به ﴿ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ ﴾ فإن ربكم عَزَّ وجل يعلم القول الذي يكون بين إثنين أو أكثر على سبيل الإسرار به وكتمه عن الغير، فإن الجهر والسر في علم الله تعالى مستويان، فلا يخفى عليه من ذلك شيء. فإن ما يخفى على غيره لا يخفى عليه تبارك وتعالى ﴿ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ بل إن ربكم يعلم ما هو أخفى من السر ﴿ وَأَخْفَى ﴾ وهو الأمر والشأن الذي قصره صاحبه وحصره في قلبه، دون أن يبيح به للغير ﴿ وَأَخْفَى ﴾ وهو المكتوم في الصدور، مما يكون في القلوب من غير إفصاح وإظهار له، فإن الله تعالى ﴿ يَعْلَمُ ﴾ تلك الحالات الثلاث من أحوال المراد البشري التي يخاطب به غيره جهراً، أو يسر به سراً لأحد دون غيره، أو يضمره ويُسره في قلبه ونفسه، فلا يُطلع عليه أحد. فإن الذي أنزل القرآن هو الذي له هذا الملك، ودقائق العلم بعباده. مما يبين ويوضح لعباده بذلك سعة علمه سبحانه وتعالى، وأنه لا تخفى عليه خافية، حتى مما يضمره الإنسان في نفسه ولم يتحدث به.

وفي ذلك من الفوائد ما يطمن النبي صلى الله عليه وسلم وعموم عباده المؤمنين من علم الله تعالى بما يكون منهم ومن أعدائهم، وقد ورد البيان بما يفيد مخاطبته عَزَّ وجل لكل أحد من خلقه، وكذلك ما يفيد مخاطبته لرسوله صلى الله عليه وسلم. وعلى وجه أنه مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم كما ذكر ابن جرير رحمه الله تعالى[١] فيكون المخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم، رفعة لشأنه ومنزلته، وبيان مقامه ومنزلته عند ربه صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب. فإن الذي لا يخفى عليه سر نبيه صلى الله عليه وسلم من بين العباد على كثرتهم، ولا إسرارهم جميعاً، فإن ربكم هو المطلع على كل أحد بعينه، فلن يخفى عليه غيره من العباد جميعاً، واحداً واحداً. فاطمئن أيها النبي فإن ربك معك بعلمه وقدرته، يسمع ألفاظك، وطلباتك، ودعاءك، وسواء ما تطلبه منه وتُظهره، أو تسر به للبعض، أو ما هو في قلبك مما تتكتم عليه، ويعلم ما يكون من أعدائكم إن جهروا به أو أخفوه وتكتموا عليه ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ فإن من لا تخفى عليه السرائر ومنها سرائر أعدائكم فإنه يدبرك ويدبر المؤمنين أحسن تدبير.

ثم يمجد الله تعالى ذاته الكريمة العظيمة بعد أن أوضح عظيم ما قدرته عَزَّ وجل، وقبلها إنزاله القرآن العظيم على رسوله الأمين، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. ليتبين للمُخَاطَب أنه هو المعبود بحق، لا سواه

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٢/١٦)

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ فلا معبود بحق، ولا رب ولا مالك للكون كله إلا هو تبارك وتعالى.

فإن ربكم ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى. بما يدل على بطلان جميع أنواع الشرك. فلا معبود بحق، ولا رب ولا مالك للكون كله إلا هو تبارك وتعالى. وهذا بيان بانفراده سبحانه وتعالى بالألوهية ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فقرر عَزَّ وجل أنه هو المعبود وحده لا شريك له، وذلك بحصر العبودية فيه عَزَّ وجل، فلا إله غيره، فنفى كل إله ومعبود غيره سبحانه وتعالى، وحصر العبودية فيه وحده لا شريك له. فلا يُعبد إلا هو جَلَّ جلاله، مما يفيد أن مَنْ عبد غير الله تعالى فقد كفر بربه وخالقه عَزَّ وجل. وقد تضمنت ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ نفي الألوهية عن غيره عَزَّ وجل ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ ﴾ فلا إله غير الله تعالى، وأفاد هذا النفي: القطع والجزم بأنه لا ألوهية لأحد غيره سبحانه وتعالى، ثم حصر الألوهية له عَزَّ وجل ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ فكل مألوه غير الله تبارك وتعالى باطل من أصله، فلا يوجد إله غيره سبحانه وتعالى، فمن عبد غير الله تعالى فقد كفر بربه عَزَّ وجل. ودلالة ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تُعَلِّم العباد بأن العبادة لا تُصرف إلا له عَزَّ وجل، وبالتالي لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له، فعليكم أيها الناس بعبادة ربكم وحده لا شريك له.

وإن ربكم هو المتفرد بالأسماء الممدوحة بالكمال والثناء ﴿ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ فلربكم الاسماء الكاملة الْحُسن والمعاني. مما يدل على جلالها وعظمتها ونفاستها، وعظيم دلالة كل اسم منها. ولذلك أمر عباده أن يدعوه بها، كما في سورة الأعراف ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠ ﴾ ومن قوة فضلها، ورفعة منزلتها أن من حفظها دخل الجنة كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال (لله تسعة وتسعون اسما ـ مائة إلا واحداً ـ لا يحفظها أحدُ إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر)[1] بل ومن حُسنها ودقة معانيها أن كل اسم يحمل أعظم المعاني والصفات التي اتصف بها ربنا تبارك وتعالى.

(1) البخاري، الجامع الصحيح (١٧٤/٤) برقم (٦٤١٠)

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

بعد بيان الله تعالى لمنهج القرآن في تحقيق السعادة، وإبعاد الشقاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن المؤمنين بقدرته ورحمته عَزَّ وجل، ثم تلى ذلك استعراض ملكوت الله تعالى وتدبيره للكون، وعظيم خلقه من السماوات والأرض، وما تضمنه من لفت الانتباه إلى علو السماء، وعلو عرش الرحمن الكريم فوق السماء، وأنه لا إله إلا هو، وأن له الأسماء الحسنى. ثم ينتقل السياق الكريم في نظم متدرج عظيم إلى ذكر قصة موسى عليه الصلاة والسلام، ليزداد الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ثباتاً، وتأسيا بمن قبلهم، ومنهم نبي الله تعالى، وكليمه ورسوله موسى عليه السلام. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ هل سبق وأن رُوي لك شأن موسى. وقد بدأ عرض قصة موسى عليه السلام بتوجيه هذا السؤال للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ وهو سؤال استفهام واستخبار على سبيل التقرير بعدم علمه صلى الله عليه وسلم بتفاصيل قصة رسول الله موسى عليه السلام، قال القرطبي رحمه الله تعالى: قال أهل المعاني: هو استفهام، وإثبات، وإيجاب، معناه: أليس قد أتاك ؟ وقيل: معناه، وقد أتاك. قاله ابن عباس. وقال الكلبي: لم يكن أتاه حديثه بعد، ثم أخبره[١] حتى ولو عَلِمَ صلى الله عليه وسلم بشيء من ذلك، فإن النص الكريم هنا تقرير بأنه إليك بها من كتاب ربك سبحانه وتعالى صدقاً وعدلاً، مع علو السند، فإنها من الله تبارك وتعالى إليك بواسطة الوحي من جبريل.

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: هذا استفهام تقرير، ومعناه قد أتاك. قال ابن الأنباري: وهذا معروف عند اللغويين، أن تأتي (هل) مُعَبِّرة عن (قد). فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أفصح العرب (اللهم هل بَلَّغتُ) يريد: قد بَلَّغت[٢] وكذلك في السؤال تشويق لتفاصيلها التي سترد عليك أيها النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك فيها تشويق لكل من يقرأ القرآن العظيم، أو يُتلى على مسامعه، وفيه تقرير بأنه قد

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/١١٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/١٩٠)

أتاك الآن تفصيل قصة موسى وما فيها من التدبير، ومن الأحداث العظيمة، والمليئة بالعبر، وأنها محط تأمل وتدبر.

وكذلك يحمل السؤال التعظيم والتبجيل والتفخيم لموسى عليه السلام وقصته، وما فيها من العبر والدروس، التي ستتضح من خلال سياقها وعرضها الكريم. وفي هذا معالجة وتسلية لما يجده صلى الله عليه وسلم من عناد قومه، ومن أذيتهم له عليه الصلاة والسلام، وهو الأمر الذي يواجه الأنبياء من أقوامهم، ومنهم موسى عليه السلام فيما واجه من فرعون وقومه. مما يفيد أهمية الأسوة في التذكير، والثبات، والاستمرار في مواجهة الصعاب، وما يكون من الأعداء، والحسَّاد، والمنافقين، والمتكبرين والمتغطرسين، والمغرورين بالحياة الدنيا. كما يفيد هذا في جناب التعليم، وفي عموم الحياة أهمية دراسة سير الأنبياء والمرسلين والصالحين من العباد، فإن فيها تسلية عن المصاعب، وكذلك فيها منهج في شق الطريق، وبيان ثابت بأن الله تعالى مع المتقين.

ومن بلاغة البيان، وغزارة معطياته الدلالية أن سياق قوله تبارك وتعالى ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ استجمع أموراً غاية في الغزارة لمعانيها، ومنها إثبات الوحي، وإثبات أنه لم يحصل للنبي صلى الله عليه وسلم معرفة تفصيلية بقصة موسى عليه السلام، وتقرير بأنه قد أتاك الآن ما نقصه عليك عن موسى عليه الصلاة والسلام. مع ما في ذلك من التشويق، والتعظيم لشأن موسى عليه السلام. أي أن شأنه كان محل تأمل وتدبر، وتأسي واقتداء، فشأنه شأن عظيم بما مَرَّ به من الأحداث. خاصة وأن قصة موسى في هذه السورة بدأت بأول شأن نبوته، عندما رأى ناراً، وكلمه ربه تبارك وتعالى مباشرة، على ما سيأتي تفصيله. مما يفيد أن قوله تعالى ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ أنه تقرير وإثبات بأنه لم يحصل لك معرفة تفاصيل شأن موسى عليه الصلاة والسلام، فإليك قصته.

فبعد بلاغة البيان في إثبات نفي سابق علمه صلى الله عليه وسلم بحقيقة قصة موسى عليه السلام، يقرر سبحانه وتعالى بأنه الآن قد أتاك خبر نبينا موسى عليه السلام حين رأى ناراً وهو عائد إلى مصر من مدين ﴿ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴾ حين رأى موسى عليه الصلاة والسلام ناراً مشتعلة، فاستقصى خبرها مؤملاً وراجياً أن يعود بشعلة منها. وقد بدأ البيان الكريم بمزيد من التشويق، وإثارة الانتباه، والترقب لما بعده ﴿ إِذۡ رَءَا نَارٗا ﴾ حين رأى موسى ناراً، وهي جملة تثير الترقب، ومحبة استقصاء الخبر عن ماهية النار، وعلاقة موسى عليه السلام بها، بما يدل على أن في ذكرها شيء مهم، ومُلفت للنظر والتأمل والتَّبَصُّر. خاصة وقد سبقتها كلمة ﴿ إِذۡ ﴾ قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وخص هذا الظرف بالذكر لأنه يزيد تشويقاً إلى استعلام كنه الخبر، لأن رؤية النار

تحتمل أحوالاً كثيرة[١] وكان ذلك الحدث والشأن في وقت شتاء، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ذُكِر أن ذلك كان في الشتاء ليلاً، وأن موسى كان أضَلَّ الطريق، فلما رأى ضوءَ النار قال لأهله ما قال[٢]

فبعد رؤية موسى عليه السلام النار، طلب من أهله البقاء مكانهم، ليذهب بمفرده إليها، فيستطلع الأمر، وهو آنذاك بجانب الطور الأيمن ﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ فأمر أهله بالمكوث، أي: الجلوس مكانهم، والإقامة في مجلسهم، وعدم اللحاق به، وكلمة الأهل تعني زوجته، مما يفيد أن الزوجة هي مفردة من منظومة الأهل ودلالتها، والتي تستجمع الأولاد، والأقارب الأدنون، ومَنْ هُم تحت مسؤولية الرجل ورعايته. وورد الأهل بصيغة الجمع ﴿لِأَهۡلِهِ﴾ لإفادة التفخيم، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والمراد بالأهل هنا امرأته، والجمع لظاهر لفظ الأهل، أو للتفخيم، وقيل المراد به المرأة والولد والخادم[٣] وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أي: امرأته[٤] مما يدل أن الجمع من باب التفخيم. وعلى القول بأن معه مع امرأته والولد والخادم ما يفيد أن الخادم يدخل في الأهل، لأن الرجل مسؤول عن خادمه، كما يفيد ذلك أنه قد يكون له من زوجته شيء من الولد. وقد يكون من باب التفخيم ﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ والْمُكثُ هو: الإقامة في المكان، مما يدل على نباهته وحرصه على أهله، ولم يبعثهم لاستطلاع النار، ولم يصطحبهم معه، خشية أن يجد من لا يأمنه، وما يتأذون به ومنه. مما يفيد ويُعَلِّم أهمية التحرز والتوقي، والأخذ بمثل ذلك مع الأهل، والحرص عليهم، وعدم المخاطرة بهم.

ثم يبين موسى عليه السلام علة أمره لهم بالمكوث، بأنه ذاهب عنهم لاستقصاء شأن شعلة النار ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ أي: أني أبصرت ناراً واضحة جلية، حيث أكد ذلك بحرف التأكيد التي اشتملت عليه ﴿إِنِّيٓ﴾ بما يفيد التيقن والتأكد منها. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: الإيناس: الإبصار الْبَيِّن الذي لا شبهة فيه، وقيل هو إبصار ما يؤنس به[٥] فأوضح وبين لأهله ما رأى بأسلوب التأكيد الذي يبعث في نفوسهم الطمأنينة والثقة، مما يفيد أهمية إشراك الأهل فيما يحسبه ويحسه ويراه، وأن لا يتسلل عنهم، فلربما شاركوه الرأي.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢٥/٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/١٦)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٣٥٧/٣)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٠/٥)

(٥) الزمخشري، الكشاف (٥٢/٣)

بل إن من حُسن صحبته وعشرته عليه السلام أن ذكر لهم الهدف والغاية من ذهابه إليها ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ فعن ابن عباس رضي الله عنهما: قال من يهديني إلى الطريق، وكانوا شاتين، وضلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق، آتيكم بنار توقدون بها[١] رجاء أن أحصل من هذه النار على أحد هدفين: الأول: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ رجاء أن أعود إليكم منها ﴿بِقَبَسٍ﴾ وهو كما قال الزمخشري رحمه الله تعالى هي: النار المقتبسة في رأس عود، أو فتيلة، أو غيرهما[٢] بينما الجذوة: هي الجمرة الملتهبة. وهي الوسيلة السائدة التي يتمكن منها الإنسان الأخذ بقبس من النار، أو جذوة منها. والهدف من المجيء بها هو للتدفئة من برد الشتاء. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وقوله ﴿بِقَبَسٍ﴾ دل على وجود الظلام[٣] أي: أن الأمر كان ليلاً.

وبدأ بيان الهدف بأسلوب الرجاء والتمني والتوقع ﴿لَّعَلِّيٓ﴾ وعدم الجزم بما يتمنى أن يحصل عليه، مع إفادة التعليل للذهاب إليها، مؤكداً ذلك بحرف التسوية بين الهدفين ﴿أَوۡ﴾ فإن حصل على الأول فنعمة، وإن حصل على الثاني فنعمة، وإن حصل عليهما فذلك أجزل. وأما الخيار والهدف الثاني: فهو ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ أو أن أجد على النار دليل إرشاد إلى الطريق الذي فقدوا اتجاهه، فيتبينوا من ذلك الهادي على النار طريق العودة. ودل قوله تعالى عن موسى عليه السلام ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ أنه تاه عن الطريق هو وأهله معاً.

وعندما ذهب موسى إلى ذلك المكان الذي آنس منه ناراً، تفاجأ بما لم يخطر بباله ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ فقد جاء لموسى نداء باسمه في ذلك المكان، وفي تلك اللحظة من تلك الليلة، وقد كان النداء من جهة الشجرة، كما قال تعالى في سورة القصص ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ أي: من

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٥١/٣)
(٢) الزمخشري، الكشاف (٥٢/٣)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٥١/٣)

جمتها وناحيتها. ومن جمال السياق احتوائه على التشويق ابتداء. إذ لم يُذْكَر اسم الْمُنَادِي لموسى عليه السلام ﴿ نُودِيَ ﴾ لِيُحْدِث ذلك تشوقاً عند القارئ والمستمع لآيات الله تعالى، بمعرفة من هو الْمُنَادِي. وكذلك من جمال التناسق بين البيان وبين واقع الحال لموسى عليه السلام أنه لَمَّا كان سياق المنادي غير معروف لموسى ابتداء، ورد السياق كذلك بصيغة إبهام المنادي، بعدم إظهاره وبيانه، ليتناسق ويتساوى الحال بين حال موسى عليه الصلاة والسلام وبين من يخاطبه القرآن بشأن موسى. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: أُدخِل في تصوير تلك الحالة بأن موسى ناداه منادٍ غير معلوم له، فحكى نداؤه بالفعل المبني للمجهول[١] وبلا شك أن حال موسى في تلك الحظة الانبهار والترقب لمعرفة مَن صاحب الصوت الذي يناديه باسمه تحديداً في ذلك المكان الذي يجهله، ليقول له الله تبارك وتعالى ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾ إني أنا ربك، إني أنا المنادي لك يا موسى، مؤكداً له ذلك بحرف التوكيد **(إن)** والتي اشتملت عليها ﴿ إِنِّيٓ ﴾ ثم زاد التأكيد بضمير المتكلم ﴿ أَنَا۠ ﴾ الذي أفاد تقرير ما بعده، من أن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى. ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ فلم يقل سبحانه وتعالى: أنا ربك بل ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ وخاطبه عَزَّ وجل بالربوبية، لأن في معنى الرب الْمُلْك. ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى أن معنى الرب: الْمُلْك، فهو المالك الحقيقي لخلقه. والرب المصلح والمدبر والجابر والقائم. والرب: المعبود. وقال بعض العلماء هو اسم الله الأعظم، لكثرة دعوة الداعين به. وتأمل ذلك في القرآن الكريم. وكذلك لما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار في كل حال[٢] وفي هذا التخصيص ميزة ورفعة لموسى، فأنا ربك الذي تعرفني بما أنعمت عليك به. فسبحان مَن جمع لموسى مراده بخير مما أراد في الدنيا والآخرة، مما يبين ألا يقنط الإنسان من رحمة الله تعالى، وأن الله عَزَّ وجل قد يُفاجئ المؤمن بما لم يكن في حسبانه من الخير والفلاح. ومن جميل البيان وكريم تعامل ربنا تبارك وتعالى مع عبده موسى عليه الصلاة والسلام أن الله تبارك وتعالى بدأ تكليمه لموسى بتعريفه بذاته العظيمة الكريمة ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ ليعطي عبده أدب البدء، وأخلاق الخطاب.

ثم يوجه الله تبارك عبده ورسوله موسى بما يليق بمقام من الْمُخَاطِب سبحانه وتعالى ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾ فأمره عَزَّ وجل بأن يخلع نعليه ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ ﴾ وهو الحذاء الذي كان ينتعل به موسى عليه الصلاة والسلام، والخلع هو فصل الحذاء أو النعال عن القدم. ثم علل سبحانه

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢٧/٧)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٦/١)

وتعالى سبب هذا الأمر بخلع النعال ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ فإنك يا موسى بالواد المطهر والمعظم، الذي اسمه طُوى.، فيكون ﴿طُوًى﴾ اسم للبقعة التي يمثلها الوادي بكامله، إذ جاء التقديس له كاملاً ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ فقد تقدس هذا الوادي بكلام الله تعالى لعبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام. وقال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: أَمَرَه تعالى ذكره بخلع نعليه، ليباشر بقدميه بركة الوادي، إذ كان وادياً مقدَّساً[١] مما يبين أن ﴿طُوًى﴾ هو اسم للوادي. كما يبين أن تقديس المكان هو لله تعالى، فليس لأحد أن يقدس مكاناً ويعظمه إلا ما قدسه الله تبارك وتعالى، وفيه تفاضل الأمكنة عن بعضها البعض بما فضلها الله تعالى بها من الدرجات. كما أن في كلام الله تعالى لموسى عليه السلام، إثبات الكلام لله تعالى، ودليل على مباشرة الله تعالى للكلام متى شاء بما شاء، لمن يشاء أن يخاطبه. وفي ذلك بيان لمكانة ومنزلة موسى عليه الصلاة والسلام، وأنه كليم الله تعالى. وهي نعمة جليلة، وميزة كبيرة، ومنزلة وحفاوة عظيمة أن يكلمه ربه تبارك وتعالى.

ومن فوائد دقائق كلام رب العالمين أن كلمة ﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾ تفيد تكرار البركة مرتين، وهي من القُدس الذي يعني الطهارة والنزاهة. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: والمعنى: الْمُقَدَّس مرة بعد مرة، كما قال عدي بن زيد[٢] وقال مجاهد رحمه الله تعالى: قُدِّس، بورك مرتين[٣] مما يبين مقدار التفاضل. ومن ذلك درجات فضل الصلاة في المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى. ومشاعر الحج، وفضل المساجد على غيرها من بقاع الأرض.

ثم يخبر عَزَّ وجل عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام بأنه قد اصطفاه من بين خلقه لرسالته ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ فأنا اصطفيتك واخترتك من بين غيرك من الناس، وهذا في زمانه عليه السلام ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ أي: اصطفيتك للنبوة والرسالة، وفي هذا غاية التكريم والرفعة لموسى عليه الصلاة والسلام، وورد الخطاب البياني بضمير المتكلم ﴿وَأَنَا﴾ ليفيد التعظيم والتبجيل، بأنه أنا الله الذي اصطفيتك، وهذه منقبة عظيمة جليلة القدر. ثم بعد بيان الاصطفاء له والاختيار، يبين له عَزَّ وجل ما سيكون له من الله تعالى، وما يجب عليه ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ فنبهه تبارك وتعالى إلى الاستماع لما سَيُلقى إليه من تكاليف

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/١٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩١/٥)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/١٦)

الرسالة. وفي هذا تشويق لما سَيُقَال له من ربه تبارك وتعالى، وتنبيه للاهتمام، أو لتأكيد الاهتمام، لأنه حتماً سيهتم بخطاب من يكلمه. وفي هذا بيان للحرص والعناية.

وفي هذا التدرج الخطابي من الله تعالى مدرسة في العملية التعليمية، وفي التوجيه والإرشاد. فأول الأمر كان لفت الانتباه بالنداء مع التعيين للمُنَادَى ﴿ نُودِيَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴾ الثاني: هو التعريف بمن يخاطبه ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ الثالث: أخلاقيات الاستماع بالتعظيم لتحصل البركة ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ ﴾ فانزع حذاءك. والرابع: التعريف بقيمة المكان، ومنزلته، وما يجب له ﴿ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾ الخامس: البدء في الإخبار بعلة وسبب الكلام، مع قوة التحفيز، برفع مقام الْمُخَاطَب ﴿ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ ﴾ فربك قد اختارك من بين جميع الناس الذين كانوا في عهدك. ثم السادس: الأمر بالإصغاء والمتابعة لما يُلقى إليه من ربه. ﴿ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ بما يفيد الانتباه لما يُقال لك، والإصغاء له، وحفظه، والاهتمام به، والعناية بالتنفيذ له. وفي ذلك تشويق للقول الذي سيقال له من رب العالمين.

ثم تدرج الخطاب من الله سبحانه وتعالى مع كليمه موسى عليه السلام إلى ما يجب أن يكون منه، وما يجب أن يقوم به عليه السلام ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ فبدأ بما يجب على موسى عليه الصلاة والسلام تجاه ربه جَلَّ جلاله. وقد كرر الله تعالى عليه التعريف بذاته ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ ولكن هذا التكرار يحمل مزية عظيمة، وهي كلمة التوحيد ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ حيث أفاد البدء بها أنها أعظم ما يجب أن يعرفه العبد أولاً، وأول ما يجب أن يحققه في نفسه وواقعه، بتوحيده لله تعالى، ونفي الشرك عنه مطلقاً ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ ومن مزايا هذا التكرار ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ أنه بدأ بالتأكيد الذي أفاد التعظيم ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ وهو نداء تعليم، وليس نداء تعريف بالمنادي كما هو فيما سبق من قوله تعالى ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ فكان النداء الأول بالربوبية ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ وهو نداء إعلام بالمتكلم، وأما هذا النداء الثاني: فهو بالألوهية، وكلاهما اشتملا على التأكيد، فالنداء الأول ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ إني أنا الله ربك يا موسى، مؤكداً له ذلك بحرف التوكيد **(إن)** والتي اشتملت عليها ﴿ إِنِّيٓ ﴾ ثم زاد التأكيد بضمير المتكلم ﴿ أَنَا۠ ﴾ الذي أفاد تقرير ما بعده، من أن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى.

والنداء الثاني زاد فيه التأكيد عن الأول، بتكرار النون ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والتأكيد يفيد تعظيم وإجلال المؤكَّد، فالأول إخبار ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ فالمتحدث إليك هو ربك تبارك وتعالى، والثاني: زاد فيه المعنى بأنه تجاوز الإخبار إلى ما يجب أن يكون عليه من توحيد الله تعالى، وصرف العبادة له وحده لا شريك له، فزادت النون لزيادة عظمة ما بعدها ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ فخاطبه عَزَّ وجل بالألوهية، لأن في معنى الألوهية صرف العبادة له سبحانه وتعالى، لأنه هو المألوه وحده لا شريك له. وهو أول ما يجب على الْمُكَلَّف أن يعرفه، ويقوم به، بأن الله سبحانه وتعالى هو المستحق للألوهية الكاملة الوافية، والتي أقوى لوازمها صرف العبادة له عَزَّ وجل وفق أمر به سبحانه وتعالى.

فالجزء الأول هو ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ أنا الله المألوه، الذي ليس في الكون غيره عَزَّ وجل، فهو الاسم العلم، الذي ليس له سمياً أبداً، والذي يحمل دلالة الانفراد بالألوهية كاملة. والجزء الثاني ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ نفي الشريك مطلقاً، ونفي وجود أي إله آخر غيره سبحانه وتعالى، وجاء بأسلوب الحصر والقصر، بالنفي ثم الإثبات، نفي الألوهية عن غيره مطلقاً ﴿لَآ إِلَٰهَ ﴾ ثم حصرها في ذاته العظيمة الكريمة الجليلة ﴿إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ وبناء على هذا التقرير والإثبات ﴿ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ فاصرف العبادة جميعها لربك الذي خلقك، وكَلَّمك، وأدِّ العبادة خالصة له عَزَّ وجل دون كل ما يُعْبَد من دونه من المعبودات.

فبدأ التوجيه الكريم بفعل الأمر ﴿ فَٱعْبُدْنِي ﴾ الذي يفيد وجوب العبادة له عَزَّ وجل، وتحريم تركها، وتحقق العقوبة لتاركها، لأن فعل الأمر يستوجب الوجوب. مع عدم فعل كل ما يضاد إقامتها. والعبادة تشمل وتقتضي الأداء والقيام بها كاملة، مع الإخلاص والتعظيم لرب العالمين، على ما تضمنته من أفعال وأقوال وإخلاص. فيدخل في ذلك وجوب الإخلاص، لأن المعبود هو الله سبحانه وتعالى ﴿ فَٱعْبُدْنِي ﴾ وهذا تنصيص على إفراده بالعبودية، مما يستوجب التنزه من الرياء، وكل ما ينافي العبودية، وأن العبادة جميعها لا تُصرف إلا له جَلَّ في علاه، كما يفيد التعظيم التعبدي أن يكون له وحده سبحانه وتعالى لا شريك له.

وهذا يُوضح ويبين أن العبادة التي يَعْبُدُ العباد ربهم بها توقيفية عليه عَزَّ وجل، فتعبده بما أمر، وبالكيفية التي شرعها سبحانه عَزَّ وجل. ثم خص الصلاة من بين العبادات، بالرغم من أنها داخلة في عموم العبادة ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ مما يدل على منزلتها ومكانتها من بين العبادات، وأن منزلتها في شريعة الله لموسى كما هي في شريعتنا من المكانة والمنزلة والقدسية. وورد التوجيه لموسى عليه السلام في أداء الصلاة بفعل

الإقامة ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي تفيد: الأداء والمداومة والاستمرار عليها، وإتمامها على الوجه الذي شرعه الله تعالى في شريعة موسى عليه السلام، فإقامة الشيء: الإتيان بكل ما يقوم ويعتمد عليه، من الأركان والواجبات، مع عظيم العناية والاهتمام.

وفي ربط الصلاة بذكره سبحانه وتعالى ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ ما يدل على النية، لأن القيام لها هو من أجل ذكره عَزَّ وجل، فاقترنت النية بصحة القيام بها، وأصبحت شرطاً لها، فلم يقم المصلي بها لغير الله تعالى، بل قام لها إخلاصاً لله تبارك وتعالى، حتى وإن فعل شيئاً أثناء سيره للقيام لها، فلا ينصرف إلا لها على أصل القيام. وتم التعبير لها بلفظ القيام ﴿وَأَقِمِ﴾ لبيان منزلتها وعظمتها، ففي اختيار اللفظة ما يدل على المقصد ولمعنى، وجاء لفظ الصلاة مطلقاً ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ لتشمل جميع أنواع الصلوات: المشروعة في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام. فأقم الصلاة التي هي أشرف وأعظم وأجل العبادات، ليحصل لك بها ذكري. أي: ذكر الله عَزَّ وجل. والاتصال به سبحانه وتعالى، فإن ذكره عَزَّ وجل أعز وأنبل الأعمال، وأجل المقاصد، فالصلاة تذكر العبد بربه وخالقه.

ومن غزارة معاني قوله تعالى ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ أنها أفادت التعليل أو السبب من إقامة الصلاة ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ من أجل يا موسى أن يتحقق بها ذكرك إياي، أي: لتذكرني فيها، ويشمل معنى ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ أي: لذكري أنا لا لغيري، بما يفيد الإخلاص له عَزَّ وجل، ونفي الشرك البتة، فيكون أداؤها لطلب مرضات الله عَزَّ في علاه، بما يفيد أن يتحقق لك بها فعل الإخلاص والتذلل لي. فتضمنت كما ذكر ونقل الإمام ابن جرير رحمه الله تعالى من أقوال أهل العلم: أنك إذا أقمتها ذكرتني. قال مجاهد رحمه الله تعالى: إذا صلى عبدٌ ذكر ربه. وقيل: تصليها حين تذكرها. وأولى الأقوال: أقم الصلاة لتذكرني فيها، لأن ذلك أظهر معناً[1] مما يدل على أن أعظم مقاصد الصلاة هو ذكر الله سبحانه وتعالى، وتقديسه، ومناجاته، وأن إقامتها تُذَكِّر العبدَ بربه عَزَّ وجل.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى بيان وقوع الساعة التي يبعث الله فيها الخلائق من قبورهم لموقف يوم القيامة، والتي أخفى اللهُ تبارك وتعالى علمها عن كل أحد، فلا يعلمها إلا هو عَزَّ وجل، وأنها كائنة الوقوع لا محالة ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ إن وقوع الساعة التي هي يوم

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٣٢-٣٤)

القيامة، متحققة الوقوع ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ كائنة وقائمة الوقوع، فهو أمر حاصل لا بد منه، إذ يحصل فيه البعث والنشور، حين يبعث الله تعالى الخلائق من قبورهم للحساب، ثم الثواب والعقاب، وكل بحسب ما يستحق. إلا بما يعفو ويتجاوز عنه سبحانه وتعالى بفضله وكرمه ورحمته ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: أكاد أخفيها من نفسي. يقول: لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً[١] وقال ابن عباس رضي الله عنهما، أي: لا أُظهر عليها أحداً غيري، وقال: لا تأتيكم إلا بغتة[٢] مما يدل على شدة إخفائها إلى درجة سترها الذي بلغ مبلغاً عظيماً، فيوضح سبحانه وتعالى أنه وصل قَدْرَ وَعُمق سِتْرِهَا، أنه يكاد يخفيها عن نفسه عَزَّ وجل. لإعطاء صورة المبالغة عن جهل غيره بها، فلا مَلَكٌ مقرب، ولا نبي مُرْسل يعرفها. فإذا بلغت هذا المبلغ من الستر فكيف أُظهرها لغيري من عبادي.

وفي إخفائها حِكَمٌ عظيمة، فلعل منها: حتى يعمل المؤمن وهو يترقب خوفاً من أن تقع وهو على غير طاعة، فيهاب أن تقع وهو على معصية، ويكثر من التوبة والاستغفار، مخافة أن تقع فلا ينفع استغفار ولا توبة حينها، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده، حتى يجتهدوا في الطاعة، ويبتعدوا عن المعصية، ويكثروا من الطاعة، والتوقي من المعاصي والمظالم، فيعيشون في قدر كبير من الأمن فيما بينهم. فيقول تبارك وتعالى ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ فإن إخفاؤها حتى يتم جزاء كل نفس بما تستحق على ما عملت في حياتها، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر، فلو علم المخلوق بموعدها، لسار في شهواته كيف يشاء، ثم قبل موعدها بأيام يتوب ويستغفر. ولكن في إخفائها ما يحقق مصالح العباد في الدنيا، وفي الآخرة.

ثم يحذر تبارك وتعالى من الصدود عن الإيمان بالساعة، وعدم الإقرار بها، والانشغال والاقتداء بالمنكرين لها ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ فلا يصدك، بأن يصرفك ويُشغلك عن الإيمان بها، والعمل لها من كان كافراً بها، شاك فيها، غير مؤمن بوقوعها ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ وأطاع ما تهواه نفسه الأمارة بالسوء، التي يستغلها الشيطان بتزيين الانحراف لها ﴿فَتَرْدَىٰ ﴾ فتهلك. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين، أي: لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٥١/٣-١٥٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٤/١٦-٣٥)

وأقبل على مَلَاذِّهِ في دنياه، وعصى مولاه، واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴾ أي: تَهْلَك وتعطب[١] فيتحقق في منكرها الهلاك، ثم يخسر الخسارة التي لا نجاة منها.

فالصاد عنها متصف بصفتين: الأولى: ﴿ لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ منكر لوقوعها، مكذب بها، غير معتقد بالساعة، والصفة الثانية له: اتباع الهوى والشهوات ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ لأن الكفر بها، يجعل الجاحد لها يتمادى في شهواته، واتباع ما تهواه نفسه من الباطل. مما يدل عن أن عدم الإيمان بها، يَتْبَعُهُ ويَلْحَقُ به إطلاق عنان هوى النفس، وما تشتيه وتستطيبه من الشهوات الباطلة الفاجرة، من المحرمات والتطاول والظلم، من غير قيود، ولا موانع ولا حواجز، فيخالف أمر الله تعالى ونهيه. وبالتالي لا يصده عن شهواته شيء من الخوف، والترقب، بل إنه كلما وجد فرصة أمعن في الباطل دون أن يحمل هماً لشيء. فينزلق في الشهوات بالتمادي ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴾ فيتحقق فيه الهلاك.

ومن بلاغة البيان، وإعجازه، أن ورود الخطاب باعتبار ما قبلها وما بعدها، فإنه لموسى عليه السلام، فلا يَرُدَّنك ولا يصرفنك ويُشغلنك يا موسى عن التأهب للساعة من كَفَرَ بها، واشتغل بهواه عنها في اشباع شهواته. قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: فلا يَرُدَّنك يا موسى عن التأهب للساعة ﴿ مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ يعني من لا يقر بقيام الساعة، ولا يصدق بالبعث بعد الممات، ولا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً[٢] وباعتبار الموعوظ بها فإنه موجه لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبع له عليه الصلاة والسلام، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خطاب لجميع أمته[٣] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: وهذا النهي وإن كان للكافر بحسب الظاهر، فهو في الحقيقة نهي له صلى الله عليه وسلم عن الانصداد، أو عن إظهار اللين للكافرين، فهو من باب: لا أرينك ها هنا، كما هو معروف[٤]

وفي هذا تنبيه وتعظيم لشدة التحذير من الاغترار بالكافرين المكذبين بيوم الساعة، فإذا كان النهي والتوجيه في حقه صلى الله عليه وسلم وهو الأبعد من أن يتبع من لا يؤمن بها، فهو في حق غيره أعظم وأكبر، بما يدل على تعظيم شأن التحذير والْمُحَذَّر منه، الذي حذر الله تعالى منه نبيه صلى الله عليه وسلم. مما يبين شدة الحذر من فكر الكافرين، ومن متابعتهم لشهواتهم وشدة نزعتهم نحوها، والاغترار بما هم فيه، ومن إهمال

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٥٢/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤١/١٦)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٣/٥)

(٤) الشوكاني، فتح القدير (٣٥٩/٣)

الله تعالى لهم، وألا يكون الإنسان رخواً وليناً في دينه، بما يتطلب أن يكون المؤمن ذو صلابة في دينه، ومعتز به أيما اعتزاز، حتى يقطع الطريق والأمل على من أراد منه الغواية. وألا يغتر المؤمن بكثرة سواد الكافرين، وما هم عليه من الانزلاق في شهواتهم، فتزل قدم المؤمن أمام تلك المؤثرات.

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان الكلام الذي حصل بن الله سبحانه وتعالى وبين كليمه ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام. فقال عزَّ وجل ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ سؤال استفهام يفيد التقرير، فمع معرفة الله تعالى بما في يمين موسى عليه السلام، إلا أنه عَزَّ وجل وَجَّه له السؤال عنها ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ وما تلك التي تحملها في يدك اليمنى؟ سؤال ليقف به موسى على التقرير المؤكد على ما في يده، ليفيد التنبيه، ولفت الانتباه لحقيقة التي في يده بأنها عصا وليس شيء آخر، حتى يدرك فيما بعد التَّغَيُّر الذي سيكون عليه حال تلك العصا. فيتقرر في نفسه حقيقة ما في يمينه بأنها عصا، ليرى انتقالها من حالها الأصلي إلى ما ستكون عليه، فيبصر المعجزة بعينه، ويحسها عند قبضها ومسكها ليحملها.

فأجاب موسى عليه الصلاة والسلام بما أخبر الله تعالى به عنه ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ فقد أجاب موسى رَبَّه بأنها عصا، وأنها له، وأنه يعتمد عليها لمساعدته في سيره، ويُشير بها على غنمه لتسير أمامه، ولأمور أخرى. فاشتملت الإجابة على دقائق من البيان والإيضاح الدقيق، ليستوفي بها جميع أوجه السؤال. فالسؤال ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ سؤال عما يحمله في يمينه، وزاد من فهمه وكرم جوابه عليه السلام أنه أبان وأخبر بها وبعلة حملها، فزاد في الجواب بالمزيد من الإيضاح عن دقائق استخدامها، وانتفاعه بها.

فقال بما ذكره الله تعالى عنه ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ ﴾ فلم يقل هي: عصا، كما هو أول ما يتبادر إلى ذهن سامع السؤال، بأن الجواب يكون في تسميتها، وذلك بذكر عينها، بل تجاوزها إلى أن نسبها لنفسه ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ ﴾ أي: هي ملكي، وهذا زيادة في البيان والإيضاح بما يقرر أن ملكيتها له، وأنها خاصة

به شخصياً، مما يفيد أهمية فهم السؤال ومغزاه، وفيه فطنة موسى عليه السلام وتوفيق الله تعالى له في حُسن الجواب.

وفيه كذلك من الفوائد أهمية استيفاء الجواب بإضافة جميع ما يتعلق به من الإيضاح والإفصاح. لذلك تدرج في الجواب إلى علل الحمل لها، وتجاوز ذكر عينها إلى إيضاح أوجه الانتفاع منها وبها، فبدأ أولاً: بما يخص الاتكاء ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا ﴾ وهو الاعتماد على العصا حين الحاجة إليها، فيتحامل عليها في المشي وعند الوقوف، والصعود والنزول. ومن علل الاتكاء، خشية الانزلاق، أو عند الوقوف الطويل، وذلك عندما يقف على القطيع أمامه، وهو ينظر إليه، وهي ترعى في مراعيها أمام ناظريه، بما ينفي به العجز الجسمي عن نفسه عليه السلام، بل هي العصا التي يستخدمها الراعي والمسافر. ثم بعد بيان ما يخصه شخصياً من الانتفاع بها، ينتقل في الإيضاح إلى علة أخرى، وهي ما يخص انتفاعه بها مع غنمه ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ أي: أحرك بها أوراق الشجر ليتساقط على غنمي، فتأكل منه، أي: فيحرك بها أغصان أو أوراق الشجر على غنمه. فالهش هو الْخَبْط، ومنه هز أو ضرب أغصان وأوراق الشجر. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: أهز بها الشجرة، ليتساقط ورقها، لترعاه غنمي[1] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: هش الورق: خبطه، أي: أخبطه على رؤوس غنمي تأكله[2] قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والهَشّ: الخبط، وهو ضرب الشجرة بعصا، ليتساقط ورقها، وأصله متعدّ إلى الشجرة[3]

ومن غزارة البيان ودقة مبناه، وإعجاز غايته، واستيعابه للمضمون أن رحابة الدلالة فيما حكاه القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ أوسع رحابة فيما لو كان النص الكريم هو: وأهش على غنمي بها. فجملة: وأهش على غنمي بها. حصرت وقوع الهش أو تحريك العصا على الغنم فقط، بينما ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ وقوع الهش أو حركة العصا على ما يقع عليه الهش من الشجر، فيقع المهشوش عل الغنم، فيكون المعنى: أُسقط على غنمي الورق فتأكله، وهو ما ذهب إليه أهل التفسير والتأويل. فما يقع عليه الهش الذي هو المفعول به فإنه محذوف، لتتسع رحابته. فيشمل هذا السياق وقوع الهش على الغنم أيضاً، أي إضافة إلى هش أوراق الغنم، فإنه يشمل أشياء أخرى، منها التهويش على الغنم، وعلى ما يعترضه

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٥٢/٣)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٥٦/٣)

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٣٤/٧)

كالحيوانات والحشرات، فقد أزال هذا الأسلوب عنها حصر الهش على الغنم فقط، فكانت أعم من السياق الآخر أو المقابل. وهذا من إعجاز البيان في القرآن العظيم.

وأفاد هذا النص الكريم أن موسى عليه السلام قد رعى الغنم، كما قال صلى الله عليه وسلم (ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم)[1] لِمَا في رعي الغنم من التدبير، والإدارة، وحُسن التعامل، والرفق بالرعية، وسياسة الأمور التي تظهر في رعاية الغنم، حتى لا تنفر من الراعي.

ثم تدرج موسى عليه السلام في الإجابة بالانتقال من التخصيص إلى التعميم ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ فبعد أن ذكر علاقته بالعصا، وأنه يتوكأ عليها، ثم بيان استخدامه لعصاه مع غنمه، ثم ينتقل إلى عموم الاستخدام ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ أي: ولي في عصاي مقاصد وحاجات زائدة عن التي ذكرتها، فنفى عنها الحصر إلى رحابة المنافع المتعددة. لأن كلمة ﴿مَـَٔارِبُ﴾ جمع مأرُبة، ومأرَبة، ومأرِبة، بمعنى حاجات متعددة، فأفاد الجمع تعدد الحاجات لها. مثل أن يضرب بها ما يضره من الثعابين والحشرات، ويدفع بها ما يَعيق طريقه، ويبطش بها السباع، وربما عَلَّق بها زاده، ووضع عليها ما يستظل به، ونحو ذلك من الاستخدامات التي لا حصر لها. وهذا من دقائق الجواب، بأن يشير إلى التعميم بعد التخصيص، خاصة إن كان في ذكر مفردات الجواب إطالة، أو أنها صعبة الحصر، أو صعبة الاستحضار، وأن يكتفي بأهم مفردات الاستخدام، أو أهم مفردات الإجابة. كما تدل هذه الاستخدامات على أن موسى عليه السلام لم يتخذ العصا عبثاً، بل إن له بها حاجات كبيرة وكثيرة ومهمة. وفي هذا الحديث الذي دار بينه وبين ربه سبحانه وتعالى ما يزداد به موسى إيماناً ويقينا، وثقة فيما سيكون من حدث الآية العظيمة التي سيجعلها سبحانه وتعالى في هذه العصا، والتي سيواجه بها موسى عليه السلام فرعون، فيدرك موسى بما ناله من الثقة وقوة الإيمان تمام الإدراك بأنه مُؤَيَّد بالحجج والبراهين من ربه عَزَّ وجل، وأن الله تعالى معه، ومُعينه وحافظه وناصره.

وبعد هذه المقدمة من السؤال والجواب، التي يزيح الله تعالى بها رهبة الموقف، ليستقبل بها موسى عليه السلام الآيات والحجج العظام، وهنا يأمر الله تبارك وتعالى عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام أن يطرح عصاه أرضاً ﴿قَالَ أَلۡقِهَا يَـٰمُوسَىٰ﴾ يأمر الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام بأن يُلقي هذه العصا التي أوضح أنواع استخدمها، والتي تقرر بأنها عصا مثل جميع مفردات أنواعها التي يستخدمها الناس، فأمره عَزَّ وجل أن يطرحها ويقذفها على الأرض. فأتمر موسى فوراً لأمر ربه تبارك وتعالى ﴿فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ

---

(1) البخاري، الجامع الصحيح (١٣٠/٢) برقم (٢٢٦٢)

تَسۡعَىٰ ﴾ فبعد أن دفع موسى على الأرض العصا التي كان يحملها ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسۡعَىٰ ﴾ فقد تحولت مباشرة، وفي نفس الوقت والحال إلى حية تمشي على بطنها على الأرض بقدرة الله تعالى.

والحية هي: اسم جنس، يجمع الكبير والصغير، والذكر والأنثى، على مختلف مسمياتها. ومن دقة الوصف، أن وصفها سبحانه وتعالى بالسعي ﴿ حَيَّةٌ تَسۡعَىٰ ﴾ والذي أفاد كمال وتمام الحياة، بحركتها في المشي المتصف بالسرعة، فليس ثمة مجال للشك قطعاً. مما يُثبت كمال الحياة بالسعي الذي ينتفي معه كل تأويل يخالف كمال حياتها ونشاطها. مما يبين عظمة قدرة الله تعالى، الذي إذا أراد شيئاً جعله كما أراد تماماً، مما يوجب الخنوع والخضوع له عَزَّ وجل.

ثم يأمر الله تبارك وتعالى عبده موسى بأن يلتقط عصاته من الأرض، لبيان أن في طريقة أخذها آية كبرى ﴿ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ فقد بدأ المولى تبارك وتعالى أمره لموسى عليه الصلاة والسلام بأن يأخذ عصاه، التي حينها كانت حية تسعى ﴿ قَالَ خُذۡهَا ﴾ ثم شجع وجَرَّأ الله تعالى موسى عليه السلام بأخذها من خلال حثه إلى عدم الخوف منها، فلن يصيبك منها ما تكره من البأس ﴿ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡ ﴾ مما يدل على أنه حصل في قلب موسى الخوف مما شاهد، حتى وصل به الأمر إلى الخشية من أن يمسَّها، فيلتقطها، لواقع الحياة التي كانت عليه. ولكن الرحمن الرحيم حثه على عدم الخوف منها، وَثَبَّتَ اللهُ تعالى فؤادَه ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ فبمجرد أخذها ستعود مباشرة إلى حالتها الأولى، فتصبح عصاك التي كنت تحملها. قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يُقال لكل من كان على أمر فتركه، وتحول عنه ثم راجعه: عاد فلان سيرته الأولى، وعاد لسيرته الأولى، وعاد إلى سيرته الأولى[1] وفي هذا ما يبين أثر المقدمة التي سأل به ربنا تبارك وتعالى موسى عليه الصلاة والسلام عن عصاه التي يحملها في يمينه، لتكون تمهيداً لما سيحصل فيها بقدرة الله عَزَّ وجل، فيزداد بذلك موسى إيماناً ويقينا، وثقة فيما سيواجه من تكاليف، وما سيكون في هذه العصا من العظمة التي سيجعلها الله سبحانه وتعالى حجة وقوة يواجه بها موسى عليه السلام فرعون، فيدرك موسى ما ناله من الثقة وقوة الإيمان بأنه يحمل حجة وآية عظيمة، ودعوة للإسلام مُؤَيَّدَة بالحجج والبراهين من ربه عَزَّ وجل، وأن الله تعالى معه، ومُعينه وناصره. مما يكشف عظمة قدرة الله تعالى، فهو الذي تحولت النار بأمره برداً وسلاماً على إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وهو الذي يحميك

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٤٨)

أيها النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي يحمي عباده الصالحين، مما يقوي عامل التوكل عند المؤمن، فيزداد توكلاً وإيماناً.

ثم يتدرج التوجيه الكريم بموسى عليه السلام إلى آية أخرى، قال الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴾ واجمع يدك اليمنى يا موسى إلى عضدك الأيسر، فتجعلها تحته عند الإبط، فتلصقها به، أي: تحت العضد، فيكون الكف تحت العضد المقابل، لأن الضم يعني الجمع مع الإلصاق، والجناح من الإنسان هما جانباه. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: وجناحا الإنسان: جنباه، والأصل المستعار منه جناحا الطائر، وسُمّيا جناحين لأنه يجنحهما عند الطيران، والمراد إلى جنبك تحت العضد[١] قال الفراء رحمه الله تعالى: الجناح: من أسفل العضد إلى الإبط[٢] فجناح الإنسان جنبه، لأنه في محل الجناح من الطائر. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: أن تباشر جلد جناحه، بأن يدخلها في جيب قميصه حتى تماس بشرة جنبه، كما في سورة النمل ﴿ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾[٣]

ثم أوضح تبارك وتعالى العلة والسبب من هذا الصنيع ﴿ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ﴾ فإذا أخرجت يدك من المكان الذي أُمرت بوضعها فيه، فإن يدك تخرج مُتلألئة نوراً ساطعاً، أبيضاً من غير أذى، أي: من غير شيء يشينك، وفي هذا احتراز يفيد التطمين. فإن خروجها بيضاء لا يعني الأذى كالبرص ونحوه، لكنه بياض نور. ثم بين سبحانه وتعالى أن هذه آية إضافية على التي قبلها، وهي العصا ﴿ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴾ فهي دلالة إعجاز وحجة مع معجزة العصا التي تثبت صدق رسالتك، بأنك رسول من الله سبحانه وتعالى. فإنها آيات عظيمة باهرة ﴿ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴾ فإن آية العصا التي تحولت إلى حية تسعى، وآية يدك التي تخرج من جيبك بيضاء من غير سوء، هما من أجل أن نريك بعض آياتنا العظمى، التي تبين لك عظيم قدرتنا وسلطاننا، فهي بعض دلالات آياتنا وليست كل آياتنا، لأن جملة ﴿ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ﴾ تفيد التبعيض، أي: أنها بعض منها وليست كلها. وقد سماها الله سبحانه وتعالى ﴿ ٱلۡكُبۡرَى ﴾ لعظمتها وقوة أثرها على القلوب، فلا يكفر بها إلا مكابر وجاحد. وبالرغم من أن في مشاهدتها ما تتحقق بها صفة العظمة، وقوة الحجة، إلا أن في تسميتها

(١) الزمخشري، الكشاف (٥٨/٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٥/٥)

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٣٥/٧)

﴿ٱلْكُبْرَى﴾ ما يدل على زيادة تأكيد العظمة وتحققها، وفي ذلك زيادة تطمين لموسى عليه السلام، بأن الآيات التي معه آيات عظيمة، لا يصد عنها إلا مكابر، وجاحد للحق الواضح.

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾

فبعد أن رأى موسى الحجة والبرهان التي تجلت له من ربه تبارك وتعالى في عصاته التي يحملها، وفي يده التي هي جزء منه، يبعثه ويوجهه ربُّه تبارك وتعالى بالرسالة ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ وفي هذا تصريح بالغرض المقصود من الآيات الكبرى التي تمثلت في العصا وفي يده عليه السلام. ففي الأمر بالتَّوَجُّه إلى فرعون تكليف بالرسالة، وما يتبعها من تبعات تخصه وتخص من أُرسل إليه، فما يخصه هو شرف الرسالة، وحمل الأمانة، وأداء واجباتها ومسؤولياتها، بالذي معه من الحجج والبراهين، وأما تبعات من أُرسل إليه فهي التعامل مع من وصفه الله تعالى بالطغيان الذي هو مجاوزة الحد في التمرد والعصيان والفساد والاستعلاء، وادعاء الربوبية لنفسه، وأنه لا يعلم لرعاياه الهاً غير نفسه ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: ثم صَرَّح سبحانه وتعالى بالغرض المقصود من هذه المعجزات، فقال ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ وخَصَّه بالذكر، لأن قومه تبع له، ثم علل ذلك بقوله ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: عصى وتكبر، وكفر وتجبر، وتجاوز الحد[1] وفي هذا ما يفيد أهمية التدرج في التعليمات والبيان، حيث كلم الله تعالى موسى عليه السلام، فَنُبِئَ بذلك، ثم زوده الله تعالى بالآيات والحجج والبراهين، ثم تكليفه بالرسالة، ثم بيان علة الإرسال، وهي: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ فقد تجاوز فرعون الحد من الكفر والطغيان.

وبعد هذا التكليف العظيم يتوسل موسى إلى ربه عَزَّ وجل بأن يزوده ويُعينه بما يتحقق به أمر الرسالة، من مواجهة الطاغية فرعون الذي استعبد الناس بقهرهم على ما يريد من الكفر والإذلال، فإن فيها تكليف عظيم، بمقابلة ومواجهة هذا الطاغية الذي ادَّعى الربوبية لنفسه، فحكى القرآن الكريم قول موسى الذي

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٦٣/٣)

طلبه من ربه تبارك وتعالى ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴾ فسأل الله تبارك وتعالى أن يوسع قلبه ويُفسحه للحق، حتى يتحمل مواقف الدعوة التي يقابلها من الأقوال والأفعال القاسية، فيتحمل ذلك من دون أن يضيق صدره بما يواجه من فرعون وغيره، فلا يخاف ولا يرجو إلا الله تبارك وتعالى، فيتمكن من مواجهة فرعون بالحق وهو في طمأنينة وتؤدة، من غير انفعال يستثير به غضب من يدعوه للحق، مما يدل على أن زوال الخوف والتفكير فيه هو قوة للإرادة، فهو خير ما تتقوى به عزيمة الإنسان، وتحصل به الشجاعة القلبية. مما يبين توفيق الله تعالى لموسى، بأن تنبّه لأهمية انشراح الصدر في مواجهة الصعاب، وأن في انشراح الصدر معونة لصاحبه في الأناة والحلم، واستيعاب مَن حوله من الخصوم، وحُسن التعامل مع الكلام الجارح، والردود والأفعال القاسية. بما يؤكد أهمية وأثر انشراح الصدر على التفكير والصبر واتخاذ القرارات. فما أحوج المؤمن لسؤال ربه انشراح الصدر وتيسير الأمر.

ثم تدرج موسى في طلبه من ربه تبارك وتعالى إلى أمرٍ آخر، معيناً له في أداء رسالته ﴿ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴾ أي: سهل عليَّ ما بعثتني له، وأمرتني به، وكل مقصد ومسلك أسلكه في سبيل ما كلفتني به، وذلك بتهوين ما يكون في طريقي من العقبات والصعاب. فاستوهَب موسى ربه أمراً غاية في الأهمية حتى يؤدي ما عليه من تكاليف الرسالة. وهذا يُعَلِّم المؤمن أن تيسير الأمور مهم جداً في قضاء الحاجات، وأن الْمُيسِّر لها هو الله عَزَّ وجل، فإذا يسر الله تعالى للمؤمن أمره جعله يسلك الأبواب والمداخل الصحيحة، المؤدية والمفضية لما يريده ويبتغيه، ويغلق عنه مداخل الإحباط والتعثر، بما يستوجب على المؤمن قبل الشروع في أمره أن يسأل الله تعالى التوفيق والتيسير. اللهم إنا نسألك التوفيق والتيسير وانشراح الصدر لكل خير.

فقد بدأ موسى عليه السلام بما يخص القلب المتعلق بانشراح الصدر، ثم ما يتعلق بكافة الأمور المتعلقة بالتيسير، فسأل الله تعالى التيسير لها، ثم يتدرج إلى اللسان الذي يُوصل البيان والبلاغ من الحجج والبراهين، والتعريف بالحق، فحكى عنه القرآن الكريم قوله عليه السلام ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴾ أي: وأطلق لساني بالنطق الفصيح الخالي من التلعثم والموانع التي تحول دون طلاقة اللسان وفصاحة البيان، لأن اللسان هو أداة التعبير والإفصاح والإبلاغ. وهي عقدة كانت في لسان موسى عليه السلام ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴾ فطلبه هو أمر كائن في لسانه ﴿ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴾ مما يفيد أن في لسانه علة مانعة أو عائقة من كمال الإفصاح، وليست مانعة من الإفصاح، بدليل أنه كَلَّم ربه، وسأله بنطق قد أثبته القرآن الكريم له، وذكرت بعض كتب التفسير أنها بسبب موقف مع فرعون، عندما كان طفلاً في بيت فرعون. إذ كان في حجره، فشد موسى لحية فرعون، فقال هذا عدو لي، اقتلوه. فأرادت زوجته أن تدفع عنه القتل بأخف من ذلك، فقالت إنه صغير لا يُدرك، فخيره بين الجمرة والتمرة، ليتبين جهله، فأخذ موسى الجمرة فوضعها على لسانه، فحصل ذلك، قال ابن

جرير الطبري رحمه الله تعالى: وكانت فيه عُجْمَةٌ، كان من إلقائه الجمرة إلى فيه، يوم هَمَّ فرعونُ بقتله[١] وسواء صحت الرواية أو لم تصح فإن الأمر متعلق بوجود مانع من كمال الفصاحة، مما يدل على نعمة الفصاحة البيانية، التي يستطيع الإنسان بها التبليغ بمراده، وأنه كلما كان الإنسان أفصح كان ذلك أكمل وأجمل، فنسأل الله تعالى فصاحة البيان وتيسير الأمور وانشراح الصدر للخير وفي الخير والصلاح.

وقد علل موسى عليه السلام علة سؤاله بفك العقدة من لسانه ﴿ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴾ فإن مطلبه مقرون بالهدف في تحقيق واجب أداء الرسالة المأمور بها من الله سبحانه وتعالى ﴿ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴾ أي: يعلموا ما أقوله وأبينه لهم، فيفهمونه فهماً واضحاً لا تلعثم للسان فيه، فيحصل به المقصود من مخاطبته وحديثه مع فرعون وأعوانه. ووردت كلمة ﴿ يَفۡقَهُواْ ﴾ بصيغة الجمع، لتفيد يفقه فرعون وأعوانه ومن معه، وغيرهم ممن يدعوهم إلى الله تبارك وتعالى. بما يبين، إن الإرسال إلى فرعون يشمل قومه، وتعيين فرعون من بين أفراد قومه باعتباره كبيرهم وحاكمهم.

ثم طلب موسى عليه السلام من ربه مطلباً رابعاً ﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴾ أي: مساعداً ومعيناً يشد من عضدي، ويؤازرني فيما كُلِّفتُ به من أمر الرسالة. فالوزير من المؤازرة التي يتقوى بها الإنسان على شأنه وأمره، ويتحمل عنه بعض أعباء عمله، وينوب عنه حال عدم وجوده. ثم تدرج إلى تحديد مساحة من يختاره ويجعله ربه له وزيراً، فحدد هذا الوزير بأن يكون ﴿ مِّنۡ أَهۡلِي ﴾ فلا يكن خارجاً عنهم، فإن وافقت واستجبت يا رب لطلبي فليكن هذا الوزير من أهلي، الذين هم قرابته الأدنون، لأن أقرب الناس عوناً للإنسان هم أهله الذين هم خاصته. ثم تدرج من تخصيص الأهل، إلى تسمية من يُعينه ويختاره له، فيجعله ربه له وزيراً، فحدد هذا الوزير بأن يكون ﴿ هَٰرُونَ أَخِي ﴾ فتدرج في مطلبه إلى أن عينه باسمه، ونوع قرابته منه ﴿ هَٰرُونَ أَخِي ﴾ إن الذي أريده هو أخي هارون، مما يفيد في باب الإدارة أهمية أن تتاح للمسؤول اختيار من يراه عوناً له في أداء مسؤولياته. وأن يرفع من مكانته، كما رفع موسى عليه السلام من مكانة أخيه هارون، فقد أراد أن يحظى كذلك بشرف النبوة. قال الماوردي رحمه الله تعالى: وإنما سأل الله تعالى أن يجعل له وزيراً، لأنه لم يرد أن يكون مقصوراً على الوزارة حتى يكون شريكاً في النبوة[٢] وذكر مثله الإمام القرطبي رحمه الله تعالى[٣]

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٣/١٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٦/٥)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٠/١١)

وهارون أكبر من موسى سناً. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان هارون أكبر من موسى[١] مما يفيد أن القيادة مبنية على المطاوعة والملاينة من المرؤوس مع الرئيس، وأن السن أو العمر ليس شرطاً، وأن الهدف هو تحقيق الغاية المطلوبة. وأن على المرؤوس ألا ينظر إلى عامل السن أو العمر إن كان أكبر سناً من رئيسه، أو أميره أو مديره، أو من يلي فيه أمراً.

وقال موسى معللاً اختياره لأخيه هارون كما حكى عنه القرآن العظيم ﴿ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِى ﴾ أي: أشدد به ظهري. فالأزر: القوة، وآزره: قَوَّاه، أي: اجعله شريكي في الرسالة حتى نتعاون على عبادتك، وذكرك. فإن التعاون مُهَيِّج الرغبات، يتزايد به الخير ويتكاثر[٢] ولذلك يقال: آزرت فلاناً، أي: قويته، وكنت له في ذلك الأمر ظهراً. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والأزر: أصله الظهر، ولما كان الظهر مجمع حركة الجسم، وقوام استقامته، أُطلِق اسمه على القوة إطلاقاً شائعاً، يساوي الحقيقة، فقيل: الأزر للقوة[٣] وفي تعليل الاختيار والتعيين من موسى لأخيه هارون عليهما الصلاة والسلام ﴿ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِى ﴾ ما يفيد صلاح هارون عليه السلام، خاصة وقد توفرت فيه المطالب، وكذلك أن الأولى بالخير والمنزلة الرفيعة الأقرب إن كان أصلح من غيره. ومما يبين صلاح هارون عليه السلام أن من زكاه هو من كَلَّمَه اللهُ تعالى تكليماً، وخَصَّه واصطفاه بالرسالة عن غيره من الناس في زمانه. وقد كان هارون عليه الصلاة والسلام خير وزير وخير معين لأخيه موسى عليهما الصلاة والسلام.

ثم أضاف موسى عليه السلام علة وسبباً آخر في اختياره لأخيه هارون وزيراً ﴿ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِى ﴾ وهي المشاركة والمعاونة في شأنه الذي كلفه به ربه تبارك وتعالى، وهو تبليغ الرسالة، فنؤديها على أحسن وأفضل حال. قال القرطبي رحمه الله تعالى: وأشركه في أمري، أي في النبوة وتبليغ الرسالة، قال المفسرون: كان هارون يومئذ بمصر، فأمر الله موسى أن يأتي هو وهارون، وأوحي إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى، فتلقاه إلى مرحلة، وأخبره بما أوحي إليه، فقال له موسى: إن الله أمرني أن آتي فرعون، فسألت ربي أن يجعلك معي رسولاً[٤] وقال السعدي رحمه الله تعالى وغيره من علماء التفسير: أي: في النبوة، بأن تجعله نبياً رسولاً، كما جعلتني[٥] ثم ذكر المحصلة والفائدة العائدة من ذلك ﴿ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴾ أي: ننزهك عما لا يليق بك،

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٦١/١٥)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٥٨/٣)

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٣٨/٧)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٠/١١)

(٥) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٣٠/٣)

ونعظمك، ويكون ذلك بالطاعة التي منها الصلاة، وتنزيه ربنا عما لا يليق به عَزَّ وجل. وهذا التسبيح الذي سنقوم به لن يكون قليلاً، بل كثيراً، إذ نفى عنه القلة بإثبات الكثرة ﴿ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴾ مما يفيد المبالغة في القيام به، فكلمة ﴿ كَثِيرٗا ﴾ دليل على المداومة، حتى يصبح هذا الذكر ﴿ كَثِيرٗا ﴾ وهي صفة عامة، تدل على المبالغة، بإشغال الوقت بذكر الله جَلَّ في علاه بالتسبيح والذكر. كما يفيد أن موسى عليه الصلاة والسلام علم أن الله تعالى يحب من يسبحه، وأنه كلما كان العبد أكثر تسبيحاً لله تعالى، كان لله تعالى أطوع، وأكثر امتثالاً.

ثم أضاف ﴿ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ أي: نمجدك بكثرة الذكر، الذي نُشغل وقتنا به. فانتقل من خصوصية التسبيح إلى ما هو أعم وأشمل، وهو الذكر، إذ أن التسبيح يدخل ضمن الذكر، فالذكر أشمل وأعم، إذ يجمع العبادات كلها، لأنها ذكر لله تعالى. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: فإن الذكر يقع على سائر العبادات[1] فنشكرك ونحمدك بألسنتنا على ما أوليتنا وأنعمت به علينا من نعمك، بل ونعبدك بجميع أنواع العبادات، ونُكثر منها ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴾ فإنك يا ربنا عالم بنا، فلا يخفى عليك من أمرنا شيء، وقد اصطفيتنا وخصصتنا بهذا الإنعام والفضل. ففي ذلك إقرار منه بأنك يا ربنا تعلم حالنا، وما نستطيع في حقك من التسبيح والذكر، والتكثير منه، باستغلال أوقاتنا في ذلك. فأنت تبصرنا برؤيتك لنا، وعلمك بنا. وأفادت كلمة ﴿ كُنتَ ﴾ استغراق الزمن واحتوائها، لما كان منا، وما هو كائن، وما سيكون منا، فعلمك مستوفي للماضي والحاضر والمستقبل.

ثم استجاب الله تعالى له على ما طلب ﴿ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ أي: قد أعطِيناك ما سألت يا موسى. ففي ذلك تزكية لموسى في وجاهة ما طلب، وما تتحقق به مصالح الرسالة. كما يدل ذلك على كرم الله تعالى. وأن على المؤمن أن يُكثر من ذكر الله تعالى بجميع أنواع الذكر، وأن يمجد الله تعالى، وأن يُخلص النية فيما يطلب، بأن يكون عوناً له على طاعة ربه، والتقرب إليه بما يسأله ويُنعم به عليه عَزَّ وجل، كما هو حال موسى في تعليل مطالبه لكي يسبح الله تعالى، ويذكره كثيرا. اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحُسن عبادتك، وكثرة ذكرك وتمجيدك وتسبيحك وتوقيرك يا ربنا.

ومن دقائق الإجابة الكريمة من الله تعالى هو تأكيد الاستجابة لمطلب موسى عليه السلام بأداة التحقق ﴿ قَدۡ ﴾ والتي تعني التأكيد والتحقيق لما بعدها من بيان. ثم ورد الجواب بأسلوب حكاية القرآن الكريم عن الله تعالى ﴿ قَالَ ﴾ أي: قال الله سبحانه وتعالى. ثم المبالغة في تحقيق ما سأل موسى عليه السلام بكلمة

---

(1) الزمخشري، الكشاف (٥٨/٣)

﴿أُوتِيتَ﴾ التي تفيد الإخبار بأن قد وصلك ما سألت يا موسى، التي هي إفادة بالمجيء والتحقق للمطلوب مباشرة، ليدل على سرعة العطاء والاستجابة قبل الإخبار بها، فالإخبار بها كان بعد تحقيقها لك، ليفيد سرعة تحقق ما يُريده الله سبحانه وتعالى، بالاستجابة لما طلبت، أي المبالغة في السرعة. قال الراغب رحمه الله تعالى: والإتيان في اللغة: هو المجيء بسهولة، والمجيء بالأمر وبالتدبير[١] وهو فعل مبني ﴿أُوتِيتَ﴾ تم إخفاء فاعله لإظهار وإبراز العطية التي هي ﴿سُؤْلَكَ﴾ أي: ما سأل موسى عليه السلام، أي: نلت مطلوبك من انشراح الصدر وتيسير الأمر، وانحلال العقدة من اللسان، وأن يكون هارون معك نبياً رسولاً.

ومن بلاغة القرآن الكريم دقة ودقائق ألفاظه، وقوة مقاصده، وغور ما تحمله من معاني. ومن ذلك ما ورد حكاية عن موسى عليه السلام في قوله لربه تبارك وتعالى ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ فهناك دقائق في دلالة لفظ كلمة التسبيح، ولفظ كلمة الذكر، فالتسبيح أخص من الذكر، والذكر أعم وأشمل من التسبيح، فالتسبيح يدخل ضمن الذكر، لأنه نوع من أنواع الذكر، فكل تسبيح ذكر، وليس كل ذكر تسبيح فقراءة القرآن ذكر، والصلاة ذكر. وقد حَثَّ ربنا تبارك وتعالى على التسبيح خاصة في الإبكار والعشي، أي: في الصباح وعند المساء، وهي بكرة وأصيلا، كما قال تعالى في سورة الأحزاب ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ أي: التبكير وقت الصباح، فيكون الاستفتاح بالتسبيح، وكذلك وقت الأصيل الذي هو المساء. وذكر ذلك في آيات كثيرة.

واصل التسبيح: التنزيه والتقديس، والتبعيد بالتطهير من النقائص، ومما لا يجوز في حق عظمته وجلال سلطانه عَزَّ وجل، فهو تقديس وتنزيه الله تعالى عما لا يليق به، من إضافة ما ليس له في اسمائه أو صفاته، أو من ذاته، أو أفعاله، أو إرادته. قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: التسبيح في كلام العرب، التنزيه والتبعيد من السوء على وجه التعظيم[٢] فالتسبيح هو تنزيه من النقائص والعيوب، فهو تنزيه الله جَلَّ جلاله من كل سوء، وهو تنزيه تعظيم. فسبحانه وتعالى مُقَدَّس ومُنَزَّه ومُطَهَّر في ذاته واسمائه وصفاته وأفعاله، فلا يُقاس على أحد من خلقه عَزَّ وجل. فتقديسه وتنزيهه يكون بوصفه الذي يناسب ألوهيته وربوبيته، وكمال ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه. فَيُنَزَّه من الشريك والولد والمثيل والشبيه. كما قال تعالى في سورة الشورى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ فليس كمثله شيء. فالتسبيح تنزيه ينطلق من القلب،

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٨)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٦٣/١)

على جارحة اللسان بما ينزه الله تعالى به من كل عيب، مثل سبحان الله، والله أكبر، وغيرها من الأذكار المنزهة لله عما لا يليق به جَلَّ في علاه.

ويغلب على مكان انطلاق التسبيح أنه من القلب، أي: أن مبعثه من القلب، بما يعتقده العبد من كمال التقديس لربه تبارك وتعالى، ويصدقه العمل، بالبعد عن الشرك والرياء، ونحوه، إضافة إلى ما يلهج به اللسان من المحامد. وكذلك منطلق الذكر هو القلب، ويجتمع معه الفعل كالصلاة، لأنها ذكر، لِمَا فيها من التسبيح والتكبير، وتجريد أدائها من الشرك والرياء، وإخلاصها لله تعالى. فيستحوذ الذكر على القلب، بانشغاله بما هو فيه، لأن ذكر الله تعالى يكون ذكراً إذا صَدَّقَه القلب. والذكر يأتي بمعنى عموم العبادة. قال سعيد بن جبير: الذكر طاعة لله، فمن لم يطعه لم يذكره، وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن(١) وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وأصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور، والتيقظ له. وسُمّي الذِّكر باللسان ذكراً لأنه دلالة على الذكر القلبي، غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللساني صار هو السابق للفهم(٢) فالذكر هو انتباه القلب لربه تبارك وتعالى، وانشغاله به، فينطلق اللسان بعموم الذكر من التنزيه والتحميد والتكبير وقراءة القرآن الكريم، وبالأفعال كالصلاة. والذاكرون الله تعالى لا ينسون إنعام الله عَزَّ وجل عليهم. فالذكر يأتي بمعنى العبادة التي أعظمها الصلاة، قال تعالى في هذه السورة لموسى عليه السلام ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ من أجل أن يتحقق بها ذكرك إياي، أي: لتذكرني فيها، ويشمل معنى ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ أي: لذكري أنا لا لغيري، بما يفيد الإخلاص له عَزَّ وجل، ونفي الشرك عنه تبارك وتعالى، فيكون أداؤها لطلب مرضاته جَلَّ في علاه. فيزول بالذكر الغفلة من القلب، بل ذكر الله تعالى دليل على زوال الغفلة من القلب.

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ٣٧ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١﴾

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٦/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٥/١-١١٦)

ثم يُذَكّر الله تبارك وتعالى عبده ورسوله موسى بما سبق من فضله ومنّهِ عليه من الرعاية والحفظ واللطف في صغره ﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴾ ولقد أحسنا إليك ﴿مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴾ قبل هذه المرة من النبوة ومن حفظك من شر الأعداء الذين أرادوا قتلك. وفي هذا تنويه وتذكير لموسى عليه السلام بما يقوي قلبه، ويربط على فؤاده، ويشد عزيمته، بتذكيره بما مَنَّ الله تعالى به عليه من الحفظ والرعاية الخاصة، وما حظي به من معية الله تعالى له وحفظه، لتتقوى بذلك عزيمته على ما هو قادم من أمر نبوته ورسالته التي تم تكليفه بها، وقد بدأ التذكير الكريم له بلام القسم التي سبقت أداة التحقيق والتأكيد ﴿ وَلَقَدۡ ﴾ الذي يتأكد به ذلك الامتنان من الحفظ الرباني، والرعاية الخاصة ﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا ﴾ أي: أحسنا وتفضلنا، فالامتنان هو الإحسان والتفضل، بما يفيد أنك في محل الاهتمام ومكان الرعاية منذ صغرك، قبل أن تسأل انشراح الصدر، وتيسير الأمر، وغيرها مما سألت، فإن العناية الربانية سابقة قبل أن تسأل. مما يفيد رحمة الله تعالى بموسى عليه السلام وعنايته به منذ نشأته، ووجوده في الدنيا.

ثم شرع البيان القرآني الكريم في تفنيد وبيان ذلك الامتنان المتعدد، بعد أن أجمله عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴾ فالأول من ذلك الامتنان، هو: حين ألهمنا أمك ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ حين أوحينا بإلهام أمك يا موسى من الأمر العظيم من الوحي، الذي عَظَّم اللهُ تبارك وتعالى شأنه بقوله عَزَّ وجل ﴿مَا يُوحَىٰٓ ﴾ فلم يكتف البيان بالإخبار ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ ﴾ بل زاد ﴿مَا يُوحَىٰٓ ﴾ ليعطي بهذه الزيادة تعظيم الأمر بتأكيده، مع عظيم العناية الفائقة. مما يفيد أن الله تعالى إذا أراد شيئاً ألهم العبد ذلك الشيء، من الحق والصواب، وزينه في قلبه، وربط عليه وعلى قلبه، وسهله، وحببه إليه. مما يُعَلِّم المؤمنَ أن يكون كثير الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى في أموره وشؤونه، فإذا تولى الله تعالى شأن عبده وأموره دَبَّرَهَا بأحسن تدبير، وعلى أكمل وجه، وأحسن صفة، وأكملها وأضمنها.

وهذا الإلهام لأم موسى حين كان فرعون يقتل كل مولود من أبناء بني إسرائيل، فأوحى الله تعالى إليها ﴿ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾ فحين أخفت أم موسى طفلها موسى عليه السلام، خوفاً من أن يقتله فرعون، أمرها الله تعالى أن تضعه في التابوت ﴿ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾ فأمرها تبارك وتعالى أن تقوم بأمرين: الأول ﴿ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ ﴾ أي: ضَعيه في الصندوق. والقذف هو الرمي، وهو كناية عن الاستعجال والسرعة، والصبر وعدم الالتفات للجوانب العاطفية. ولعل في ذلك دعوة لأن يتجاسر

قلبها بسرعة إنفاذ الأمر، وقطعاً للتفكير. فمن رعايتنا لك وامتناننا عليك، أن أوحينا إلى أمك أثناء خوفها عليك، بأن تضعك فيما نحفظك به، وهو الصندوق. فنحميك في الصندوق من كل أذى، ثم اقذفي الصندوق في البحر ﴿فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ وهو نهر النيل بمصر، وبتدبيرنا لشأنك أمرنا البحر، أن يقذف بالصندوق على ساحل البحر ﴿فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ فأمرنا البحر أن يلقي الصندوق بالساحل.

وأعطت جملت ﴿فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ﴾ أي: البحر. فليدفعه البحر ﴿بِٱلسَّاحِلِ﴾ فمفاد الأمر من الله تعالى للبحر هو الإلقاء، فكان ذلك الإلقاء في ذلك المكان من الشاطئ بأمر وتدبير الله تعالى، ليتأكد أن كل شيء يسير بأمر الله تعالى، وأن الله عَزَّ وجل إذا أراد شيئاً سخر مخلوقاته له بما يشاء، وكيف يشاء، مما يتطلب من المؤمن التوكل على الله تعالى مع الأخذ بالأسباب. فإن الله تعالى قادر على أن يحفظه من غير تلك الأسباب، بل إمعاناً في بيان قوته وترتيبه وتدبيره للأسباب، وعظيم سلطانه عَزَّ وجل، ليتربى في بيت من أراد قتله، وهو عدوه وعدو الله، فرعون الطاغية ﴿يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥ﴾ فيأخذ موسى أَلَدَّ الأعداء لله تعالى ولرسوله موسى عليه السلام. لتظهر المعجزات في دفع دوافع القتل مع وجودها وتحققها، وقربها من إرادة القاتل، وفي ذات الوقت إبعادها وصرفها عنه وعن المراد به القتل، وهي أقرب ما تكون إليه، مع كامل تمكن فرعون من موسى عليه الصلاة والسلام، وهو بين يديه. ليدرك الإنسان أن سلطان الله تعالى أقوى وأعظم، وأن تدبيره لما يشاء لا يستطيع أن يتجاوزه المخلوق مهما بلغ من القدرة والتمكن. كما يفيد أن الله سبحانه وتعالى يدبر الأمور بالأسباب التي سنَّها في عباده وعموم خلقه تبارك وتعالى، إذ أنه قادر على حفظ موسى من غير هذه الرحلة من اليابسة إلى الماء، ثم إلى اليابسة، ليرى الإنسان تطويع الله تعالى لخلقه كيف يشاء، مما يوجب التوكل على الله تعالى، وسؤاله، والالتجاء إليه عَزَّ وجل.

ثم يبين سبحانه وتعالى وجه آخر من عظيم امتنانه وكريم عنايته عَزَّ وجل بموسى عليه السلام ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ وألقيت عليك محبة عظيمة كريمة كائنة مني لك مباشرة. بما يعني ويفيد أن يصبح موسى عليه السلام محبوباً من غيره، فتكون آية إعجاز. فهو يعيش بين بطش وجبروت فرعون، وبين عطف ومحبة امرأة فرعون له، وحفظها وعنايتها لموسى عليه السلام. وجاء في التفسير: أن في بيت فرعون مجرى من النيل، فرأى أثناء جلوسه وزوجته آسية، ذلك التابوت يطفو على الشاطئ، فأمر به، ولما فتحوه وجدوا صبياً، فلما رآه فرعون أحبه حباً شديداً، قال ابن عباس رضي الله عنهما عن المحبة التي لموسى عليه السلام: أحَبَّه وحبَّبه إلى خلقه، فلا يلقاه أحد إلا أحبه من مؤمن وكافر[١]

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٨/٥)

وكلمة ﴿مِّنِّى﴾ تفيد التخصيص والتعيين لمصدر إيقاع هذه المحبة أنها من الله تعالى لك يا موسى من غير سبب تفتعله لتكون محبوباً، ليفيد العناية الخاصة والكاملة، لتعطي المرتبة والمنزلة والفخامة التي أظهرتها هذه العناية الربانية الخاصة لموسى عليه الصلاة والسلام. ثم جاءت المحبة عامة من دون تخصيص لنوعها، لتشمل وتستغرق جميع أنواع المحبة، محبة لأقاربه له، ومحبة من يخدمه له، ومحبة من يعرفه، ومحبة من يشاهده لأول مرة، ولمن يعيش ويتعايش معه. كما أنه يتأكد بذلك أن من يعادي موسى عليه الصلاة والسلام إنما يتحامل على نفسه في العداء، ويقاوم ما في نفسه لموسى من المحبة، وإلا في قرارة نفسه يجد أنه محبوباً في قلبه. وفيه إثبات المحبة من الله تعالى لمن يشاء من عباده. وتحبيب العباد فيمن يشاء من عباده.

ثم يقول تبارك وتعالى عن مزيد عنايته وامتنانه على موسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ أي: لتتربى وتتغذى، وتنشأ على ما أريد وأحب، وعلى عناية مني، وبمرأى مني. فبالرغم من أن جميع الأشياء هي بمرأى من الله تعالى، إذ لا يغيب عن علمه عَزَّ وجل شيء إلا أن في ذلك زيادة تخصيص وتعظيم وإنعام لشأن موسى عليه السلام، وبيان للإرادة الربانية والاختيار والاصطفاء والمحبة. وفيه إثبات صفة العين لله سبحانه وتعالى. مما يفيد جلب المصالح له، ومنع المضار عنه عليه السلام، وهي آية إعجاز من آيات الله تعالى، إذ عاش موسى عليه الصلاة والسلام في طفولته في بيت عدوه سالماً غانماً، ثم طيلة دعوته وهو في أمن وعناية، ويهلك فرعون، ويهلك جنده، ويبقى موسى عليه الصلاة والسلام ومن معه سالماً من كل أذى. بما يفيد المؤمن أن الله تعالى إذا خص عبداً بالعناية فلا يستطيع أحد أن يُلحِق به أذاً مهما كانت قوته وقدرته، لأن قدرة الله تعالى أعظم القدرات والهيمنة والسلطان. فنسأل الله تعالى عنايته وحفظه لنا. لتصبح جملة ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ آية إعجاز، ومدرسة يتعلم منها المؤمن أن يبتغي بحياته كلها وجه الله تعالى، لتصبح دلالة ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ قوة للتوكل، وزيادة في الإيمان، ولتصبح ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ قوة للشجاعة القلبية، التي تتبعها القوة في إرادة الخير.

ثم يُخبر الله تعالى بالمزيد من التفاصيل عن حفظه سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ﴾ حين كانت أختك تمشي إلى بيت فرعون، وتقول لهم هل أدلكم على من يتكفل بإرضاع هذا الطفل موسى، فأعادك الله تعالى بمنه وكرمه إلى أمك، ليتحقق بهذه العودة انطفاء ما في قلبها من حرارة الشوق له، والطمأنينة باحتضانه،

ليعيش في كنفها، وتقر عينها به ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ فقرار العين ما يفيد استقرار فؤادها، واطمئنان قلبها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ فينقطع ألم الحزن على ما مضى.

ومن دلالات ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ أن الله سبحانه وتعالى قَدَّرَ مشي أختك يا موسى في الوقت المناسب لتظفر بالمكان الذي أنت فيه ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ حين كانت أختك تمشي ابتغاء خبرك، فوجدتك في بيت فرعون ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ فتقول لهم: هل أرشدكم إلى أهل بيت يُرْضِعُونه ويعتنون به ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ والكفالة هي: الضمان، وهو الذي يشتمل على الكفاية من الطعام، والرعاية الصحية والبدنية، والرعاية التربوية، وحفظه مما يضره ويؤذيه. أي: يضمنون له ما يحتاج إليه من اللبن والرعاية الشاملة الكاملة الوافية. بما يفيد الترغيب لهم فيما أشارت به إليهم ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ وطرحت السؤال بصيغة المعاونة والمساعدة، وليس بصيغة الرغبة الذي يولد الشك في صلتها وقرابتها به. فهذا السؤال الإرشادي من أخته لهم، يوضح ويفيد لسامع القرآن وتاليه: أنها عرفت أن لهم حاجة ماسة فيمن يقوم بالعناية به، وخاصة أمر الرضاعة، حيث أن من عناية الله تعالى بموسى وأمه، وكمال تدبيره أن جعل موسى لا يرضع من ثدي النساء. قال القرطبي رحمه الله تعالى عن شأن إرضاع موسى عليه السلام: أن امرأته طلبت له المراضع، وكان لا يأخذ من أحد، حتى أقبلت أخته، فأخذته، ووضعته في حجرها، وناولته ثديها، فمصه وفرح به. فقالوا لها: تُقِيمين عندنا؟ فقالت: إنه لا لبن لي. ولكن أدلكم على من يكفله، وهم له ناصحون. قالوا: ومن هي؟ قالت: أمي. فقالوا: لها لبن؟ قالت: لبن أخي هارون. وكان هارون أكبر من موسى بسنة، وقيل بثلاث[١] قال ابن جرير رحمه الله تعالى: فأخذوها، وقالوا: بل قد عرفت هذا الغلام، فَدُلِينَا على أهله. فقالت: ما أعرفه، ولكني إنما قلت: هم للملك ناصحون[٢] ليتبين من ذلك حكمة الله تعالى، وجميل تدبيره، وهداية أخته لتقول القول المناسب للمقام والمراد الذي يُبعدها عن الشك والريبة.

فأعاده الله تعالى إلى أمه بهذا التدبير العظيم من الله العزيز الحكيم ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ فقد أعاد الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام إلى أمه في أحسن حال، وبأحسن تدبير، بل ونَصَّ البيان الكريم على أن الإرجاع تخصيصاً منه سبحانه وتعالى ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ إذ التصق الضمير (الكاف) المتعلق

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٢/١١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦١/١٦)

بموسى بالذي أرجعه، وهو ربنا تبارك وتعالى ﴿ فَرَجَعْنَٰكَ ﴾ مما يعلم المؤمن بأن الله تعالى إذا تولى أمر عبد من عباده دَبَّرَ شأنه بأحسن تدبير، وسخر له عباده، وسخر له مسلكهم في القول والعمل.

ومن جميل البيان اقتصاره على ما تحصل به الفائدة، والاستغناء عن زوائده، إذ لم يذكر سبحانه وتعالى شيئاً عن موافقة فرعون وزوجته على ذلك، اكتفاء بالنتيجة، والعودة مباشرة إلى تلبيت ما في قلب أمه من حرارة الشوق له، والطمأنينة باحتضانه، ليعيش في كنفها، وتقر عينها به ﴿ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ فأعاده الله تبارك وتعالى لأمه.

وورد وصف امتنان الله تعالى على أمه بنعمة عودته إليها بكلمتين: غاية في الدقة من الوصف، وهما: قرار العين، وانتفاء الحزن ﴿ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ فقرار العين، يشمل هدوء بصرها، الْمُعَبِّر في حركته بالنظر يميناً وشمالاً عن الترقب والتطلع بأن عسى أن ترى ابنها، فهو نظر متحفز غير مستقر، فينتقل النظر من تلك الحال إلى الاستقرار والهدوء، فيصبح النظر في حالة اطمئنان، بتمركزه على طفلها، وعدم حصول التلفت المشوب بالترقب للمحبوب، فعبر استقرار العين عن استقرار فؤادها، واطمئنان قلبها، وانتفاء الحزن ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ لينقطع به ألم الحزن القلبي، المعبر عن أثر الماضي وما يُستقبل من تفويت المحبوب فيحدث الحزن. فقد عَبَّرَ السياق عن استقرار العين ﴿ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ وعبَّر كذلك عن استقرار القلب بانتفاء الحزن ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ والجملتان متعلقتان بالحاضر والمستقبل والماضي، فجملة ﴿ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ متعلقة بالحاضر والمستقبل الذي تأكد بقرار عينها، وبصيغة الفعل المضارع، الذي يفيد الحاضر والمستقبل. وأما ما يخص ما لصق بها من حزن على غياب ابنها عنها، فعَبَّرَ القرآن الكريم عنه بنفي الحزن مستقبلاً، وزوال أثر ما مضى ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ فيزول أثر حُزن الماضي، مع الإفادة بنفي حدوثه مستقبلاً، لأنه فعل مضارع مستمر. وبالتالي فلن يحصل في قابل أيامها ما يثير حزنها، أو يجلب لها الحزن والألم. وهذه من قوة الإعجاز البلاغي في القرآن العظيم، وقوة إرادة الله تعالى وسلطانه وحكمة تدبيره.

ثم يخبر الله تعالى بمزيد الامتنان الذي امتن به على موسى عليه السلام في ماضي عمره، حتى هرب من مصر إلى مدين ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ واذكر يا موسى حين قتلت الرجل القبطي ﴿ فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ فنجيناك من تلك المصيبة التي وقعتَ فيها، فأصابك الغم والهم والكرب منها. فقد كان من أمر موسى عليه السلام أن استغاث به رجل من بني إسرائيل على عدو لهم من الأقباط، فوكزه موسى، فقضى عليه كما ورد في سورة القصص ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا

رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٦)﴾ ودلت هذه الآية الكريمة من سورة القصص عن ندم موسى عليه السلام مما حصل من قتله للرجل، ونسب سبب هذا العمل أنه من الشيطان، واعتراف بما وقع منه من الخطأ، وتوبته، وسؤال الله تعالى أن يغفر له ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٦)﴾ وذكر ابن جرير رحمه الله تعالى: فنجيناك من غمك بقتلك النفس التي قتلت. إذ أرادوا أن يقتلوك بها، فخلصناك منهم، حتى هربت إلى أهل مدين، فلم يصلوا إلى قتلك وقَوَدِك به. وكان قتله إياه فيما ذُكِر خطأ[١] فإن فيما أصابه من الخوف والذعر، مع الغربة عن دياره، وانتقاله إلى مدين ،يُعتبر نوع من الابتلاء، ولعله كان كفارة له عن قتل النفس، مع ندمه وتوبته عليه السلام.

ومن دقائق البيان أن كلمة ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ﴾ تُعَبِّر عن التخليص مما أحاط به من الشر، وتحقيق السلامة والأمن له. وكذلك كلمة ﴿ٱلْغَمِّ﴾ الذي هو الستر، الذي يغطي السرور، ويمنعه، فلا يلج إلى قلبه، فيسيطر الكرب على قلب الإنسان، فيمنعه من رؤية ما يسره ويفرح به، فلا يرى أمامه وفي مستقبله إلا ما يسوء، خشية أن يصلوا إليه، فيأخذوه بالمقتول فَيُقْتَل. فقد عَبَّرت ﴿ٱلْغَمِّ﴾ عن وصف حالة موسى عليه السلام بأدق تعبير وبيان. ولذلك كانت نجاته من الغم نعمة عظيمة، لأن في زوال الغم، زوال التفكير فيه، وزوال ما حجب من السرور، ليتحقق الأمن النفسي له من الله تعالى. مما يبين أن من يتحقق له مشاعر الراحة النفسية فإنها نعمة ومنة عظيمة، وأن على العبد أن يسأله الله سبحانه وتعالى النجاة من كل كرب، وأن يحقق له طمأنينة النفس. فاللهم اجعلنا من الآمنين في الدنيا والآخرة بفضلك ومنك يا رب العالمين.

ومما امتن الله تعالى به على موسى عليه السلام نجاته من الابتلاء والاختبار ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أي: بلوناك واختبرناك فكان عليه الصلاة والسلام صابراً، مستقيماً في أحواله عند الرخاء والشدة، فذلك تعامله مع الابتلاء والاختبار. فأخلصه الله تبارك وتعالى إخلاصاً حتى أوصله عَزَّ وجل إلى النبوة، وأرسله بالرسالة.

ومن جميل البيان ودقته أن ورد الوصف بصيغة المبالغة ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ ليفيد التعظيم لما أصابه من الابتلاء والاختبار، فهو فتون عظيم، ليس يسيراً ولا هيناً. مما يفيد أن التمحيص والاختبار من سنة الله

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٢/١٦)

تعالى في خلقه، ليتبين معدن وأصل كل أحد من خلقه، وهو أعلم بهم، وبما سيكون منهم من غير ابتلاء، ولكن ليكتسب كل أحد من خلقه ما اكتسب مما يجنيه لنفسه من خير أو شر. وقد ورد الافتتان كخاتمة لما عَرَضه سبحانه وتعالى من الفتن التي أصابته، لتكون هي المحصلة، وهي المقصد من تلك الابتلاءات ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ وفي هذا الافتتان تعويد وتدريب وتربية لموسى عليه السلام، لمقابلة ما هو قادم عليه بعلم وخبرة وتدريب، ورجاحة عقل، ومكتسبات قد اكتسبها بما تحقق له من الافتتان بالاختبارات والابتلاءات العظيمة، التي تقويه، وتصنع منه رجلاً قوياً في فكره، وخبرته، وتصرفاته، وعموم مسالكه التي يسلكها. مما يبين أن لله تعالى حكمة فيما يبتلي به عباده. فليس كل شيء هو شر، بل فيه ما وراءه من الخير والحكمة الشيء الكثير. فَعَلَى جلالة قدر موسى عليه السلام، ومحبة الله تعالى له، فقد ابتلاه ابتلاء عظيماً.

ثم يذكر تبارك وتعالى حين مكث موسى في مدين هارباً مما كان خائفاً منه، وهو أن يلحق به مطالبوه بالقصاص في شأن القبطي الذي قتله ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ فخرجت إلى أهل مدين، التي هي بلد نبي الله شعيب عليه السلام، حيث مكث فيها عشر سنين، وحقق الله تعالى له من الخير أن تزوج فيها ابنت الرجل الصالح ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ ثم أتيت يا موسى للمكان الذي قَدَّرتُهُ لمجيئك، لأوحي إليك بوحي الرسالة، وهو على ما أراده سبحانه وتعالى من تكليمه في ذلك المكان الذي رأى فيه موسى ناراً، وذهب إليها، لعله يأتي منها بجذوة منها. فكلمه ربه تبارك وتعالى. وفي هذا بيان لإرادة الله تعالى، ومعرفته بعبده قبل أن يكون منه ما يكون من السيرة في مسيرة حياته. ثم يخبر الله تعالى عن اصطفائه لموسى عليه السلام ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ أي: توليتك وأنشأتك بتدبير مِنّي لأمرك وشأنك، وذلك اصطفاء لك مني، واتخاذك رسولاً لي إلى من أرسلتك إليهم. فهذه منزلة جليلة القدر، ونعمة عظيمة المكانة والمنزلة، وَمِنّة كبيرة يحظى بها موسى عليه الصلاة والسلام من ربه تبارك وتعالى.

وفي كلمة الاصطناع ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ﴾ ما يدل على العناية الخاصة، والتسديد، والتكوين المخصوص، والتوفيق الذي يدل على الاجتباء، والاتخاذ المخصوص لك يا موسى دون غيرك. ثم يتم اردافها بكمال التكريم، بأن أضافه لنفسه عَزَّ وجل ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ لتقوم بتبليغ رسالتي. ولذلك من واجب الإنسان وخاصة المؤمن ألا يحسد أحداً خَصَّه الله تعالى بنعمة، لأن فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء، فمراتب الناس عند الله تعالى لا يعلمها أحد، وليس هي بمقاييس البشر، فالبشر لا يعرفون ولا يرون كل شيء عن غيرهم، ولا يعرفون ما خفي عنهم من حال غيرهم، ولكن لا تخفى على الله تعالى خافية من عباده، وهو أعلم بمن اتقى سبحانه وتعالى.

ومن جلال البيان الرباني ترتيب المنن وتدرجها، من التقريب والتكليم والإنجاء، وما حصل من فوائد الغربة عند أهل مدين، ثم نعمة ومنزلة الرسالة، واستخلاصه لنفسه سبحانه وتعالى، فإن في ترتيب مراتب وأنواع تلك المنن التي امتن الله تعالى بها على موسى عليه السلام ما يعطي ويفيد تعظيم تلك المنن، وإثارة إدراكها واستشعارها. فضلاً عن قوة السياق البياني والبلاغي والتأثيري لمضمونها ومحتوها، وتحقيق أهدافها. فسبحان الله تعالى الذي أظهر إعجازه في تدبيره وقوة سلطانه، وجزالة وبلاغة بيانه.

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

فبعد البيان الكريم من الله تعالى عن الامتنان العظيم على موسى عليه الصلاة والسلام، يوجه سبحانه وتعالى عبده ورسوله موسى بأن يذهب وأخاه هارون عليهما السلام إلى فرعون ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ اذهب يا موسى وأخوك هارون بالمعجزات من الحجج والبراهين التي أعطيتك إياها ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى ﴾ وهي: آية العصا، وآية اليد، وحل العقدة من لسانه التي كان يعرفها فرعون وقومه في موسى. فالعصا التي تتحول إلى حية تسعى، واليد التي هي: يد موسى التي تخرج بيضاء من غير سوء، وغيرها من الآيات التي أعطاها الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام. والتي وردت بصيغة الجمع ﴿بِـَٔايَٰتِى ﴾ الدَّالة على معجزة الرسالة، وما جاء به موسى من الحق عن الله تعالى، وأنه رسول من عند الله تعالى، إذ أنه لا أحد يستطيع أن ينسب تلك الآيات لمخلوق من الخلق، فلا يمكن أن تكون إلا من الخالق عَزَّ وجل.

وقد ضم الله سبحانه وتعالى إلى هذا التوجيه الكريم توجيهاً آخر ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ أي: ولا تفترا ولا تضعفا ولا تَقْصُرا عن ذكري من القيام بالفرائض والتسبيح والتهليل والتكبير، حيثما كنتما، بما يفيد ملازمتكما لذكر الله تعالى حيثما تقلبتما واتجهتما وكنتما، فلا تنقطعا عن ذكري. مما يدل على أهمية ذكر الله تعالى، وما يتحقق لهما به من الخير والنصر والتأييد والتوفيق عند ملازمة ذكر الله تعالى. مما يفيد تلازم بلوغ الهدف

مع الذكر، حيث ربط الله تعالى بين ذكره وبين أداء مهمة الرسالة ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ فإن في الذكر ما تقوى به العزائم، وتثبت به الأقدام، فمن ذكر الله تعالى ذكره عَزَّ وجل، وَمَنَّ عليه بالخير والتأييد والنصر، ودفع عنه الشر. مما يدل على فضل الذكر، وفضل ملازمته، وأن على المؤمن أن يكون ملازم لطاعة الله تعالى بأوجه الذكر المختلفة، الشاملة لجميع أنواع العبادة.

ومن دقة التوجيه الكريم: تعيين وتحديد من يذهب بالتنصيص عليه ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ ﴾ اذهب أنت يا موسى، فعينه وحدده، ثم أضاف إليه أخاه هارون ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾ مما يبين أهمية تحديد من تُناط به المسؤولية، وفي هذا فائدة في جانب الإدارة، عند التكليف بأمر ما، بأن يتم تحديد وتعيين المعينين تحديداً دقيقاً، حتى لا يُقَصِّر أحد عما هو مكلف به. كما حدد التوجيه الكريم الحجج التي يستعرضونه أمام فرعون وأعوانه، وهي الآيات ﴿بِـَٔايَـٰتِى ﴾ بل وحددها سبحانه وتعالى تحديداً دقيقاً، بأن نسبها لذاته العظيمة ﴿بِـَٔايَـٰتِى ﴾ التي زودتك بها، والمعروفة لديك. ثم حَرَّضهما على ذكره جَلَّ في علاه ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ لا تفترا وتضعفا في ذكري، بما يدل على أهمية الانشغال بذكر الله تعالى بما يناسب المقام.

ومن فوائد الألفاظ لكلمة ﴿تَنِيَا ﴾ ما ذكره الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: يُقال: ونيت في الأمر، أني وَنًى ونياً، أي: ضَعُفت، فأنا وان. وناقة وانية، وأونيتها أنا: أضعفتها وأتعبتها. وفلان لا يني كذا، أي: لا يزال[1] وذكر ابن الجوزي وبعض أهل التفسير رحمهم الله تعالى أنه: يُقال: ونى، يني في الأمر. وفيه لغة أخرى: وَنِيَ يونى[2] وهي تعني الضعف والفتور. ومن دقائق السياق في قوله تعالى ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ أن النهي ورد على سبيل الحث لهما على توخي وتجنب الضعف والفتور عن ذكره سبحانه وتعالى، بما يفيد أنهما على عظيم من الذكر لله عَزَّ وجل، بل ومن دقة السياق أن النهي لم يستخدم حرف (عن) فيكون السياق: ولا تنيا عن ذكري، بل ورود بحرف ﴿فِى ﴾ فلو كان بحرف (عن) لكان النهي عن أن يحصل منهما عدم الذكر، فينشغلان عنه، ولكن حرف ﴿فِى ﴾ أثبت لهما ذكرهما لله تعالى، مع حثهما على عدم الفتور عنه. فكان النهي عن أن يفترا عن ذكره سبحانه وتعالى. فيكون السياق لإفادة الحث على الاستمرار، وعدم الفتور والتكاسل والضعف، فأثبت لهما الذكر واستمرارهم فيه، ونهاهم عن الفتور، وليس النهي عن عدم نسيان ذكره عَزَّ وجل.

---

(١) القرطبي، تفسير القرآن العظيم (١٣٣/١١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٠٠/٥)

فبعد مخاطبة الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام تحديداً ﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي ﴾ بأن يكون معك يا موسى أخاك هارون، توجه الخطاب من الله تبارك وتعالى إلى الإثنين معاً، عليهما السلام ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ فكان المخاطب في الآية الأولى موسى، على اعتبار أن أخاه ليس معه، ليأخذه معه، فتوجه إليه الأمر بما أمره الله سبحانه وتعالى به، ودون تحديد وتعيين الذي يذهبا إليه بالرسالة، لتفيد العموم . ثم في المرة الثانية: ورد التوجيه الكريم بما يفيد اجتماعهما معاً، فكان الخطاب من الله تبارك وتعالى لهما معاً ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ مع تحديد من يذهبا إليه، وهو فرعون، وبما يفيد التأكيد. وأيضاً أن تدخلا معاً على فرعون،

ثم بين عَزَّ وجل علة ذهابهما إلى فرعون ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ فقد وصف الله تعالى فرعون بما يبين حاله التي هو عليها ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ فقد تمادى في كفره، وتجاوز حد الكفر إلى ادعاء الألوهية والربوبية. فقد ادَّعَى لنفسه ما هو حق لله تعالى وحده لا شريك له. وفي هذا بيان للعلة، مع بيان حاله، وهيئته التي يشعر بها، ونفسه المملؤة بالزهو، وتنبيهها لما يلزم أن يكونا عليه عند التعامل معه. لأن من كفر، ليس كمن تجاوز في الكفر، وادَّعى لنفسه الألوهية والربوبية ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ فأرشدهما سبحانه وتعالى أن يتعاملا معه بلين الكلام ولطفه، لعله بهذا الكلام اللين اللطيف يتذكر حقيقة ذاته، وحقيقة الحق، أو يحصل له الخوف من الله تعالى. ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا ﴾ فقولا له قولاً لطيفاً ليناً ورفيقاً. وجملة ﴿ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا ﴾ تشمل كل كلام لطيف لينٍ، سواء من حيث عدم مجابهته، ولا مواجهته بما يكره، أو من حيث تسميته بما يحب، لأن في الكلام اللطيف مدعاة للاستماع والانصات والترفق. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أمرهما سبحانه وتعالى بإلانة القول له، لما في ذلك من التأثير في الإجابة، فإن التخشين بادئ بدأ يكون من أعظم أسباب النفور والتصلّب في الكفر، والقول اللين هو الذي لا خشونة فيه[١] فيكون خالياً من الغلظة والفظاظة. خاصة وهو يرى من نفسه أنه الذي رَبَّى موسى في بيته، وأن له حق على موسى في جميل التعامل. وإذا كان هذا الأمر باللين في حق رسول كريم مع طاغية جبار، يَدَّعي الألوهية، فكيف مع من هو دونه. مما يعطي درساً وقاعدة في الدعوة إلى الله تعالى، بل وفي كل شأن من شؤون المؤمن أن يستخدم أطايب الكلام وأحسنه. مما يبين ويدل على حُسن منهج الله تعالى، وكماله في التعامل، وأن الفضاضة والقسوة في الكلام لا تحقق المراد.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٣٦٦)

ثم بين تبارك وتعالى أسباب هذه المعاملة من لين الكلام ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ رجاء أن يحصل بسبب القول اللين مع الحجج من الآيات التي مع موسى عليه السلام أن يحصل منه التذكر الذي يعيده إلى صوابه ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أو يخاف عاقبة إنكار الحق، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: التذكر: النظر فيما بَلَّغَاه من الذكر وإمعان الفكر فيه، حتى يكون ذلك سبباً في الإجابة، والخشية، وهي خشية عقاب الله الموعود به على لسانهما[١] وكلمة ﴿لَّعَلَّهُۥ﴾ تفيد هنا الترجي والطمع من موسى وهارون عليهما السلام، بأن يحصل من فرعون التذكر أو الخشية، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: خاطب الله تعالى العباد بما يعقلون، والمعنى عند سيبويه: اذهبا على رجائكما وطمعكما[٢] وهو اختيار القرطبي رحمه الله تعالى، حيث قال: معناه: على رجائكما وطمعكما، فالتوقع فيها إنما هو راجع إلى جهة البشر، قاله كبراء النحويين، سيبويه وغيره[٣] وهذه من دقائق البيان، ودلالات السياق.

بعد توجيه الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام بلين الخطاب مع فرعون، فقد ذَكَرَا لربهما سبحانه وتعالى ما يتوقعانه من الاحتمالات التي قد يتصرف بها فرعون معهما ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ فقد جال تفكير موسى وهارون في ردت فعل عدو الله فرعون ﴿قَالَا رَبَّنَآ﴾ خاطبا موسى وهارون عليهما السلام ربهما عَزَّ وجل بما يدور في أذهانهما عما قد يكون من فرعون: ربنا إننا نخاف من فرعون أن يبادرنا بما نكره ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أي: يستعجل علينا بما نكره من الأذى. فيحمله الاستنكاف على التسرع إلينا، فيسبق حديثنا وعرضنا له الآيات، ودعوته للحق. والفرط هو التَّقَدُّم والتسرع إلينا بما يجب من الأذى في حقنا. وهو غير التفريط الذي يعني التضييع. قال الراغب رحمه الله تعالى: فَرَطَ إذا تقدم تقدماً بالقصد، ومنه الفارط إلى الماء، أي المتقدم لإصلاح الدلو[٤] قال الفراء رحمه الله تعالى: فَرَطَ منه أمر، أي: بدر. قال: وأفرط: أسرف. قال: وفَرَّط: ترك[٥] وأما التفريط في الشيء فهو التقصير فيه والتضييع.

---

(١) المرجع السابق (٣/٣٦٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٠١)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/١٣٤)

(٤) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٣٧٦)

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/١٣٥)

ثم ذكرا الاحتمال الثاني ﴿أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ بمجاوزة الحد في الإساءة، بما لديه من القوة والسلطان. ومن دقائق البيان أن الفرط متعلق بالسرعة والتقدم والاستعجال في الأمر المؤذي لهما من التعدي والاعتداء، بينما الطغيان مجاوزة الحد في نوع وحجم الاعتداء، بحيث لا يكون سهلاً، بسبب الكبر والتغطرس، فينعكس طغيانه على نوع وحجم الاعتداء، وبالتالي فإن دلالة كل واحدة منهما تُكَمِّل الأخرى. وفي هذا ما يبين دقة القرآن في الوصف والتحليل والبيان. وفيه كذلك ما يبين ويصور جبروت فرعون إلى درجة تخوف رسولا الله منه. وأن الإنسان يهاب ويخاف ظلم الظالم، وجبروته وبطشه، وأن وضع الاحتمالات أمر مهم، حتى يتمكن الإنسان من مجاوزتها، وفيه كذلك من الفوائد: عَرْض التوقعات المحتملة على الأعلى، ليوجه الْمُكَلَّف بما يجب حيال ما يعترضه أو يتوقعه.

وبعد توجيه الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام بلين الخطاب مع فرعون، وما عرضاه من خوفهما من بطش فرعون، فإن الله سبحانه وتعالى يطمئنهما بما يثبت فؤادهما ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ لا تخافا من بطش وأذى فرعون، فمعيتي لكما قوة لكم عليه، فإنني أسمع ما يدور بينكم، وأرى ما يحدث، بما يفيد أن حالكما معه مكشوف عندي، فلن يخفى عليَّ منه شيء البتة. فاطمئنا بحفظي لكما، وتأييدي، فالأمر بيده سبحانه وتعالى. وجملة ﴿لَا تَخَافَآ﴾ تستوفي وتستغرق أنواع الخوف كله، وأسباب الخوف كله، فتحليا بالطمأنينة التامة الوافية من كل وجه، فلن يمسكما منه ما تكرهان. وهي معجزة عظيمة من الله العزيز الحكيم.

ثم يؤكد ذلك تبارك وتعالى بمعيته لهما ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ فإنني معكما بالحفظ والتأييد والقوة والنصر، بما يفيد: سأجعل كيده عليه إن بدر منه شيء. ثم يؤكد ذلك سبحانه وتعالى بالسمع والرؤية ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أسمع ما يدور بينكم، وما تقولون له، ويقوله لكما، وأراكما وأنتم عنده، وأراه وهو يكلمكم، فلا يخفى شيء أبداً على ربكم العليم الحكيم. مما يعزز الطمأنينة في قلبيهما. ويبين عظمة الله تعالى، وقدرته، ومعيته، وأنه لا يخفى عليه شيء من أمور العباد، ودقائق ما يكون بينهم. وأن الله تعالى على كل شيء قدير. فإن أنفاس كل أحد بيد الله تعالى، يوقفها عمن يشاء في أي لحظة يشاء. فكل أحد ضعيف أمام قدرة الله تعالى وإرادته عَزَّ وجل.

ثم يوجه سبحانه وتعالى موسى وهارون عليهما السلام إلى منهجية التعامل والتخاطب مع فرعون، والخطوات التي يتبعانها في إبلاغه بالرسالة ومضمونها ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ

إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ فأول الخطوات هو ﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾ الإتيان إليه، بالدخول عليه في مقره ومكانه. ثم يبين تبارك وتعالى مضمون ما يبلغانه به، ابتداء بالتعريف لنفسيهما ﴿ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ فالتعريف بأنفسهما يكون من حيث الوظيفة التي كُلِّفَا بها من الله سبحانه وتعالى، والمعبرة والموضحة إجمالاً لما ينبني وينطوي ويندرج تحتها، ويتبعها من المطالب، لأن الرسول يحمل رسالة من المرسل ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ فنحن مُرسَلُون من ربك إليك يا فرعون. فليس اجتهاداً منَّا، وليس الأمر متعلق بإرادتنا الذاتية والشخصية لك، بل مكلفون من الله سبحانه وتعالى. وفي هذا البدء بالتعريف ما يدل على دقة المنهجية في المقابلة، بأن تكون أولاً بالتعريف الوظيفي، الذي هو أساس اللقاء، وسببه، ومحوره ومركزه. وكذلك: لم يقولا: إنا رسولا ربنا، أو إنا رسولا الله، بل علمهما الله تعالى أن يقولا له ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ بإضافة ضمير فرعون إلى ربه عَزَّ وجل، لبيان أن الربوبية لله تعالى وحده لا شريك له، وليست لك يا فرعون، بل إنك أنت مربوب، عبد لله تعالى الذي خلقك. وبالتالي كل شيء هو مربوب لله تعالى، فهو ربك ورب من أرسلهما إليك، ورب العالمين، مما يُوجب تخليك عن طغيانك على الناس، بتأليه نفسك لهم، وتجبرك وكبريائك عليهم. فإنها تحمل دلالة دقيقة جداً.

ثم أوضحا وبينا له المطلوب منه ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ فخل عن بني إسرائيل وأطلقهم مما شققت به عليهم من العمل الشاق والقهر، باستعبادهم وإذلالهم، وإشغالهم بالأشغال الشاقة، وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم، فدعهم يعيشون أحراراً. وكلمة ﴿ فَأَرْسِلْ ﴾ أي: أطلقهم من الاستعباد والإذلال، وما هم فيه من قهرك لهم إلى الحرية. ﴿ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ ولا تعذبهم بما هم فيه من عذاب الاستعباد والإذلال، ومشقة العمل. فقد نالهم من فرعون عذاباً مهيناً، فقد مَكَّن فرعون قومَه القبط من التسلط على بني إسرائيل، الذين هم ذرية يعقوب عليه الصلاة والسلام، بأن أرغموهم على الأعمال الشاقة والرديئة، واستعبدوهم، وقتلوا ذراريهم، واستحيوا نساءهم. مما يدل على أن من مضمون الرسالة هو العناية ببني إسرائيل، وأن الله تعالى أراد أن يرفع عنهم ما هم فيه من محنة الإذلال والاستعباد والقهر، والتي نوه الله تعالى بها في سورة البقرة، وسورة الأعراف، وسورة إبراهيم، فقال تعالى في سورة البقرة ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ ﴾ فإن الله تعالى لا يرضى لعباده الظلم، ولا يرضى عن الظالم الذي يظلمهم. وهي مِنَّة عظيمة على بني إسرائيل.

ثم أخبراه بما جئتم به من الآيات الدالة على أنكما رسولين من الله تعالى ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ فقد جئناك بمعجزة تُثبت صدقنا، وتؤيد ما ذكرناه لك، وما طلبناه منك. وهذه المعجزة ليست من عندنا، بل هي ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ فلا يمكن لبشر أن يأتي بها أو بمثلها، لأنها آية خارقة. كما أن في سياق الإبلاغ تأكيد للربوبية ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ بإضافة كاف المخاطب إلى الرب سبحانه وتعالى، إنه ربك يا فرعون هو الذي أعطانا هذه الآيات العظيمة. وفي تقرير أنه رب فرعون الذي ينكر الربوبية، ما يدل على أنه من باب أولى رب الرسولين، ورب كل شيء.

ثم يأمر الله تبارك وتعالى موسى وهارون عليهما السلام أن يقولا له ختاماً لكلامهما ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ فالأمن والسلامة لمن اتبع هُدَى الله تبارك وتعالى، بما يُفهم منه أنه لا سلامة ولا أمن لمن لم يتبع هدى الله عَزَّ وجل، وأن مصيره الهلاك. فاشتملت بالمنطوق على الترغيب، وبالمفهوم على الترهيب. فهي رسالة بليغة في مضمونها وسياقها، ومغزاها، وفي نتيجتها. كما أن سياقها لم يكن تعييناً له، بل وردت بأسلوب التعريض ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ وهذا من لين الكلام في البيان والخطاب. بما يُعَلِّم المؤمن كيف يوجه خطابه وكلامه ونصحه، وكيف يدعو، وكيف ينصح في جميع المجالات والأحوال. وأن دين الله تعالى مبني على اللطف والهدوء. وكلمة ﴿ وَالسَّلَامُ ﴾ جامعة لكل معاني السلامة والأمن من العذاب، ومن الشرور، والمصائب، ونفي ما يضادها من الهلاك، والتعاسة، وغيرها من الدلالات. وأفادت جملة ﴿ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ جانب حرية الإنسان في اختيار الحق أو الباطل، فجملة ﴿ مَنِ اتَّبَعَ ﴾ تفيد التبعيض، فهناك من يتبع، وهناك من لا يتبع، فلك أن تتبع فيكون لك السلام والتوفيق، ولك أن لا تتبع فلك أضداد السلام من النكاية وسوء المكان والمآل. وبالتالي لا يلوم الإنسان إلا نفسه، فإن من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يعود ضلاله عليه. ثم إن كلمة ﴿ الْهُدَىٰ ﴾ تجمع الإيمان، والطاعة، والعبادة، وكامل الانقياد لله تعالى، كما تبين أن رسالة الله تعالى هداية، وتوفيق، وأمن، وصلاح، وأنها تُوصِلُ من اهتدى بها إلى خير الدنيا والآخرة.

ثم ورد تأكيد العذاب بنص صريح، وإنذار من رب العالمين، وبأسلوب بديع ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ إن ربنا أوحى إلينا بأن عذابه كائن على من كذب بآيته وحججه، وأعرض عنها، بعدم الاستجابة لها، وأدبر معرضاً عما جئناه به من الآيات والحق. فقد أرشد الله تبارك وتعالى

موسى وهارون عليهما السلام بهذا القول، كما أرشدهما بما قبله من القول لفرعون ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ ﴾ فبعد أن بينا له فيما سبق أنهما رسولا الله تبارك وتعالى، انتقل بهما التوجيه الكريم إلى الإيحاء، على اعتبار أن فرعون فَهِم وأدرك أنهما رسولا الله، فخاطباه بما هو حقيقة، سواء حصل منه الإيمان أو لم يحصل ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ ﴾ وفي هذا حصر للمقول من القول الذي يقولانه: أنه من عند الله تعالى، وليس من عندهما وقولهما، وإنما هما ناقلان لوحي الله تعالى ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ فإن وقوع العذاب على من كذب بآياته وحججه، ولم يستجب لها.

ولم يُحَدَّد نوع العذاب، ولم يحدد أهو في الدنيا أم في الآخرة، أم في الدنيا والآخرة، ليستوعبه كله، بأنواعه، وفي الدنيا وفي الآخرة، فإن إيقاعه لله تعالى متى شاء، وكيف يشاء. وهنا لم يكن في النص الكريم تعيين له، كأن يكون القول: فإن العذاب واقع بك إن كذبت وتوليت، بل جاء بصيغة التعريض العام، وهذا من لين الكلام، ومن عدم المجابهة والمواجهة بغلظة القول. وتضمنت الآية الكريمة حالتي الكذب والتولي، وهي المعبرة عن إرادة من جاءته الآيات المعجزة من التكذيب الذي هو الإنكار للآيات، والتولي هو الانصراف عنها، دون أن يعيرها اهتمامه وتأمله وتفكيره، لأنه يقاوم الحق الذي لا تنكره نفسه، ولكنه يتولى عنه، وهو يقاوم ما في خلجات نفسه، لدواعي الشيطان، والكبر والحسد، وغيرها من الدواعي الشيطانية.

وبهذا انتهى نص التوجيه الكريم الذي أمر الله تعالى به موسى وهارون عليهما السلام أن يمتثلا به ويقولاه لفرعون. ابتداء بالمجيء إليه ﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾ والذي يَسَّرَهُ اللهُ تعالى لهما، وقبوله الجلوس معهما، فلولا تدبير الله تعالى لهما لربما رفض مقابلتهما، ولكن سلطان الله تعالى قاهر فوق عباده ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ وهو التعريف بمقامهما، أنهما مُرسلان من الله تعالى إلى فرعون، ولم يحدد التوجيه الكريم أنهما مُرسلان لفرعون فقط، بل ورد عاماً، ليكون لفرعون وغيره. ثم التدرج إلى الحديث عن شأن بني إسرائيل الذين عذبهم واستعبدهم، وأوكل إليهم المشاق من الأعمال والمهن، وقَتَّل أولادهم، واستحيا نسائهم ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ مع النهي عن تعذيبهم، وإطلاق سراحهم وحريتهم، مما يبين أن الله تعالى لا يرضى لعباده الظلم، وكذلك في هذا بيان لمنزلة بني إسرائيل وعناية الله تعالى بهم، وإسرائيل هو نبي الله تعالى: يعقوب عليه السلام. ثم التدرج إلى الآية والبرهان الذي يدل على أنهما مرسلين من الله تعالى ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ وأفردت الآية هنا، ولعل موسى بدأه بآية واحدة، وهي يده على ما سيأتي بيانه بإذن الله

تعالى. ثم التدرج إلى الترغيب والترهيب بأسلوب حكيم ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ وأن الأمن والأمان في الدنيا والآخرة لمن اتبع هدى الله تعالى، فهو الحق الذي من سلكه اهتدى لنعيم الدنيا والآخرة. ثم ينتهي التوجيه الكريم بما يقولانه لفرعون بالتحذير والتخويف ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ فكان البيان بأسلوب التعميم لكل أحد كفر وتولى. وهذه أنجح وأبلغ طرائق الدعوة إلى الله تعالى. مما يُوجب فهمها، والأخذ بأسلوبها.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ
ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟
أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ
﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾

وبعد انتهاء الكلام الذي أمر الله تعالى به موسى وهارون أن يقولاه لفرعون، سأل فرعونُ موسى عليه السلام ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ فوجه السؤال بخطاب مشترك لموسى وهارون عليهما السلام ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا ﴾ مع تعيين من يجيبه بالتحديد. فخص موسى عليه السلام بياء النداء تحديداً ﴿ يَٰمُوسَىٰ ﴾ وفي هذا التحديد لموسى دون هارون دلالة على أنه عرف بأن موسى هو المعني الأول بالرسالة من الله تعالى، لأنه هو الذي أظهر الآية له بإدخال يده في جيب ثوبه، وضمها إلى جناحه فخرجت بيضاء كالشمس. وكان توجيه السؤال بإضافة ضميرهما إلى الرب سبحانه وتعالى ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا ﴾ حتى لا يعترف لهما بما قالاه له سابقاً ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾

فأجاب موسى بإثبات الربوبية والإيجاد والخلق والرزق والهداية والتوفيق، وعموم العطاء لله تعالى ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ أجاب موسى عليه السلام على سؤال فرعون بإثبات الربوبية لله تعالى، وبصيغة الجمع ﴿ رَبُّنَا ﴾ أي: ربي وربك ورب كل شيء، فشمله وشمل كل من يسمع ممن معه بأن الله سبحانه وتعالى رب الجميع، ثم في جملة بليغة ودقيقة حكى بها الله تعالى ما قاله موسى عليه السلام

لفرعون ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ فربنا الذي تسأل عنه هو الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى ومنح كل مخلوق صلاحه وما يُصلحه وما ينصلح به، ويليق به، وما يناسبه من الصورة والهيئة والجبلية التي تتحقق بها مصلحته، والغاية التي خُلق من أجلها، ويسر له ومكَّنه مما يعينه على أداء ما خُلِق له بما يدل ويُثبت عظيم صنعه ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ أي وجَّه كل مخلوق لما خلقه، فعَرَّفَه وعَلَّمه بما تتحقق به غايته ومنفعته، في الاهتداء إلى الحق، ومعرفة الصالح والفاسد، والخير والشر،، وما يحقق مصالحه العامة: من النماء في جنسه بالنسل، أو النماء في التكاثر بجميع أنواعه ومجالاته، وما يراه العباد في جنس الإنسان والحيوان والنبات من الاهتداء إلى مصالحهم، وما يحدث من ظواهر التطور والابتكار، والتجدد والتجديد، والاستثمار والاستنتاج والتفكير والقياس عند الإنسان، فإن جملة ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ تجمع كل هداية، وتوفيق، من العلم والعمل، وما يتبع ذلك من الزيادة فيه، وما ينجم وينتج عنه. وكذلك إدراك المسالك والمنافذ، والحق والباطل، والصالح والفاسد، والخير والشر، والحق والباطل، بما يجعله يُدرك أن ما جاء به الأنبياء والمرسلين حق من عند الله تعالى، فيما لو تأملوا أهداف وغاية ما جاؤوا به من الحق، فكيف وقد زودهم الله تعالى بالآيات الباهرات، والحجج والبراهين التي لا يصد عنها إلا هالك.

ومن نسق الترتيب والتنظيم في البيان ما يظهر به الإعجاز لكلام الله تعالى، فعلى قلة كلمات الآية الكريمة إلا أنها حوت دقائق من البيان، ومجامع المراد بأكمله وأشمله: غاية ومراداً ومضموناً، فالبدء كان بإثبات الربوبية ﴿ رَبُّنَا ﴾ ثم إثبات الخلق ﴿ خَلۡقَهُۥ ﴾ والذي يستوجب الألوهية، وما يتبعها من العبودية والتوحيد، وإفراد الله سبحانه وتعالى بما هو له وحده لا شريك له. ثم إثبات العطاء ﴿ أَعۡطَىٰ ﴾ ثم التدرج الذي أفاد الترتيب المفضي إلى تحصيل خصيصة الهداية ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ التي تعني استغراق واستجماع كل دلالات العلم والتعليم والتسخير، والمعرفة، والفهم، والإدراك، ولإرادة. مما يدل على عظيم صفاته وأسمائه سبحانه وتعالى، وبديع تدبيره، وإنشائه، وعظيم سلطانه وقهره، وكريم رحمته، وكريم عطائه، وجلالته وجماله وبهائه سبحانه وتعالى الذي دلت عليه جمال مخلوقاته.

وبعد أن سأل فرعون، وسمع إجابة رسول الله موسى عليه السلام التي امتلأت بالحقائق التي لا يمكن أن يقابلها باطل، ولا يُنكر هذا التناسق بين المخلوقات، والتناسق بين كل مخلوق وما يحتاج إليه، وما هُدِيَّ إليه من المعرفة التي تلائمه فلا ينكر ذلك إلا ناكر للحق، متكبر عليه، إذ ليس هناك عاقل يقول بأن المخلوقات خُلِقَت من دون خالق، بما يُثبت الربوبية والألوهية أنها لله تعالى وحده لا شرك له الذي خلق الخلق جميعاً.

وهنا اتجه فرعون إلى جانب تاريخ الأمم الماضية، ليتجه بالموضوع اتجاهاً تعجيزياً لموسى عليه السلام ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أي: ما شأن الأمم التي خلت واندثرت، فما حالها فيما كانوا يعبدون من غير الله الذي تدعو إليه، وفيما كان من تكذيبهم المرسلين. وهو سؤال لا يمكن أن يحكم عليهم موسى عليه السلام إلا بعلم من الله تعالى. فيكون بذلك سؤاله هو سؤال تعجيز وإفحام. وقد تضمن السؤال جميع ما مضى من القرون الأولى ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ليبين دهاء فرعون وخبثه، وجملة ﴿ فَمَا بَالُ ﴾ سؤال عن حالهم وشأنهم، ليشمل مضمون أخبارها وأحاديثها، وما كانوا عليه، وعن مصيرهم، فهو سؤال يستهدف استبعاد رسالة موسى عليه السلام، وما بينه من الحق المبين.

فأجابه موسى عليه السلام بجواب يؤكد له به أنه عبد لله تعالى، ولا يَدَّعي الغيب ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ قال موسى عليه الصلاة والسلام: إن علم تلك القرون عند ربي جَلَّ جلاله ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ فحقيقة العلم الذي تسأل عنه ليس عندي، بل هو عند ربي الذي أرسلني إليك، ثم بَيَّن أن هذا العلم، وما حدث منهم مُقَيَّد في الكتاب ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ ﴾ الذي هو اللوح المحفوظ. ثم أثبت لله تعالى عدم الخطأ وعدم النسيان، وأنه سبحانه وتعالى منزَّه عن ذلك ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ فأوضح أن وجود الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ ليس لعلة الخطأ أو النسيان، بل هو توثيق للعباد أعمالهم. بما يؤكد أن هذا التوثيق لعلة وراءه، وهي علة الحساب والجزاء على الأعمال. فوجود الكتاب ليس لعلة الخطأ والنسيان، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: فأجاب: بأن كل كائن محيط به علمه، وهو مُثبت عنده في كتاب، ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان، كما يجوزان عليك، أيها العبد الذليل، والبشر الضئيل، أي: لا يضل كما تضل أنت، ولا ينسى كما تنسى يا مُدَّعي الربوبية.[١] فَنَزَّه ربه تبارك وتعالى عن كل فهم خاطئ في صفاته تبارك وتعالى. مما يفيد أهمية استقصاء الحديث بما لا يجعل فيه وهم لواهم وجاهل.

ثم زاد له في البيان والإيضاح بالمحسوسات من الآيات الكونية ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ فإن ربي تبارك وتعالى هو الذي جعل لكم الأرض مفروشة مبسوطة ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ فلم يقل له جعل لك،

(١) الزمخشري، الكشاف (٦٧/٣)

بل ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ﴾ لتستوعب الجميع من غير استثناء، ولتستوعب كل من على الأرض، مبيناً صفة هذه الأرض، بأنها ﴿ مَهْدًا ﴾ أي: ممهدة كالفراش، فتتمكنون فيها من القرار والتنقل، والبناء، فتسكنوها على أحسن استقرار لها، وتزرعون عليها، فلا منغصات لكم فيها. فيستحيل أن يكون ذلك التوافق من غير خالق، لتكون النتيجة، كيف تعبدون غيره، وكيف تُنَصِّبُون غيره إلهاً، فكيف تعبدون الضعيف وتتركون الخالق القوي، المنعم عليكم بهذه الأرض المستوية. فهو إخبار بحقيقة تستثير عقل العقلاء، الراغبين في الحق. بل ولم يستخدم كلمة: خلق، بل استخدم لفظ جعل ﴿ جَعَلَ ﴾ لأن الخلق هو الإيجاد، ولكن: جعل يفيد العموم، فيشمل صَنَعَ، وأنشأ وصَيَّر وسخر، كما ذكر الراغب الأصفهاني وغيره رحمهم الله تعالى: إذ هو أعم من فَعَلَ وصنع وسائر أخواتها[١] وجعل، أي: عَمِل وهيأ وصَيَّر. وجعل: خلق[٢] فيفد: صنع لكم، وصَيَّر لكم، وأوجد لكم، لتشمل الكلمة الإيجاد والتسخير، وهي دقة بيانية، بل إعجاز بلاغي وبياني عظيم.

ومن بديع السياق إسناد الفعل ﴿ جَعَلَ ﴾ إلى الاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِى ﴾ والعائد على لفظ الجلالة ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ فأفاد حصر ما بعدها من الخلق والتسخير والتدبير لله تبارك وتعالى. فكل شيء في كتاب الله عَزَّ وجل معجز من كل وجه.

ثم يبين المزيد من تدبير الله تعالى، وعظيم صنعه فيما يراه الإنسان، ويشعر به، وينظره أمامه ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أي: طرقاً تمشون فيها، فمن عظيم تدبيره عَزَّ في علاه أن سلك في الأرض مسالكاً من الطرق تسلكونها، أي: فسهل لكم فيها مسالككم. فمن دَبَّر هذا يا فرعون؟ هل تستطيع أن تدبر ذلك؟ وأنت تدعي الربوبية. وهل يستطيع أحد من الخلق أن يضع في الأرض هذه المسالك التي تراها بين الجبال الشاهقة، والتلال المتناثرة. إنه بيان يقود للاعتراف للخالق بما خلق، والإيمان به رباً وخالقاً ومعبوداً، لا إله إلا هو سبحانه وتعالى.

ومن دقائق الألفاظ وغزارته، ودقة إعجازه اختيار كلمة ﴿ وَسَلَكَ ﴾ التي تعني الإدخال والتهيئة، فأدخل وهيأ في الأرض طرقاً لكم. وكلمة ﴿ لَكُمُ ﴾ تبين أنها من أجلكم، فأنتم المخصوصون بها، وإن جاز أن يستخدمها غيركم من الدواب، بل حتى الدواب هي لكم أيها الناس. وكلمة ﴿ فِيهَا ﴾ تعيين الأرض المخصوصة

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٩٤)

(٢) ابن منظور، لسان العرب (١١/١١٠-١١١)

بالمسالك من الطرق التي تتنقلون من خلالها لمبتغاكم، بأن هذه المسالك من الطرق الموجودة في الأرض تحديداً هي لكم، فاستوجب الأمر عليكم أن تتأملوها. ليتأكد لكم بها العناية الربانية بهذا الإنسان. وكلمة ﴿ سُبُلًا ﴾ جمع سبيل، أي: الطريق، بما يفيد الكثرة. أي: كثرة المسالك التي جعلها الله تبارك وتعالى في الأرض. ليتقرر في الذهن أن الله عظيم، وأنه رب هذا الكون العظيم، وأن الله تعالى لطيف رحيم، إذ رحم عباده بما أعطاهم من كريم العطاء، وما هيأ لهم من أسباب رغد الحياة. أفلا يُعبد ويُشكر ربنا تبارك وتعالى يا فرعون؟ بل هو بلاغ لكل أحد بما سَخَّرَ سبحانه وتعالى، وأنها آية عظيمة على عظيم تدبيره، وقوة سلطانه، وكريم عطائه عَزَّ وجل. وأوضح وبين هذا البيان أهمية لفت النظر إلى الكون، والتَّدبر فيه، لما فيه من بديع الخلق، فإنها آيات ناطقة وشاهدة بأن لهذا الكون خالق، هو رَبُّ الخلائق أجمعين، فلا يستحق أن يُعبد أحدٌ من دونه تبارك وتعالى، فلا معبود بحق إلا الله جَلَّ جلاله.

ثم انتقل إلى آيات عظيمة أخرى، أولها حكاية وبلاغ من الله تعالى عَمَّا قال موسى ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ وتمامها إخبار مباشر من الله تعالى عن نفسه ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ فكان آخر إخبار موسى لفرعون هو ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي: وأن ربك يا موسى هو الذي أنزل من السماء مطراً. فَيُفْهَم من ذلك: هل أنت يا فرعون أو غيرك من المخاليق أنزل المطر من السماء؟ ليكون جواباً لكل أحد من الناس أنه لا يستطيع البتة. فإذاً من أنزله، ومن ساق سحابه، ومن أنزله بقدر معلوم، يُسقي ولا يُهلك، حتى أن الناس تستبشر به فرحاً. ألا يدل ذلك على أن هناك إله هو الله تبارك وتعالى. فلماذا يُعبد غيره من المخلوقين؟ إنها محاجة عظيمة، جليلة، تبين المسلك الصحيح للداعية، وللموجه، وللناصح، وللمرشد، كيف يخاطب غيره بالحق، وبالحقيقة. اللهم وفقنا للصواب، واهدنا، ويسر الهدى لنا، واجعلنا هداة مهتدين.

ثم يقول سبحانه وتعالى عن ذاته العظيمة الكريمة الشريفة ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ فأخرجنا بالماء الذي ينزل من السماء ﴿ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ أصنافاً مختلفة في الطعم، والحجم، واللون، وكل صنف منها: زوج ﴿ أَزْوَٰجًا ﴾ ومجموعها أزواج، وهذه الأزواج هي ﴿ مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ أي: متفرق ومتنوع إلى درجة كبيرة من الاختلاف والتباعد في الشكل واللون والمذاق والحجم، والانتفاع، والرائحة، فدلالة كلمة ﴿ شَتَّىٰ ﴾ تبين عظيم التعدد من أوجه كثيرة، لا حصر لها، بل تبين أنها أوجه متعددة حتى في النوع الواحد.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى الامتنان بنعمه العظيمة، فيُوجه تبارك وتعالى عباده إلى الانتفاع بها، وهو من باب التذكير بما امتن به عليهم من هذه النعم المتنوعة ﴿ كُلُواْ ﴾ أي: كلوا مما أخرجنا لكم مما أنبتناه لكم في الأرض ﴿ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَـٰمَكُمْ ﴾ أي: سرحوا أنعامكم في المراعي لتتغذى، وتسمن، وتنتفعوا بها في مطاعمكم. وهو من باب لفت الانتباه لما امتن الله تعالى به على عباده.

ثم يوجه عَزَّ وجل عباده إلى التفكر والتأمل ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ إن فيما سبق من عرض ما امتن الله تعالى به عليكم من الخلق والتسخير والإنعام لدلائل وحجج وبراهين ساطعة، تستثير أولي الألباب بأن لهذا الكون خالق ومدبر له، وهو الله جَلَّ جلاله. فانتفعوا بما في دنياكم لآخرتكم. وانتفعوا بهذه الدلائل على أن الله عَزَّ وجل رَبَّ كل شيء ومالكه، وأنه لا إله إلا الله سبحانه وتعالى، ولا معبود بحق إلا الله جَلَّ في علاه. وقد سمى الله تبارك وتعالى الناس في هذا الموضع بما ميزهم به من العقل ﴿ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ أي: لذوي العقول. قال الفراء رحمه الله تعالى: لذوي العقول. وقال الزجاج رحمه الله تعالى: فلان ذو نُهْيَة، أي: ذو عقل، ينتهي به عن المقابح، ويدخل به في المحاسن[1] فأهل النهى هم الذين ينتهون عن الباطل، ويسيرون للحق ويطلبونه، ويذعنون له ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ فإن في هذه الآيات لمنتهى ونهايات وتوقف عن الباطل، وقبول الحق عند أولي العقول التي ينتهي بها أمرهم إلى التوقف عن المفاسد والمقابح، ويَقْبَلُون المصالح والحق والحقائق.

وقد بدأت الآية العظيمة بحرف ﴿ إِنَّ ﴾ لتفيد العناية وتأكيد الاهتمام بتحقيق مضمون الآية الكريمة، والتطبيق بإعمال الفكر والتأمل الذي يقود صاحبه للحق والحقيقة، لما فيها من العظات والعبر والدلائل الإعجازية، والحجج والبراهين التي يستسلم لها أصحاب العقول، بما يفيد أن من لم يتعظ بها فليس من أهل النُّهَى، لأنه مكابر، قد ارتفع الجهل عنه، فيمنعه كبرياؤه أو حسده، أو جاهه، ومنافعه الدنيوية، حتى بلغ به الأمر أن رجحها على منافع الآخرة، وبالتالي خرج عن أولي النهى. وبالتالي فإن جملة ﴿ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ مدح لصاحبها بقبول الحقيقة، فإن أولي النهى ينتهون عما حَرَّم الله تعالى عليهم. ولذلك من تأمل في الصحابة أجمعين رأى من سيرتهم أن عقولهم خير العقول، وكل من سلك هدي محمد صلى الله عليه وسلم، كان من أولي النهى. وكل من دخل في الإسلام كان من أولي النهى، لأنه رَجَّح آخرته على كل شيء، وما حَرَم نفسه عن دنياه مما أباحه الله تعالى له.

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٠٤)

ثم يخبر الله تعالى عن هذه الأرض، وعلاقة الإنسان بها ﴿ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ فمن الأرض خلقكم ربكم ﴿ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ ﴾ فإن مبدأ خلق أبيكم آدم من الأرض، وكذلك عودتكم بعد موتكم تكون في الأرض ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ ﴾ بدفنكم فيها، فإليها تصيرون إذا متم، حيث مواراتكم تكون في الأرض، ثم تنتقلون لمرحلة الخروج من الأرض ﴿ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ أي: ويوم البعث نُخرجكم للحساب والجزاء من الأرض مرة أخرى كما خلقناكم منها. والإخراج منها، دليل على إعادة الإنسان إلى حاله التي كان عليها في حياته.

فلقد تضمنت هذه الآية الكريمة بيان وإيضاح علاقة الإنسان بالأرض، فهذه الأرض التي سخرها الله تعالى للإنسان، هي أصله، فسخر له أصله الذي ينتمي إليه، وذللها لهذا الفرع، وكرّم الفرع تكريماً عظيماً، وهذه الأرض التي هي أصل البشرية هي التي تحتضنه بعد موته، فَيَبْلَى فيها. ثم بعد عودته فيها يُخرجه الله تعالى منها إلى البعث والنشور والحساب والجزاء كما خلقه ابتداء منها، ثم ينتقل منها إلى عالم الآخرة، فجنة أو نار، بحسب ما قدمت يداه.

ومن دقائق البيان وقوة مقاصده هو التنويه بالخروج من الأرض بدلالة ﴿ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ التي أفادت مرة ثانية، وذلك إشارة إلى أن خلقكم الأساسي كان من الأرض، بما تمثل في أبيكم آدم. فخروجكم منها مرة أخرى ليس بأمر مستغرب. فأين وجه الغرابة؟ أمام قدرة الله تعالى.

ثم يبين عَزَّ وجل أنه بعد كل هذه الحجج والبراهين الدالة على ربوبية وألوهية الله تعالى، وعلى كمال قدرته، وعظيم تدبيره وتقديره سبحانه وتعالى فإن فرعون قد كذب بها ﴿ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ فيخبر الله تبارك وتعالى بأنه قد تحقق لفرعون رؤية جميع الآيات ﴿ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا ﴾ وكلمة ﴿ كُلَّهَا ﴾ تستجمع ما كان من شأن العصا، واليد، وغيرها، وكذلك ما كان من آيات السماء والأرض، وإنزال المطر، وتسخير الأرض، وما جعل فيها من الفجاج والسبل، والإنبات، وغيرها مما في الكون والأنفس. وهي الآيات المليئة بالحجج القواطع بأن الله تعالى رَبَّ كل شيء ومالكه، وأنه لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى، ومع هذا فهو يكذب بها ويجحدها، ويمتنع عن قبولها والإيمان بها كأدلة على ما دعاه إليه موسى وهارون عليهما السلام ﴿ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا ﴾ فقد أثبت الله تعالى أن فرعون قد اطَّلَع على جميع الآيات من الحجج والبراهين، المتضمنة لما أظهره له موسى عليه السلام من آيات العصا واليد وغيرها، وكذلك ما بينه له

من خلق الأرض، والسماء، والإنبات، والتنوع، والتسخير، والتطويع والتذليل للعظيم من الخلق لهذا الإنسان. بل أثبت سبحانه وتعالى رؤية فرعون لكافة الآيات.

ومن دقائق السياق، فإن حرف ﴿ وَلَقَدْ ﴾ يفيد التأكيد والتحقق لما بعده من إثبات رؤية فرعون للآيات كلها. وكلمة ﴿ أَرَيْنَٰهُ ﴾ تفيد تعظيم الاهتمام في إقامة الحجة، بأن الله تعالى أراه الآيات، وإلا فإن كل أحد من الناس يرى آيات الله تعالى المبثوثة في الكون وفي أنفسهم، وزاد فرعون بخصوصية المرسلين، وهما: موسى وهارون عليهما السلام، وآية العصا، ويد موسى، وغيرها من الحجج.

ومن دقائق البيان أن أسند تبارك وتعالى الآيات له عَزَّ وجل، بأن أضافها إليه ﴿ ءَايَٰتِنَا ﴾ لتؤكد أن جميع الآيات دالة على ملكه لها، وأنه سبحانه وتعالى هو المتصرف لها. فلا أحد يستطيع أن يقول بأنها له، أو أنها لغيره جَلَّ في علاه. ودلت كلمة ﴿ كُلَّهَا ﴾ على جميع أنواع الآيات سواء التي تمثلت في عصى موسى ويده، أو الآيات الأخرى، أو التي أشار إليها موسى عليه السلام لفرعون بها، والتي يبصرها بعينه، والتي يسمعها بأذنه، والتي يتأملها بفكره وعقله، والتي يحسها بحواسه المختلفة. فلم يبق له شيء من الحجج إلا وقد رآها. ليتأكد بذلك قوة عناده، وأن الحجة قد قامت عليه من كل وجه، فلا عذر له أبداً. فكان وضعه ذلك مثار اندهاش وتعجب. بما يدل على قوة تكبره على الحق الواضح الجلي.

فجميع الحجج التي يبصرها بعينه، ويسمعها بأذنه، ويتأملها بفكره وعقله، ويحسها بحواسه المختلفة قد كذب بها ﴿ فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ فقد كذَّب فرعون بجميع تلك الآيات التي رآها عياناً وجحدها، وامتنع عن التصديق والإيمان بها، واختار الكفر لنفسه، وذلك بغياً وعناداً. فوردت جملة ﴿ فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ قوة في البيان والتصوير لِمَا كان منه تجاه آيات الله تعالى، بأن نفسه قد استيقنتها، مدركاً صحتها وحقيقتها، وما دلت عليه من الحق، ولذلك وصفه الله تعالى بالمكذب الذي أبى، لأن التكذيب لا يكون إلا ممن عرف الحق وأنكره، ولذلك تم وصفه هنا بالإيباء والكذب، الذي يعني الامتناع. فهو كاذب فاجر، يعرف الحق ولا يأتيه، ولا يعترف به، بل يأباه ويصده وينكره، فهو شخص قد امتلأت نفسه بالكبرياء والطغيان، وفي هذه الصفة: ذم وعار شنيع قد لحق به، إضافة إلى خروجه عن صفة أولي النهى. فإن أولي النهى هم الذين تنتهي بهم عقولهم إلى قبول الحق، والسير في ركابه. خاصة وأن الأمر متعلق بواقعه ومستقبله الأبدي. مع قوة الحجج، وإدراكه أن موسى وهارون عليهما السلام رسولا من الله تعالى إليه. فصفة الكذب التي وُصِفَ بها تبين أنه أدرك الحق وكذبه، ولم يصدقه.

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ
ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَـٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾
قَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾
فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾

بعد بيان المرحلة الأولى من لقاء موسى وهارون عليهما السلام بفرعون، وانتهاء هذا اللقاء بتكذيب فرعون لآيات ربه عَزَّ وجل، وامتناعه عن الإيمان، يخبر الله تعالى بما كان من ختام اللقاء، وما كان من فرعون من المكر، حيث فَسَّرَ وأَوَّلَ تلك الآيات التي رآها من موسى عليه السلام بأنها من أعمال السحر وأنها من أجل إخراجه وقومه من أرضهم والاستيلاء عليها، فقال عَزَّ وجل إخباراً عن ذلك ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ قال فرعون لموسى وهارون بسؤال استفهام، يفيد الإنكار، مع تقرير الهدف الذي يريد أن يتهم به موسى عليه السلام، فوجَّه الخطاب إلى موسى عليه السلام باعتبار أنه الذي أخرج الآيات له من العصا واليد ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ فقد صرف جميع ما حدث لهدفين يصرفان عقول من عنده عن الحقيقة، فالأول هو: أنه فَسَّرَ وأَوَّل آيات موسى وكلامه إلى هدف إخراجهم من أرضهم ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ وفي هذا صرف عقول وأذهان وتفكير من كان في مجلسه من أعوانه وجلسائه إلى مراد وهدف غايته استعداء موسى، وإثارة النفوس على موسى وأخيه هارون عليهما السلام، وتحوير الآيات إلى أن لها مآرب أخرى. والثاني: تأويل الآيتين إلى مجرى السحر، وطريقة السحرة، وهي: العصا التي تحولت إلى حية تسعى، ويد موسى عليه السلام التي خرجت بيضاء مُشِعَّةً نوراً ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ أي: اتخذت السحر وسيلة لتحقيق هدفك بإخراجنا من أرضنا. فقد أضاف السحر لموسى، لتأكيد أنه مِن فعلك شخصياً هذا السحر.

فقد أَوَّل وفَسَّر آيات الله التي منحها عَزَّ وجل لموسى عليه السلام بأنها نوع من السحر. وفي هذا تحشيد مِنْهُ لأتباعه ضد موسى عليه السلام، وصدهم عن التأثر بتلك الآيات، وغسل تفكيرهم من التفاعل والتأثر بآية العصا التي تحولت إلى حية تسعى، ويده التي أصبحت بيضاء تتلألأ. مما يفيد أن شهوات الدنيا إذا طغت على الإنسان جعلت منه شخصية تعادي الحق، بل ويستخدم قوته العاقلة في صد كل ما يراه من الحق.

كما تبين أن الفاسد يتصرف مع أعوانه بما يمنعهم ويحول بينهم وبين الوقوف مع الحق. وأن الأعوان قد يسايرون ذي القوة والبطش، إما خوفاً منه، أو رغبة فيما عنده، أو لما اعتادوا وتعودوا عليه من الجاه، ومن المال، والسلطة التي يحظون بها.

وتحرزاً من أن ينقلب عليه من معه، ويدخلون مع موسى عليه الصلاة والسلام في دين الله تعالى، قال لموسى على سبيل التهديد، بما ذكره سبحانه وتعالى عن فرعون ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ فبدأ فرعون كلامه بأسلوب التهديد القوي لموسى عليه السلام، بادئاً كلامه بتقرير إبطال ما عند موسى من الآيات والحجج، وكشف السحر الذي رمى به موسى ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ مبتدئاً كلامه بالجزم والثقة ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ ﴾ التي تضمنت التأكيد والقسم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: واللام لام القسم، والنون لتوكيده[١] مما يفيد التأكيد والثقة التي يبنيها لنفسه من خلال تهديد موسى عليه الصلاة والسلام بالسحرة ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ فيريد أن يثبت أن الذي جاء به موسى عليه السلام هو نوع من السحر، فعالج كلامه ومُرَادَه بالمماثلة، فلنأتينك بسحر مماثل للسحر الذي أتيت به، فنعارض سحرك بمثله من السحر.

ثم طلب من موسى عليه الصلاة والسلام تحديد موعد وميقات ليجمع السحرة من أجل لمنازلة ﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ ﴾ وفي طلبه أن يكون تحديد الموعد من قِبَلِ موسى عليه السلام ما يفيد أننا متيقنين من أن الذي جئت به سحراً من عندك، ونتنازل لك في اختيار الموعد، لإعطاء نفسه ومن عنده من قومه الثقة من أنهم متأكدون، حتى أننا نسايرك ونعطيك اختيار وقت المنازلة مع السحرة، وأن لا نتخلف عنه ﴿ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ ﴾ بمعنى إن كنت صادقاً، فلا نتخلف جميعاً عنه، لتأكيد أن السحرة سينتصرون على نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام على حد زعمه. ﴿ لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ فاشترط لهذا الموعد أن ينتفي منه التخلف من جهتك يا موسى، ومن جهتنا ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ مكانا منصفاً بيننا وبينك، فيكون معروفاً للجميع، فيستوي فيه عِلمنا وعلمك به، ويشمل المعنى كذلك اعتدال المكان، فليس شاقاً على أحد، ومستوياً من حيث انبساطه، ليتمكن الناس من المشاهدة. مما يفيد قوة التحدي من فرعون، وقوة المواجهة والمجابهة خوفاً من تأثر مَن عنده بما رأوا من الآيات، لِيُدخل بذلك في قلوبهم الطمأنينة بأن الذي جاء به موسى هو نوع من السحر.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٥٩/٧)

فأجابه موسى عليه السلام بما أخبر به ربنا تبارك وتعالى ﴿ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴾ فخاطبه موسى عليه الصلاة والسلام بصيغة الجمع على اعتبار هو ومن معه، أي فرعون ومن يُريد ﴿ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ وإن كانت للتفخيم فباعتبار أنه مُكَلَّف من الله تعالى بأن يقول ل لفرعون قولاً ليناً فأجاب موسى: بأن الموعد هو ﴿يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ فمن حيث اليوم فهو يوم عيدهم، الذي هو يوم الزينة، وفي نسبة الزينة لذلك اليوم ﴿يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ باعتبار أنه اليوم الذي يتزيَّن الناس فيه ويجتمعون، فهو يوم مشترك لهم.

ثم بين موسى عليه السلام الوقت من ذلك اليوم، فورد البيان بصيغة الجزم ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴾ مما يفيد سرور موسى عليه السلام بفكرة فرعون، لما فيها من إظهار الحق على الباطل أمام جماهير الناس المختلفة والمتعددة. وهذا من توفيق الله تعالى لموسى عليه السلام في اختيار ذلك اليوم الذي يجتمع ويتجمع الناس فيه من أمكنة شتى، متزينين ومتفرغين له عن أعمالهم، تاركين أشغالهم برغبتهم، ليظهر فيه الحق، ويهلك الباطل بقدرة الله تعالى، وينتشر الأمر في كل مكان، بما يتناقله ويتداوله الناس بينهم، في أسفارهم، وبين المقيمين معهم.

ثم يخبر الله تعالى بما كان من فرعون ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ أي: انصرف فرعون من المجلس ليجمع الناس بإرسال المراسيل والمناديب إليهم، وترتيب ما يتعلق بالسحرة الذين سيجمعهم ضحى ذلك اليوم، وكلمة ﴿ فَتَوَلَّىٰ ﴾ باعتبار السياق تفيد سرعة الانصراف إلى ترتيب مكائده لموسى عليه السلام، من خلال التنظيم والتخطيط مع أعوانه ومع السحرة في مواجهة موسى عليه الصلاة والسلام، وترتيب مكره وحيلته، وذلك بجَمْع كل ما يمكنه من المكر الذي يريد أن يكيد به موسى عليه السلام. وجملة ﴿ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ تدل على الاهتمام بهذا الشأن، خشية أن الملأ من أعيانه وجلسائه يصدقون موسى عليه السلام، فقد أصبح الأمر بالنسبة له في غاية الأهمية، وهذا من فضل الله تعالى ليُظهر اللهُ الحق بكيد فرعون وتدبيره.

وبعد أن جمع فرعون كيده أتى ﴿ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ ليدل على سرعة عودته مع مكائده من السحرة. وجاء في التفسير كما ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أن عدد السحرة الذين جمعهم فرعون سبعين ألف ساحر،

فألقوا سبعين ألف حبل، وسبعين ألف عصا[١] وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان عددهم اثنين وسبعين ساحراً، مع كل ساحر حبال وعِصي، وقيل أكثر من ذلك[٢] مما يدل على شدة مكره، وأنه قد أرعبته آيات موسى عليه السلام، وخاف من تحول الناس إلى دين موسى عليه الصلاة والسلام وتركه، فينقلب الأمر عليه. مما يفيد أن الماكر مهما بلغ دهاؤه، فإن الله تعالى له بالمرصد، وأن مكره واقع عليه بالشر. مما يدل على خطورة المكر، وخطورة محاربة شريعة الله تعالى. فإن الله عَزَّ وجل لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه ناصر دينه مهما بلغت قوة العدو، وأن جند الله تعالى لا يدركهم أحدٌ أبداً، في القوة والسياسة والتدبير والفعل والقول.

ولما رأى موسى عليه السلام المشهد، كان مطمئن البال بفضل الله تبارك وتعالى، إذ نصحهم أولاً، لِحذرهم مما هم مجتمعون عليه من المكر والدهاء ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ فهي موعظة مملؤة بالنصيحة المفعمة بالتحذير من الجرأة على الحق ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ ﴾ أي: قال موسى للسحرة الذين تكاثروا بأعداد مهولة، بما يدل على انتشار السحر بينهم، حتى كثر السحرة إلى درجة أنه جمع هذا الجمع الكبير منهم ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ ﴾ وكلمة ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ تدل على التقريع والتوبيخ والتحذير، وإن كان معناها اللفظي الدعاء عليهم، قال الزجاج: ألزمكم الله ويلاً، ويجوز أن يكون على النداء[٣] والويل واد في جهنم. فيكون المقصود به التهويل والتحذير، ليتوافق مع ما أمر الله تعالى به موسى عليه السلام من لين القول.

فيقول لهم موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي: لا تخترعوا وتختلقوا على الله الكذب، ومن دقة البيان أن وردت كلمة ﴿ كَذِبًا ﴾ نكرة، لتستوفي كل أنواع الكذب الواردة منهم في حق الله تعالى، من الشرك، وتكذيب الآيات، ووصف المعجزات بالسحر، وإنكار نبوة ورسالة موسى عليه السلام، وهي مؤكدة للافتراء ﴿ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ الذي هو الاختراع والاختلاق، وهو الشيء الذي ليس له وجه حق، ولا شيء من الصحة والحقيقة. وهي نصيحة وموعظة تفيد النصح بالإقلاع عما هم عليه. وهي جملة موضحة ومبينة للافتراء ونوعه بأنه كذب، وأن موقع هذا الكذب على أمر وشأن عظيم،

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٥٨/١٠)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٣/١١)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٠٦/٥)

فإنه واقع على آيات ربكم وخالقكم الذي تقدس جلاله عما أشركتم معه غيره، وما نسبتم لآياته المعجزة من السحر، وتكذيبكم برسوله موسى وهارون عليهما السلام. فإنه بيان عظيم، مملوءة بالغزارة من المعاني والدلالات.

ثم بين لهم عاقبة هذا الافتراء على الله تعالى بأنه مُوجِب للعذاب ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي: يستأصلكم، فيقطع أثركم نهائياً، وأن هذا الاستئصال هو استئصال بعذاب واقع بكم ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ وورد العذاب نكرة، ليشمل أي نوع يختاره الله تعالى بِكم، من حيث شدته وقوته ونوعه. وفي هذا غاية الترهيب والتحذير والنصح لهم، ثم يتدرج بهم إلى النتيجة إن استمروا على الافتراء الذي جاؤوا به ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ فقد خسر الدنيا والآخرة الذين يفترون الكذب على الله تعالى، فإن الفوز عنه مُحَال أبداً لهم، وبالتالي لن تفوزوا اليوم على آيات الله تعالى وعلى رسوله عليه الصلاة والسلام، وأن النتيجة مُعْلَنَة لكم مسبقاً، وهي تحقق خسارتكم، لأنه ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ فهي نتيجة على كل من افترى على الله تعالى الكذب، فإن مَرَدَّ أمره إلى الخسارة الماحقة.

ولما سمع السحرة موعظة موسى عليه السلام لهم، اختلفوا فيما بينهم ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ فقد حصل تداول للرأي فيما بين السحرة حول ما سمعوه من نبي الله موسى عليه السلام ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم﴾ فالتنازع دلالة على الاختلاف بينهم في التحليل والتعليل لكلام موسى عليه الصلاة والسلام، وهذا التنازع واقع في ﴿أَمْرَهُم﴾ الذي هو رأيهم وحكمهم فيما سمعوا، بما يفيد التشاور في فهم دلالات كلام موسى عليه السلام ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين السحرة، وفي هذا تخصيص للتنازع أنه بين السحرة فقط، ولم يُدخِلُوا أحداً بينهم مِن غيرهم، أي من غير السحرة. والأمر متعلق بشأن موعظة موسى عليه السلام، مما يدل على قوة تأثير كلمة وموعظة موسى عليهم. فعن قتادة رحمه الله تعالى، قال: قال السحرة بينهم: إن كان هذا ساحراً فإنَّا سنغلبه، وإن كان من السماء فله أمرٌ، وقال آخرون: بل هو أن بعضهم قال لبعض: ما هذا القول بقول ساحر[1] ومن شدة ما وقع في نفوسهم من الموعظة أنهم تداولوا الكلام بينهم على سبيل الإسرار والتخفي عن فرعون وقومه وأعوانه ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ وأخفوا ما تنازعوا واختلفوا فيه بالتناجي فيما بينهم.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٩٥-٩٦)

والإسرار هو التخفي بالكلام عن الغير من الدخلاء، والنجوى، إسرار لِمَا يتكلمون فيه، بإخفاء ما يتحدثون فيه سراً عن غيرهم. وفي هذا مزيد تأكيد وبيان وإيضاح لدلالة ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ ﴾ وبلا شك أن كل واحد من السحرة سَيُدلي بفكره ورأيه حيال ما سمع، وأنهم متفاوتون في تحليل ما سمعوا، وسيقودهم التفاوت إلى الاختلاف، ولكن كونهم متخفين بما أسروا من النجوى ما يفيد أنه حصل عندهم ما لا يرضاه فرعون من الرأي.

فوردت الآية الكريمة بدقة بيانية، مفعمة بتصوير واقع الحال وكأن القارئ للآيات يشاهد ويُعاين الموقف إلى أبعد ما يكون من دقة وصف البيان الذي بلغ الإعجاز الذي يتقرر به أن القرآن كتاب مُعجز، ومن ذلك ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴾ فالإسرار متضمن للإخفاء، والنجوى، تفيد التخافت فيما بينهم، لتعطي صورة مُؤَكِّدة للإسرار، فبالرغم من أنهم أَسَرُّوا كلامهم، فقد اعتنوا واهتموا بإخفائه عناية فائقة إلى درجة التناجي، الذي يفيد خفض الصوت بالتخافت والإخفاء. فبالرغم من أنه تنازع بينهم، بما يدل على التناظر، الذي يتوقع منه رفع الصوت إلا أنهم أسروه وأخفوه إلى درجة أنه لا ينتبه لهم أحد. بما يدل على أن الأمر بالنسبة لهم ذو شأن عظيم، وأنه مفترق طُرِق لا بد منه، وأنه قد تبين واتضح لهم أن العصا التي مع موسى عليه الصلاة والسلام ليست من ضروب السحر.

ثم يخبر الله تعالى بنتيجة ما تناجوا به، وتشاوروا فيه حيال ما سمعوا من وعظ موسى عليه السلام لهم، وما اتفقوا وأجمعوا أمرهم عليه ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾ فقال السحرة عن موسى وهارون عليها السلام ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ فأكدوا كلامهم بيقينهم أن موسى وهارون عليها السلام ساحران، وهو حُكْمٌ قاطع قبل أن يروا منها شيئاً، فهو افتراء محظ من غير دليل ولا حجة، بما يبين أنه مطلب متقرر عندهم من فرعون لهم بأن يقولوا هذا القول، أو أن يكون خوفاً من فرعون واتقاء شره، فيسايرونه على رأيه وافترائه، بحكمهم على موسى وهارون بما حكم به فرعون، بدليل قولهم بما قاله فرعون لموسى وهارون في الآيات التي قبل هذه ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا ﴾ فهذا القول من السحرة متوافق مع قول فرعون من قبل وهو ﴿ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ أي: اتخذت السحر وسيلة لتحقيق هدفك من إخراجنا من أرضنا. فقد أضافوا السحر لموسى وهارون، كما أضافه فرعون لموسى عليه السلام، ليتأكد بذلك أنهم قالوا بما يوافق ويتوافق مع حكم فرعون على موسى وأخيه عليها السلام. قال القرطبي رحمه الله تعالى: عن ﴿ يُرِيدَانِ

أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا ﴾ هذا من قول فرعون للسحرة، أي: غرضهما إفساد دينكم الذي أنتم عليه[١] ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا ﴾ أي: يريد موسى وهارون أن تحصل الغلبة لهما، فإن حصلت الغلبة لهما اتبعهما الناس، فيقاتلون فرعون وجنوده، فينتصرون عليه، فيخرجونكم من مصر، وتصبح الأرض لهم ولمن يتبعهم.

بل وأضافوا حيثية وعلة أخرى، وهي ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ ويذهب موسى وهارون ﴿ بِطَرِيقَتِكُمُ ﴾ أي: بدينكم ومذهبكم، بل وتشمل جميع حالهم، وما هم عليه، قال أبو عبيدة رحمه الله تعالى: بسنتكم ودينكم، وما أنتم عليه[٢] وقد سَمّوهَا ﴿ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ وهي تأنيث كلمة: الأمثل. يُقال للمؤنث: خذ الْمُثْلَى منهما، وفي المذكر: خذ الأمثل منهما، ووُحِّدَت ﴿ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ وهي صفة ونعت للجماعة[٣] أي: التي لا مثيل لها، بما يُحفز الناس نحو استبقاء الحال الذي هم عليه، وحفظ واستبقاء كبرائهم. قال الفراء رحمه الله تعالى: الطريقة: الرجال الأشراف، وقال الزجاج: ذو الفضل الذي به يستحق أن يقال: هذا أمثل قومه، والمعنى: يذهبا بأهل طريقتكم المثلى[٤] فيذهبا بسادتكم ورؤسائكم، استمالة لهم[٥] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والطريقة: السُّنَّة والعادة، شُبهت بالطريق الذي يسير فيه السائر، لجامع الملازمة. والمثلى: مؤنث الأمثل، وهو اسم تفضيل، مُشتق من الْمَثَالة، وهي حُسن الحالة، يقال: فلان أمثل قومه، أي: أقربهم إلى الخير، وأحسنهم حالاً[٦] فتشمل العموم: أي: أمثل وأفضل ما أنتم عليه من الرجال وغيره، فهي الأحسن والأشرف. وفي هذا تحفيز وتشجيع واستمالة قلوب الناس، وتأليبهم قبل أن يروا الحق، فهو أسلوب وقائي عن التأثر بالحق الذي يظهره الله تعالى على الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام. ولذلك حثهم فرعون على جمع الكيد ضد موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام.

ثم انتقلوا إلى التعبئة والتهيئة الفعلية والنفسية، حيث جاء الحث على العزم والإحكام في أمر الكيد لموسى وهارون ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّاۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ أي: فأحكموا سحركم،

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/١٤٧)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٠٨)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/١٠٢)

(٤)ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٠٦)

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/١٤٧)

(٦) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧/١٦٦)

لأنه يمثل الكيد لموسى عليه السلام، واعزموا كلكم جميعاً على كيد موسى، وانبذوا الخلاف بينكم، حتى لا تختل قوتكم وموازينكم ﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ ولتكن هيئتكم مرصوصة، مصفوفة، مجتمعين، مصطفين. بما يفيد أن في ذلك الاصطفاف قوة لهيبتكم، ثم ينتقل إلى تعزيز نفوسهم بالنتيجة ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ فقد فاز وعلا وأفلح من غلب وانتصر على صاحبه، فقهره. وجعل النتيجة مفتوحة غير محددة، تعزيزاً للاستباق إلى تحقيقها ونيلها. وفي هذا ما يدل على تخوفهم من موسى عليه السلام، إذ جمعوا كل هذا الجمع، وتهيؤوا كل هذا التهيؤ، والاستعداد من الترتيب والتخطيط والتنظيم، وشحذ النفوس، وتعزيز الموقف بالاصطفاف والكثرة من المتمكنين من السحرة، ليخرجوا بالصورة المرعبة المخيفة أمام موسى وهارون عليهما السلام، وأمام الجماهير الغفيرة من الناس.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾

فبعد أن حاكوا مكيدتهم، وضبطوا تفاهمهم واتفاقهم والتفافهم على كيدهم، وحان وقت انفاذ العمل، اتجهوا إلى موسى عليه السلام، مخاطبين له بما قاله الله سبحانه وتعالى عنهم ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ فوجهوا خطابهم لموسى عليه السلام، وورد قولهم بصيغة الجمع ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ والمتكلم لن يكون إلا واحداً منهم، قد اختاروه وعينوه للخطاب عنهم، وليعطي دلالة أن جميعهم متفقون على ما يبدأ به كبيرهم من الكلام، فكان خطابه خطاباً عن إرادتهم جميعاً، وفي هذا دقة في البيان القرآني العظيم ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ فخيروا موسى عليه السلام فيمن يبدأ بطرح عصاه، أأنت تبدأ؟ أم نحن البادون؟ والذي سيتم إلقاؤه محذوف من البيان، لأنه معلوم أنها العِصِي، فلا حاجة لذكرها وبيانها. وأما في تخييرهم لموسى عليه السلام ما يعطي دلالة على أنهم في ثقة من أمرهم، سواء بدأ موسى عليه السلام، أم هُم البادئون. وفيه بيان وإظهار لثقتهم، وأيضاً قد يكون من باب عوائد الأدب، كما خَيَّر فرعون موسى عليه السلام في اختيار الوقت.

فاختار موسى عليه الصلاة والسلام أن يكونوا هم البادئون ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ ولعل هذا أيضاً من باب مقابلة أدبهم بأدب مثله، فقدمهم في الإلقاء، كما قدموه في التخيير، ليليهم في الإلقاء، فألقوا حبالهم وعصيهم ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ فأصبحت عصيهم وحبالهم من قوة سحرهم يخيل لموسى عليه السلام أنها حيات تسير على بطونها. ومفاد معنى ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ ﴾ أن واقع الحبال والعصي لم تتغير، وإنما وقع السحر على التخيل، فيرى الحبال والعصي على غير حقيقتها، فيراها تسعى على بطونها خيالاً لا حقيقة، وإنما هي ثابتة على هيئتها لم تتحرك. وإنما الخيال هو: ظهور أمر لا حقيقة له في الواقع. وهنا يظهر دقة الوصف في القرآن الكريم. إذ أوقع الأثر على الخيال، وليس على حبالهم وعصيهم.

وهنا ظهر على موسى عليه الصلاة والسلام الطبيعة البشرية من الخوف ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ فحدث في داخل نفس موسى عليه السلام خوفاً لم يظهر عليه، لأن الله تبارك وتعالى خص الخوف في نفس موسى ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ فلم يعمم سبحانه وتعالى الخوف الذي استشعر به موسى عليه السلام، ليدل على تجاسره، وقوة توكله على الله تعالى، وثقته بالله عَزَّ وجل، بأنه ناصره وخاذلهم. كما أن الوجس ﴿ فَأَوْجَسَ ﴾ يفيد معنى الإضمار، قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: أضمر في نفسه خوفاً[1] والإضمار هو الذي لا يخرج على ملامح ومظهر الإنسان، وذلك للطبيعة البشرية. فيباشره الله تعالى بالوحي في تلك اللحظة، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: خاف موسى على الناس أن يُفتنوا بسحرهم ويغتروا بهم، قبل أن يُلقي ما في يمينه. فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة[2] ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ فيخبر الله تعالى بعلمه ومعيته وإسناده لنبيه ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام أنه معه، يسمع ويرى، فيخبر الله تعالى عباده بضمير التفخيم والإجلال ﴿ قُلْنَا ﴾ بأنه قال عَزَّ من قائل ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ فبدأ تبارك وتعالى بإزالة الخوف ومحيه من نفس عبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام، ليفيد التثبيت أولاً، وإزالة عارض الخوف، بما يفيد التطمين، فاطمئن يا موسى، ثم يُلحِق بها سبحانه وتعالى ما سيتحقق له من النصر عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ إنك يا موسى أنت الأعلى، وهنا لم يخاطبه بياء النداء، ولا باسمه، بل مباشرة ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ لإفادة السرعة، مع الإخبار بالنصر وإثباته، وتقرير

(١)ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢١٠)

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/١٦٦)

علوه عليهم، وحصره له، وقهرهم بنصره عليهم، وعلى إفكهم وسحرهم، ودلالة ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ تفيد جميع معاني العلو عليهم، بالنصر والمنزلة والمكانة، مع الإذلال لكل من زاغ عن هذه الآيات الباهرة العظيمة.

ثم يخبر الله تعالى بما يجب على موسى عليه السلام أن يقوم به ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ فأخبر سبحانه وتعالى عبده ورسوله موسى بما يقوم به، وكذلك أخبره بالنتيجة، وبحقيقة ما تخيله موسى عليه السلام، وكذلك بنتيجتهم الخاسرة، فبدأ التوجيه الكريم بقوله عَزَّ وجل ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ اطرح التي في يمينك، بإلقائها على الأرض، فسيكون منها ابتلاع ما صنعوا ﴿تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ فسوف تبتلع وتلتقم جميع ما وضعوا من الحبال والعصي. ومن دقة المقاصد البيانية، والإعجاز البلاغي أن الله تعالى لم يقل هنا: ألق عصاك التي في يمينك، بل مباشرة ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ لتفيد سرعة الخطاب، والاستغناء بما يغني غيره عنه، ولتفيد تعظيم المشهد، وتعظيم ما في يمين موسى عليه السلام، بأنها في تلك اللحظة أكبر من كونها عصا، بل آية عظيمة تتجاوز اسم العصا. بل من كرامتها أنها في يمين موسى عليه الصلاة والسلام.

إن التي في يمينك ﴿تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ فقد تحولت عصا موسى إلى ثعبان، فالتقمت عصا موسى عليه السلام كل ما وضعه السحرة من الحبال والعصي. ثم عادت عصا موسى عليه الصلاة والسلام كما كانت. فلم يظهر عليها خلاف ما كانت عليه قبل الإلقاء. ومن آيات الله تعالى فيها أنه لا أحد يعرف أين استقرت تلك الأشياء التي ابتلعتها عصا موسى عليه السلام، إذ لم يظهر عليها الانتفاخ والتضخم، غير أنها عادت عصا كما كانت. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أنها صارت تنيناً عظيماً هائلاً، ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي، حتى لم تبق منها شيئاً إلا تلقفته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً، جهرة، نهاراً، ضحوة[1] فقامت المعجزة، وأظهر الله تعالى رسوله ودينه، وأعزهم ونصرهم على الباطل، وجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

ثم يبين الله تعالى حقيقة ما صنع السحرة ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖ﴾ فالذي صنعوه لا يعدو أن يكون حيلة ساحر ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ والساحر لن يفوز على الحق أينما كان من الأرض. وهو

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٦٦/٣)

يشمل ويستوعب نفي جميع أنواع الفلاح عن الساحر ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ فلا يسعد ولا يفوز، وأكد ذلك بتعميم الأمكنة ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ فإن دلالة ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ تفيد المكان، فلا فلاح ولا فوز للساحر حيث توجه وسلك. مما يفيد أن الله تعالى لا ينصر كيد الساحر على الحق أبداً، فمرده إلى الزوال، فقد يقع السحر كما كان من أمر السحرة مع موسى، وتأثيره في الخيال، ولكن سيتلاشى ويضمحل سريعاً بالحق، ومن ذلك الحق القرآن الكريم العظيم، الذي إذا تُلي على السحر أبطله.

ثم يخبر اللهُ تعالى بالنتيجة المذهلة والمبهرة، مع تحقق النصر القوي المبين، الذي ظهر حتى على فرعون وأعوانه ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ فبعد هذا الحدث مباشرة أعلن السحرة إيمانهم، فقد آمن السحرة بسرعة مذهلة، دون الرجوع إلى فرعون، بما يدل على أنه لم يكن للخوف منه مكاناً في نفوسهم. مما يدل على استسلامهم الكامل لله تعالى، دون أي اعتبار لكائن من كان، وذلك بإلقاء رؤوسهم وجباههم على الأرض سجداً لله تعالى. قائلين ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ فأعلنوا اعترافهم بالله تعالى رب العالمين، وأنه لا رب سواه. وبأن موسى وهارون رسولان من الله سبحانه وتعالى، وذلك بالسجود لله عَزَّ وجل. لتدل تلك السرعة على عظيم وعظمة آية الإعجاز المبهرة التي التهمت كل ما كان مُلقَى من حبالهم وعصيهم، وبصورة مذهلة في سرعتها وقدرتها، التي لا يُعرف كيف استوعبت ما ابتلعته، وأين مصير ما التهمته.

وفي تخصيصهم بأن الله تعالى رب هارون وموسى باعتبار أنهما المرسلان من الله تعالى، واعتمدا في ذلك الربوبية أصلاً ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ ووردت الإضافة إليهما باعتبار أنهما الداعيان إلى رب العالمين الواحد الأحد، خالق كل شيء، الذي لا يستحق العبادة إلا هو عَزَّ وجل.

ومن فوائد دقائق السياق الكريم قوله تعالى ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ فالفعل ﴿فَأُلْقِيَ﴾ أفاد أن الحدث الذي شاهدوه قد ألقاهم سجداً، ليدل على قوة التأثر، وسرعة المطاوعة والامتثال والاستسلام منهم لآيات الله تعالى. إذ لم يُذكر فاعله الذي جعل السحرة يسجدون، لإبراز وإظهار قوة الإلقاء وإبرازه، مع قوة التأثر والتأثير، لأنه المعبر عن قوة تجاوبهم، وإلا هو معروف من الموقف. ليعطي دلالة عميقة على أثر قوة آية الإعجاز التي أرغمتهم على السجود نتيجة قوة تأثيرها الذي أذهلهم، فأدركوا بها أن موسى وهارون رسولا من عند الله تعالى، فكأنما شيء ألقى بهم سجداً، لإفادة أن قوة آية العصا ألقت بهم سجدا. لِيُظهِر النص الكريم قوة أثر معجزة عصى موسى عليهم، وكأنها هي التي ألقت بهم سجداً.

وكذلك من إبداع وإعجاز النص الكريم أن أظهر قول السحرة ما يوضح موقع هارون من موسى عليهما السلام ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ فأعلن السحرة إيمانهم برب هارون وموسى، مع ذِكْرِهم للرسولين

معاً ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ فلم يقولوا آمنا برب موسى على اعتبار أنه الذي ألقى العصا، وذلك تأدباً مع النبيين الكريمين، وكذلك فيه دلالة على ما رأوا من حفاوة موسى بأخيه هارون الذي يكبره سناً، وكذلك فيه دلالة على ظهور هارون عليه السلام في ذلك الموقف بما عرفوا أنه رسول مع أخيه موسى الرسول النبي، وأنه قد ظهر منه لأخيه موسى عليهما الصلاة والسلام التعاضد والوفاء والطاعة، وأنهما خرجا أمام الجمع بأنهما يمثلان أمراً واحداً، وهو أداء رسالة الله سبحانه وتعالى.

وفي تخصيص إيمانهم برب هارون وموسى، ما يدل على استسلامهم الكامل لله تعالى، مع موافقتهم الكاملة لكل ما جاء به هارون وموسى عن الله تعالى. وقد ورد في سورة الأعراف، وفي سورة الشعراء تقديمهم لموسى على هارون ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ فربما باعتبار كثرتهم، فمنهم من قدم موسى، ومنهم من قدم هارون عليهما السلام، فسجل القرآن ذلك، كما أن في تكرار تقديم موسى على هارون مرتين، في سورة الأعراف وفي سورة الشعراء، ما يدل على أنهم الكثرة. بينما ورد تقديم هارون على موسى مرة واحدة بما يدل على أنهم الأقل عدداً. والله تعالى أعلم.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

يخبر الله سبحانه وتعالى عن اندهاش فرعون من إسلام السحرة دون أي اعتبار له، ولسلطته وقوته وبطشه، فيوجه للسحرة سؤاله عن مجاوزتهم له ولمكانته، ثم يتهمهم بموسى عليه السلام، ويتوعدهم بشر الوعود من البطش والتنكيل ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ فلما رأى السحرة قد أعلنوا اتباعهم لدين موسى قولاً وفعلاً، وذلك بسجودهم لله تعالى ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ فكان ذلك إشهاراً بفعلهم، ثم أشهروا ذلك بقولهم ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ فبدأ فرعون كلامه بما أخبر به

تبارك وتعالى ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ فبدأهم بسؤال استنكار وتقريع وتهديد، أتصدقونه وتؤمنون به دون الرجوع إليَّ في ذلك، فقد تعديتم ما لم آمركم به، وخالفتم رغبتي ومرادي. ليعبر عن دهشته من تصرفهم، وانقلاب كيده عليه بأقوى ما يكون، وهو الذي يقول للناس كما في سورة النازعات ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ فشعر بالخذلان، بل رأى سقوط هيبته أمام الجماهير التي احتشدت لهذا الموقف المهيب. فكشف وأوضح السؤال عن حالته النفسية، وظهر بالمقابل قوة وسرعة إيمان السحرة أمام تهديده ووعيده. فهو يرى أن الحق له في الاستئذان، بأن يشاوروه، ويستأذنوا منه. والحقيقة أن الإيمان بالله تعالى قرار ينبثق من القلب، وأن من آمن لا ينتظر أن يوافق على إيمانه أحد من البشر.

وهنا يتحول موقف فرعون من السحرة إلى اتهامهم بالخيانة، فأورد التهمة لهم، كما قاله الله عَزَّ وجل عن قوله لهم ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ فقال فرعون للسحرة: إن موسى هو كبيركم الذي علمكم هذا النوع من السحر الذي قدمتموه أمام الناس، لينتصر موسى ويفوز أمامهم، ويُثبت للناس أن الحق معه. مما يدل على دهائه. إذ يتهم السحرة حتى يُبعد الناس عن الحق، ويبرر للناس أن فعل السحرة هذا باطل غير صحيح، لعدولهم عن الباطل الذي يريده إلى الحق الذي لا يريده. وانحرافه وتوليه عن الانتصار بهم إلى اتهامهم بالتواطؤ مع موسى عليه السلام بسحرهم، ومُتَّهِم لهم بأنه كبيرهم الذي علمهم هذا النوع من السحر الذي نَفَّذُوه أمام الناس، ليفوز موسى، ويُثبت أن الحق معه. وهذا القول من فرعون هو لأجل أن يصرف عقول وقلوب الناس عن التأثر بالحق الذي رأوه، وعن الاقتداء بإيمان السحرة، وقبول الحق، ونبذ باطله وكفره. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أراد فرعون بهذا القول أن يُدخل الشبهة على الناس حتى لا يؤمنوا، وإلا فقد علم أنهم لم يتعلموا من موسى، ولا كان رئيساً لهم، ولا بينه وبينهم مواصلة[١] مما يفيد أن الجاحد للحق يتأوَّل التُّهَم لمن خالفه، ويُلصقها بهم، ليحكم فيهم بما يريد.

بل إن الحقيقة تقول: أن السحرة تعلموا السحر قبل أن يأتيهم موسى عليه السلام، إذ يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى في تحليله لذلك: قال فرعون: آمنتم له قبل أن آذن لكم، إنكاراً منه عليهم. أي تعديتم وفعلتم ما لم آمركم به. إنه لكبيركم الذي علمكم السحر، أي: رئيسكم في التعليم، وإنما غلبكم لأنه أحذق منكم. وإنما أراد فرعون بقوله هذا حتى يُشَبِّه على الناس، حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم. وإلا فقد علم فرعون أنهم لم يتعلموا من موسى، بل قد عَلِمُوا السحر قبل قدوم موسى وولادته[٢] فهي تهمة افتراء على السحرة، حتى يقرر عليهم ما يعاقبهم به، ويصد الناس عن الاقتداء بالسحرة في إيمانهم، وهذا من دهائه، وقوة مكره وكيده.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٧٦/٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٠/١١)

ثم بعد تحرير التهمة لهم، يتوعدهم بأفعال من التعذيب، أولها: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي المخالفة في قطع الأطراف، فيقطع اليد اليمنى، والرجل اليسرى، أو اليد اليسرى والرجل اليمنى. وفي هذا تعذيب بالألم والتشويه لهم، فيتحقق لهم الألم من شدة ما أصابهم ظلماً وزورا. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان أول من صَلَبَ، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف، فرعون[١] والنوع الثاني من التعذيب على فعلهم وإيمانهم الذي صدموه به هو الصلب ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: لأقيدكم على جذوع النخل، فيشدهم ويربطهم على جذوع النخل. ثم يخبرهم بالنتيجة التي سيتوصل إليها السحرة حسب تأويله وافترائه ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ وليحصل لكم العلم أيها السحرة ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ من هو أشد في التعذيب والتنكيل، أنا أو موسى،. قال الطبري رحمه الله تعالى: ولتعلمن أيها السحرة أينا أشد عذاباً لكم وأدوم، أنا أو موسى[٢] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: وهو يريد بكلامه هذا الاستهزاء بموسى، لأن موسى لم يكن من التعذيب في شيء. ويمكن أن يريد العذاب الذي توعدهم به موسى إن لم يؤمنوا. وقيل أراد بموسى رَب موسى[٣] أي: لو لم تؤمنوا لعذبكم موسى، ولكان عذابي أشد عليكم من عذاب موسى لكم، فيرشدهم بالتهديد على أن يختاروا الكفر بما آمنوا به.

وأمام تهديد فرعون للسحرة الذين آمنوا بالله تعالى، فإنه يأتيه الجواب والرد من السحرة بما حكاه الله تعالى عنهم ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ قال السحرة المؤمنون من قوة يقينهم وإيمانهم ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ لن نختارك، ولن نقدمك ولا نفضلك أنت ودينك وما وعدتنا به من التقريب والحظوة والمنزلة التي وعدتنا بها ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ على ما أرانا الله تعالى من الحجج والبراهين المعجزة الواضحة البينة، بأن الله تعالى هو رب كل شيء ومالكه، وأن ما عداه مخلوقات له عَزَّ وجل. وبالتالي فلن نخاف منك الذي توعدتنا به، وهو ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ فلن نقدم خوفنا منك بالتهديد على الحق المبين الواضح، فثبتوا على إيمانهم أمام ما خَوَّفَهُم به، وما أغراهم به. وجملة

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٤٨/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١٦/١٦)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٣٧٦/٣)

﴿لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ تؤكد الاستغناء عن كل ما عند فرعون من زينة الدنيا، من الأموال، والمكانة والجاه، وغيرها، فكلها جميعاً لا تجعلنا نقدمك أبداً ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ فلن نقدم تعذيبك وتهديدك ولا عطاءك على ما رأينا من بينات وحجج الله تعالى.

ومن دقائق البيان ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى من أنهم نسبوا مجيء الآيات لأنفسهم، بقولهم ﴿مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ وإنما جاءت لهم ولغيرهم، قال: فالجواب: أنهم لما كانوا بأبواب السحر، ومذاهب الاحتيال أعرف من غيرهم، وقد علموا أن ما جاء به موسى ليس بسحر، كان ذلك في حق غيرهم أبين وأوضح، وكانوا هم لمعرفته أخص[1] فلما اعتبر فرعون أن ما جاء به موسى عليه السلام من ضروب السحر، كان إيمانهم تكذيب لفرعون، وشهادة منهم على كذبه، وتصديق لموسى، وشهادة بأن ما جاء به موسى هو آية من عند الله تعالى، وليس فيه شيء من ضروب السحر. فكانت الآية والحجة بالنسبة للسحرة بمثابة التخصيص الذي لا يعرفه إلا السحرة، وبالتالي كشفوا للناس بطلان تهمة فرعون لموسى عليه السلام بأنه ساحر.

وتم تسميتهم للآيات بكلمة ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ وهي جمع بينة، بما يفيد أن الذي جاء به موسى لا يمثل بينة واحدة، بل بينات. وفي تسميتها بالبينات ما يستجمع بها البيان الواضح الذي لا غموض ولا شك ولا ريبة فيه، بل انتفت منه مواقع الشكوك تماماً، فأصبحت واضحة جلية كالشمس، ساطعة بالحق المبين. بل في كونها على صيغة الجمع، ما يفيد أنها تمثلت بمجموعة من الآيات المعجزة البينة، ومن ذلك أنها عصا، ثم تحولت إلى حية، فهذه آية. ثم كونها تسعى حقيقة، وليس خيالاً كما هو السحر، فإن ذلك آية ثانية من فروع وأجزاء عمومها. ثم إنها التهمت ما طرحوه من العصي والحبال، فكانت هذه آية ثالثة، ثم كيف استوعبت ذلك العدد المهول من الحبال والعصي بأكله، وهي تعادل عصا واحدة. وهذه آية رابعة. ثم لم يظهر على عصا موسى انتفاخ جرمها بما ابتلعته، وهذه آية بينة خامسة. ثم عادت عصا كما هي، وهذه آية سادسة، ثم حملها موسى، وعادت في يده كما رأيناها ابتداء، وهذه آية سابعة. فإذاً كان جمعها بلاغة إعجاز في كتاب الله تعالى.

ثم أكدوا ثباتهم بالقسم ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ أي: فبحق من خلقنا، فلن نؤثرك على الله الذي فطرنا، أي: الذي خلقنا وأنشأنا من العدم، والذي ابتدأ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع له، لا لغيره من المخلوقين. وهي تمثل كذلك نتيجة، بأن الذي فطرنا هو الذي جعل المعجزة ظاهرة في عصا موسى عليه الصلاة والسلام، وبالتالي أراد الذي فطرنا أن نؤمن به، ونعبده، ولا نعبد غيره، وأن نرجوه ونخافه، ونتوسل إليه في حاجاتنا، بجلب الخير ودفع الشر. وبالتالي فإن نتيجة إيماننا بالله تعالى رب هارون وموسى أن تقضي بما

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢١١/٥)

شئت يا فرعون ﴿ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ فاصنع ما شئت أن تصنعه وتقضي به، فإننا على إيماننا ثابتون لن نغيره.

ثم بينوا له زوال الدنيا، وزواله، وزوال ملكه، وزوال كل شيء، كما هو معهود من سنة الله تعالى في هذه الدنيا الفانية. حيث اتجهوا إلى موعظة جليلة لأنفسهم ولفرعون، ولكل من يسمعهم، أو يسمع بخبرهم على مدى التاريخ، والتي خلدها ربنا تبارك وتعالى بإثبات قولهم في كتابه العظيم، فوردت موعظة جليلة لكل من أراد أن يتعظ ﴿ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴾ فقالوا لفرعون: إنما تزول وتنقضي هذه الحياة الدنيا، فلن تبقى لك الدنيا، ولن تبقى أنت لها. فأمرك فيها منتهي إلى زوال، وكل شيء فيها إلى فناء، فإنها دار زائلة، وليست بدار بقاء. بل أفادت ﴿ إِنَّمَا ﴾ حصر وقصر الانقضاء والانتهاء والزوال على الدنيا، بما في ذلك: قضاؤه وحكمه عليهم، فليس البقاء للدنيا ومن عليها البتة، بل البقاء للآخرة التي نريدها، ونصبر على مكاره الدنيا من أجلها ﴿ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴾ فإيمانهم بالله تعالى جعلهم يُفَسِّرون ويُقيمون الدنيا بما ستؤول إليه من الزوال، واستئثارهم بالآخرة الباقية، فهي مقارنة بالمفهوم الذي يؤدي إلى حقيقة الآخرة الباقية أبداً، فلا تفنى كما هي الدنيا.

كما أن زوال الدنيا محفز للصبر، ومحفز للباقية، فلا مطمع لنا في الدنيا الفانية، وإنما مطمعنا فيما هو عند الله تبارك وتعالى. فإنها موعظة لفرعون لو كان عنده عقل رشد، ولكن لم يتجاوز عقله عقل الإدراك، فلم يكن من أهل النهى، ولكنه صاحب عقل تقوم به الحجة عليه، فآثر الكبر على التواضع، وآثر الباطل الزائل على الحق الدائم، وآثر نعيم الملك المنتهي، وترك النعيم الباقي الذي لا يفنى ولا يزول. مما يبين أن قوة الإيمان، والتعلق بنعيم الجنة، جعلهم يستخفون بكل ما هددهم به. وأنه كلما قوي إيمان المؤمن كان قوة له أمام جميع المغريات والشهوات الباطلة، مهما كانت قوة جذبها له.

ومن جميل البيان اللفظي تكرار كلمة القضاء ثلاث مرات، في انسجام عجيب، ونسق لفظي وصوتي بديع، وإثارة السمع والذهن للتركيز والانتباه ﴿ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴾ فالأول: ﴿ فَٱقۡضِ ﴾ فعل أمر فاعله مستتر، يؤدي معنى: لا نأبه بقضائك، وليس له أهمية عندنا، أما طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله، فليس لنا أن نتركها أو نترجاك فيما تقضي به، فقوة الإيمان تصنع القوة والتحدي أمام الباطل. والثاني: ﴿ قَاضٍ ﴾ خبر، والذي يعني المقضي به، وهو ما تمضيه للتنفيذ، من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، والتَّصليب في جذوع النخل ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي

﴿جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ بما يفيد سواء أنفذت ما قضيت وتوعدت به، أو أقل منه، أو أكثر، أو لم تقض به كلياً، فلن نأبه به، ولن يردنا عن الإيمان والاستسلام لله تعالى. والثالث: ﴿تَقۡضِي﴾ فعل مضارع، فاعله مستتر ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ بما يفيد فإنما تقضي به علينا لن يتجاوز هذه الحياة الدنيا التي ستنقضي على أي وجه كان، بما يفهم منه: أما الحياة الآخرة فلا تنقضي سواء بالنعيم لأهل النعيم، أو بالعذاب لمن يستحق العذاب، فلا نأبه بما ينقضي ولا يدوم. فإنه درس في المقارنة والاختيار، إذ يتعلم منه الإنسان مبدأ التقديم والتأخير، والتفضيل والاختيار، ومواطن الصبر على المنقضي الفاني الذي لا بقاء له، ولا رجاء منه، وتعليق الأمل في الباقي الذي لا يزول ولا يحول، وتقديمه على الذي مَرَدَّهُ للزوال والانقضاء.

وهذه الآية الكريمة تمتلئ بالمواعظ المؤثرة التي تبين أن كل شيء إلى زوال، وتُثبِت البقاء لله تعالى وحده لا شريك له، وهي قوة وقاعدة للإنسان ولإرادته أمام مواجهته للتحديات والمعضلات، فإن واجهته في حياته بعض المغريات المحرمة، قال لنفسه ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ ستزول هذه الحياة الدنيا بمغرياتها وشهواتها، وستندثر شهواتي، وأندثر معها. وإن واجهته معضلات، هَوَّنَهَا على نفسه بقوله ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ فلن أبقى، ولن تبقى هذه المعضلات، وإن توقَّفَت نفسُه عن فعل الخير وإرادة المحامد، دفعها بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ وإن شَحَّت نفسه بما لديها من خير، عالجها بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ وإن طمعت نفسه في رفاهية أمر مباح، وعجز عن تحصيله، عالجها بقوله ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ فهي علاج وقوة للنفس الإنسانية إذا أدرك صاحبها حقيقة الدنيا. وهي قاعدة يعظ بها غيره عندما يراه يوجه شيئاً مما سبق بيانه. ففي القرآن الكريم ما يعالج أحوال النفس البشرية في كل ما يعتريها ويواجهها إذا تأمل كتاب الله تعالى، القرآن العظيم.

ثم يخبر الله تعالى بأن السحرة انتقلوا بحديثهم وبيانهم إلى مزيد من الجزم الذي لا عُدول به عن إيمانهم وتصديقهم بما جاء عن الله تعالى مع رسوله موسى عليه السلام وأخيه هارون ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ إنا صدقنا بالله ربنا سبحانه وتعالى، لا شريك له، وبما جاء به موسى عن الله تعالى. ونعتوا الله تعالى باسم الربوبية، المنافي لما يدعيه فرعون لنفسه﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ فقررنا بتوحيد ربنا، ونفي وإبطال ما عداه من المعبودات، فلا أنت ولا غيرك ربنا إلا الله عَزَّ وجل،

وفي هذا تعليل لعدم اكتراثهم واهتمامهم بتهديده، مبينين مطمعهم بمغفرة الله تعالى لما حصل منهم ﴿ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا ﴾ ليعفوا ربنا عن ذنوبنا، بمحوها وسترها، الذي كان أعلاها الشرك. وفي ذلك اعتراف بخطأ ما كانوا عليه، وإدراكهم بأن الله غفار لمن تاب ورجع عن كفره. وفي ذلك إفادة لفرعون بأن ما أنت عليه هو كفر، مخالف لمنهج الله تعالى، ولِمَا جاء به موسى عليه السلام.

ثم خَصُّوا من ذنوبهم بالذكر ما أُكرههم عليه فرعون من السحر ﴿ وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِ ﴾ بالرغم من دخول سحرهم في عموم الخطايا، ولكن خصصوه بالذكر، لإظهار ما كان فيه من الإجبار، مما يفيد أن تعلمهم للسحر كان بإكراه من فرعون لهم، وأنه لم تكن لهم رغبة في تعلمه، وبالتالي يعلم فرعون حقيقتهم الأصلية، ويعرف مَنْ عَلَّمَهُم السحر. وفي هذا رَدُّ على اتهام فرعون لموسى بأنه الذي علمهم السحر. ففي ذلك إثبات وتكذيب لفرعون، ومواجهة حقيقية له، دون اهتمام واكتراث لما قد يصيبهم من انتقامه وأذاه لهم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أخذ فرعون أربعين من بني إسرائيل، فأمر أن يُعلَّموا السحر، وقال علموهم تعليماً لا يعلمه أحد في الأرض. قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى، وهم من الذين قالوا ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِ ﴾[١] وفي هذا تأكيد على حقيقة من علمهم السحر، وأنهم أُكرهوا ابتداء، ثم اعتادوا عليه. وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: وروي: أن السحرة، يعني رؤوسهم كانوا اثنين وسبعين، الاثنان من الغبط، والسائر من بني إسرائيل، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر[٢] مما يفيد أنهم يشكلون الغالبية، وأنهم مغلوبين على أمرهم.

ثم يبينون بالمقارنة والتفضيل مقام الثواب عند الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ والله سبحانه وتعالى خير منك ثواباً لمن أطاعه، وخير في البقاء والثبوت والديمومة التي لا تنتهي. وأبقى عذاباً لمن عصاه وخالف أمره. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: خير لنا منك ﴿ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ أي: أدوم ثواباً مما كنت وعدتنا ومنيتنا[٣]

وهنا لم يأت السياق بذكر فرعون في المقارنة، بل وردت بأسلوب التفضيل ﴿ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ الذي يفيد أن خيرة الله تعالى هي خير من كل خير. وفي استخدام هذا الأسلوب تحقير له، وإبعاد له عن الظهور في مقام المقارنة مع الله تبارك وتعالى. كما أن في ذلك رد على فرعون عندما هددهم بالعذاب، فهو جواب على قوله

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٦٧/٣)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٧٥/٣)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٦٧/٣)

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ فيقابلونه بالأصلح لهم ولكل من آمن ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ مما يبين دقائق وإعجاز سياق القرآن الكريم.

وفي هذا موعظة عظيمة لفرعون ولكل من حضر وسمع، ولمن سينقله الناس، ويتناقلونه بينهم. كما أن جملة ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أثبتت كمال الخيرية بالأسلوب التفضيلي الذي أثبت بالقطع أنه ليس هناك خير وأفضل من الله سبحانه وتعالى في جزائه وإكرامه. ووردت الخيرية مطلقة ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ ﴾ لتشمل كل خير، ومن كل وجه، فلا حصر لنوعها، ولا لمداها، ولا لكثرتها، فهو خير من كل شيء، ومن كل وجه، بل وخير من كل ما يتوقعه الإنسان، وَوُصِفَ العطاء بالبقاء والديمومة ﴿ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ فهو بقاء دائم من حيث الزم والمكان والنوع. فإن ما وعد الله تعالى به في الآخرة من الجنان والنعيم المقيم لا يزول ولا يحول، ولا ينقص، فهو خير مستمر، متجدد على الكمال والجمال وكرم العطاء. وهو أبقى من حيث العذاب عن كل عذاب زائل، فعذاب الدنيا زائل ومنتهي، وعذاب الآخرة للكفرة دائم لا ينتهي. وهي جملة مليئة بالعظة.

فإن في ذلك بيان عظيم لمن واجهته الشهوات الباطلة، فيقول عند مواجهته لها ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ وإذا أغراه إنسان بما لا يجوز قال له ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ وإن أراد أن ينصح أحداً عن المغريات الباطلة، قال له ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ وإن فكر تفكيراً شيطانياً قال لنفسه ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ وإن طَمِعَت وامتنعت نفسه عن بذل شيء في الخير مما يملك بذله حَفَّزَهَا بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ فإنها موعظة عظيمة، ومدرسة كبيرة، في تقوية الإرادة على الخير، والامتناع عن الشر. اللهم علمنا وفقهنا في دينك بما يقوي عزائمنا على الخير، ويُصلحنا ويصلح شؤوننا على ما تحبه وترضاه. وارزقنا العزيمة على الرشد.

فبعد أن بين السحرةُ ثواب من يؤمن، والمقارنة بين الدنيا والآخرة، انتقلوا في مخاطبتهم لفرعون ومن يسمع من الحضور إلى بيان العقاب، ليكون ترهيباً بعد ترغيب ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ فهذ إخبار من الله تعالى عن قول السحرة، فهو استكمال لقولهم الذي قالوه سابقاً لفرعون، غير أنه من قوة عمق سياقه أن ظهر الاحتمال بأن يكون أيضاً هو: ابتداء كلام من الله تعالى، لبيان جزاء المكذبين. فإن قُوّت تقرير مضمونه جعل بعض أهل العلم يعتبرونه كلاماً مستأنفاً ساقه الله تعالى لبيان وإيضاح سوء عاقبة المكذبين، وبيان كريم عاقبة المؤمنين المصدقين. قال القرطبي رحمه الله تعالى: قيل هو من

قول السحرة لما آمنوا، وقيل ابتداء كلام من الله عَزَّ وجل[١] وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن الآية الكريمة: يقول تعالى ذكره عن قِيلِ السحرة لفرعون[٢] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة فرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويُرَغِّبُونه في ثوابه الأبدي المخلد[٣] فهو من تمام قول السحرة لِمَا عرفوا واستنتجوا من موقف ذلك اليوم، ومن موعظة موسى عليه السلام ابتداء، قبل طرح عصيهم وحبالهم، وبما عرفوا سابقاً مما تناقله الناس عن الأنبياء، مع توفيق الله تعالى وتسديده لهم، وإلهامهم الصواب في القول والاختيار والثبات على الحق المبين.

وابتدأت الموعظة الجليلة بتقرير النتيجة والمحصلة للمجرم، الذي يأتي إلى الله تعالى على جرمه، ولم يتب منه ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ ففي هذا بيان تقريري لمن يَقْدِمُ على ربه وهو متلبس بالإجرام، غير تائب عنه، ولا متخلص منه. وقد وردت الآية موضحة ومبينة أن من قدم على الله تعالى ﴿ مُجْرِمًا ﴾ متلبساً بجريمة الكفر، واستمراره في معصيته لله تعالى حتى مات ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ ﴾ أي: له نار جهنم مأواً ومسكناً، والتي من خصائصها أنه ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ فلا يموت الداخل فيها بالاحتراق والانشواء، فيتحقق له الاستراحة من العذب ﴿ وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ ولا يعيش حياة ينتفع ويتلذذ بها، فحاله من العذاب كحالة الفاقد لنعيم الحياة، لأن استئناس الحياة إنما يكون بالطمأنينة والنعيم. بما يوضح ويبين استقرار المجرم في النار، مع استمرا العذاب الذي لا ينقطع عنه، ولا ينتهي، ولا أمل في الخروج منها. وفي هذا السياق الكريم بيان بأن وجود وحياة أهل النار فيها مخالف لحياة الأحياء، فحياتهم لا تنقطع بالاحتراق من جهنم. إذ أن من طبيعة النار أن من يدخلها يحترق فيموت، ولكن نار الآخرة، التي هي جهنم فإنها خلاف ذلك تماماً، فمن يدخلها يحترق من غير أن يموت فيها. فهو في عذاب الاحتراق الدائم الذي لا ينقطع. بل هي في تتابع من العذاب، مما يفيد قطع لأمل من حصول الموت في جهنم بعملية الاحتراق.

ومن تفاصيل البيان، وجمال مكوناته ومحتواه، أن ابتدأت الموعظة بتأكيد التقرير المشروط ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا ﴾ فجملة ﴿ إِنَّهُۥ مَن ﴾ أفادت: من كان حاله وشأنه، لأن ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ تبين أن الذي حاله وشأنه، مجرماً. وأما ﴿ مَن ﴾ فهو اسم شرط للإتيان بجريمة الإجرام ﴿ يَأْتِ ﴾ أي: حال كون إتيانه إلى ربه

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥١/١١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١٩/١٦)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٦٧/٣)

﴿مُجۡرِمًا﴾ متلبساً بالكفر، وهو مَنْ فعل الكفر والمعصية، فتلبس بها، فإنه قد تَسَمَّى باسم المجرم، وأصبح نعتاً وصفة واسماً لحقيقته، وهو يقابل المطيع المؤمن. ولفظة ﴿لَهُۥ﴾ من قوله تعالى ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ أفادت الاستحقاق للعذاب الذي لا ظلم ولا تعدي عليه فيه، بل هو استحقاق له بكفره. وجملة ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ جواب الشرط، لمن يأتي إلى ربه كافراً.

فبعد أن بين السحرة الذين آمنوا عقاب وجزاء من كفر، فإن من تمام كلامهم هو بيان الثواب العظيم الذي يناله من آمن ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾ فمن يأتي ربه وهو مؤمن، ومتجنباً للشرك، قد جمع مع إيمانه الأعمال الصالحة التي أمره الله تعالى بها، وانتهى عما نهاه عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾ فإن لهم المنازل العالية الرفيعة، أي: الجنة ذات الدرجات العالية، والمنازل الكريمة الطيبة. وفي هذا بيان بالمنزلتين المتضادتين، لأصحاب أعمال متضادة.

وفي ذلك ترهيب وترغيب وبيان لفرعون ومن معه من الذين شهدوا الموقف. وفيه استثمار واستغلال السحرة الذين آمنوا هذا الحدث وهذا الموقف لإيضاح الحق علناً، وبيانهم له بأحسن بيان. وهذا من توفيق الله تعالى لهم، ورفعة لدرجاتهم، مما يفيد أهمية استغلال المواقف واستثمارها. وهذا يُذكر بالقصة التي ذكرها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عن الغلام الذي استغل واستثمر قتله، والتي ملخصها: أنه كان لِمَلِكٍ ساحر، وعندما كبر في سنه طلب من الملك أن يبعث له غلام يعلمه السحر، فبعث له غلاماً، وكان في طريق الغلام راهب، فكان كلما ذهب للساحر مر بالراهب فتعلم منه. فدل الناسُ الملكَ على فعل الغلام، فطلب الملك من الغلام أن يرجع عن دينه فأبى، فذهبوا بالغلام إلى جبل فرموه منه، فلم يمت الغلام، فرماه الملك في البحر، فخرج ورجع للملك. فقال الغلام للملك: إن أردت قتلي فاجمع الناس، وخذ سهماً من كنانتي، وقل باسم الله رب الغلام، ثم ارمني به، ففعل، فمات الغلام. فقال الناس: آمنا برب الغلام(١) فما أشبه استثمارهم للموقف باستثمار الغلام لموقفه.

ثم تم وصف الجنة بحقيقتها، ترغيباً فيها لفرعون وغيره، بأن يُقلِع عن الكفر، ويتَّبِع موسى وهارون عليهما السلام ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ فهذا وصف للدرجات العلى، بأن فيها ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ فلهم جنات باقية مستديمة. أي: في وسط الجنة الذي هو أعلاها، وهي إقامة دائمة لا تنقطع، وهي أعلى درجة في الجنة، وسقفها عرش الرحمن جَلَّ وعَز، وفيها عين التسنيم، والجنان

(١) مسلم، صحيح مسلم (٤/٢٢٩٩) برقم (٣٠٠٥)

حولها محدقة بها(١) وهي جنات استقرار وثبات، قال أبو عبيدة أي: في جنات خُلْد، يُقال: عَدَن فلان بأرض كذا، أي: أقام(٢) فكلمة ﴿عَدۡنٍ﴾ استوعبت معنى العلو، وشملت الإقامة الدائمة، التي لا تحول ولا تزول، فلا نهاية لها.

وفيها كذلك الأنهار الدائمة ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ تجري من تحت أشجارها ومنازلها الأنهار الجارية التي لا تنقطع ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ فلا يموتون أبداً، ولا يُخرجون منها أبداً، فإنه لا موت في الآخرة، بل حياة أبدية سرمدية ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ فذلك العطاء الجزيل لمن تزكى، وهو الذي تطهر من الكفر والمعاصي.

وهنا يَرِدُ التساؤل، عما صنع فرعون بالسحرة الذين آمنوا، وما تَوَعَّدَهُم به حين سجدوا لله تعالى، وأعلنوا إيمانهم برب هارون وموسى، وثبتوا على إيمانهم، وصبروا على ما نالهم. فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء(٣) مما يدل عل إنفاذه ما توعدهم به، وكذلك دلالة على عظيم إيمانهم، وعظيم الآية التي أجراها الله تبارك وتعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام، وإعلان ذلك للناس، ومشاهدتهم لآية الله تعالى عياناً. وعظيم ما وعد الله تعالى به موسى من إبطال كيد فرعون، وأن موسى وما جاء به عن الله تعالى هو الأكمل والأعلى، كما يفيد ذلك بأن مَرَد كيد الكائد للحق هو الهزيمة والزوال، بل إن كيد فرعون من التخطيط والتنظيم عاد عليه بالخسارة الفادحة التي امتلأ بها حسرة وانكساراً. كما يفيد ذلك أن من كان قلبه مليء بالكبر فإنه يتطاول على الحق الذي يدركه في نفسه، ويخفيه عن غيره، ويظهر بأضداده من الأقوال والأفعال، مما يفيد الحذر من الكبر، فإنه مانع من قبول الحق، مما يوجب دفعه عن النفس، وترويضها على قبول الحق، والاستسلام له.

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٠/٨) وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٨/٣) ملخص

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٨/٣)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١٦/١٦)

﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى ختام إجمالي بما انتهى إليه أمر فرعون وقومه وأعيانه. مُبْتَدِئًا سبحانه وتعالى ذلك البيان بما وجَّهَ به موسى عليه السلام ﴿ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾ يخبر الله تعالى المخاطبين بالقرآن الكريم أنه عزَّ وجل أوحى إلى موسى بما يجب أن يسير عليه ﴿ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ ﴾ وقد طوى تبارك وتعالى ذكر الزمن الواقع بين ظهور موسى عليه السلام على فرعون والسحرة، وبين ما أوحى به إليه بالذهاب ومن معه ناحية البحر. وهو زمن قد مكث فيه موسى يدعو الناس إلى الله تبارك وتعالى. وقد بسط الله تبارك وتعالى تفصيلاً لذلك في غير هذه السورة الكريمة. وهذا من جزالة منهج القصص في القرآن الكريم عند تكرارها، ففي تكرار ذكر القصة هو بيان لأوجه ومقتضيات ذكرها بأسلوب ومضامين وفوائد غير التي في غيرها، وعندما يقتصر ويبسط فإنه بحسب المقام والمقال المناسب الذي وردت فيه القصة، وهذا أسلوب بديع في القرآن الكريم، يستحق دراسة عميقة، يُستكشف فيها عظيم براعة القصص في القرآن الكريم، وما فيه من إعجاز.

وأما عن الفترة الزمنية المشار إليها فهذا ملخصها مما قاله السعدي رحمه الله تعالى: لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام، ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه. وكان فرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل، حتى اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه. فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم، فأوحى إلى نبيه موسى بأن يسري بعباده ليلاً[1] قال تعالى ﴿ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي ﴾ فبدأت الآية الكريمة بما يثير ويشد الانتباه والاهتمام عند المخاطب، بأن استهل الإخبار بأداة التحقق ﴿ وَلَقَدۡ ﴾ التي أفادت مع اللام قوة التأكيد بأنه قد تحق وتأكد وحينا إلى رسولنا موسى بأن يسري بمن معه من مصر. والسري هو الذهاب سيراً في الليل، وفي هذا التوجيه الكريم ما يفيد أهمية التوقي والحذر، من خلال الأخذ بالأسباب، فإن الله تعالى هو الحافظ، وهو الذي أمر بالأخذ بالأسباب، لأنها سنة الله تعالى في تدبيره وتشريعه. وأضاف الذين مع موسى إلى ذاته الكريمة ﴿ بِعِبَادِي ﴾ تشريفاً وتكريماً لهم.

ثم انتقل التوجيه الكريم إلى بيان الوجهة التي يتجه إليها موسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٢٤٤)

﴿ فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا ﴾ فاجعل لهم طريقاً في البحر يابساً، فأفاد التوجيه الرباني الكريم أن يكون الخروج ليلاً، وأن تكون الوجهة جهة البحر، وهو البحر الأحمر. والضرب في البحر يفيد عبوره، من خلال انشاء الطريق اليابس، وذلك بأن يضرب موسى عليه السلام البحر بعصاه. وفي تحديد هيئة الطريق بأنه ﴿ يَبَسٗا ﴾ ما يبين حالة الطريق التي ستكون في البحر، بأنها خالية من الماء والطين التي عادة ما تكون من بواقي أثر الماء، وهذه آية عظيمة من الله تعالى لموسى ولمن معه، ولمن بعده إلى يوم القيامة، ما تُلي القرآن الكريم. بأن يكون الطريق الذي سينشق في البحر يا موسى يابساً، وكأنه حال ضربه يصبح وكأنه ضُرِب قديماً، وأيبسته الشمس، وهو مضروب تلك اللحظة، ليتبين أن بيد الله تعالى الكون كله، وأن الأسباب وتعطيلها وتجاوزها هو بيد الله عَزَّ وجل. فإن الله تعالى يُصَرِّفُ الكون كيف يشاء. وبالتالي فلا تيئسن أيها المسلم مما يقابلك ويعترضك من الصعوبات. فتوكل على الله تبارك وتعالى، وادعوه، فهو يعرف كيف يوطد ويُسَيِّر ويُخضع الأسباب ويطوعها.

ثم يوجه تبارك وتعالى رسوله موسى إلى عدم الخوف والخشية ﴿ لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾ فلا تخاف أن يدركك عدوك، أو غيره، وهو معنى قوله عَزَّ وجل ﴿ لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا ﴾ وكذلك ﴿ وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾ أي: لا تخشى ما هو أمامك من البحر. وفي هذا ما يُطَمْئن موسى عليه السلام والذين معه. وهذا وعد لموسى عليه السلام ﴿ لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾ قال ابن عاشور رحمه الله تعالى عن علة توجيه الوعد لموسى دون قومه بعدم الخوف والخشية: فاقتصر وعده على موسى دون بقية قومه، لأنه قدوتهم، فإذا لم يخف هو، تشجعوا، وقوي يقينهم(١) وكذلك أفاد النهي تحقق وثبوت الأمن له ولقومه، لأن خوفهم وضررهم ينعكس ويرجع على موسى عليه السلام، وبالتالي منع الله تعالى الخوف عن موسى وطَمَّنَهُ، وهو تطمين لجميع من معه.

فأمَّنَ الله تبارك وتعالى نبيه ورسوله وكليمه موسى عليه السلام من كل خوف، إذ ورد النهي عن حصول الخوف المتعلق باللحاق به من فرعون وجنوده ﴿ لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا ﴾ فلا تخاف من أن يدركك عدوك، وغيره ممن تخاف منه. بما يفيد نكفيك هذا الشأن، فلا تفكر فيه أبداً، وكذلك أنه في أمانٍ مما هو قادم إليه، وهو البحر ﴿ وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾ فلا تخشى ما هو أمامك من البحر، بأن تغرق فيه وأنت تعبره، وكذلك لا تخشى من اليابس الذي يكون طريقاً لكم في البحر عند ضربك له بعصاك، فإنك ستسلك طريقاً يابساً لا بلل فيه. بما يفيد: لا تخاف ممن يلاحقك من خلفك، وهو فرعون وجنوده، ولا تخشى من البحر الذي أمامك وأنت تعبره، ولا تخاف من اليابس الذي ستسير فيه بين البحر، فإنك تسلك في البحر طريقاً يابساً لا بلل فيه. فإن الله

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٧٦/٧)

كافيك ما يخيفك ومن معك، سواء كان الخوف من خلفكم أو الخشية مما هو أمامك، فأنت ومن معك في أمان الله تعالى وضمانه من أن يلحقكم أذى مما تخافون منه.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بما كان من فرعون ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ فقد تعقبهم فرعون وجنوده، فغمرهم ماء البحر، فأهلكهم الله تعالى. مما يدل على أن فرعون قد علم بخروج موسى وبني إسرائيل من مصر، فجمع جنوده وتعقبهم متتبعاً لهم، حتى لحق بهم على ساحل البحر ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ ﴾ أي تعقبهم فرعون متتبعاً لهم. وكان تتبع فرعون لموسى ومن معه برفقة جنوده، فدخلوا حتى أوغلوا في الطرق التي انفتحت لموسى ومن معه عند ضربه البحر بعصاه، فتكامل جنود فرعون معه في تلك المسالك بعد أن خرج موسى ومن معه من البحر، فأهلك الله تبارك وتعالى فرعون ومن معه غرقاً في البحر ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ فقد غمرهم من ماء البحر ما غمرهم، إذ تلاطم بهم ما كان ثابتاً من الماء على جنبات الطريق الذي كان يبساً. وذلك في مشهد ومشاهدة من موسى عليه السلام وبني إسرائيل لفرعون وجنوده وهم يغرقون في البحر. ليكون ذلك عبرة وآية لكل عُتل متكبر على الله تعالى، وكذلك زيادة إيمان لمن آمن واهتدى، وأتمر بأمر الله تعالى، فإن المخاليق كلها جنود لله تعالى يصرفها كيف يشاء، بما يُبطل به الباطل، ويُحق به الحق.

وفي جملة ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ ما يفيد التعظيم والتهويل لما غشيهم، بأن أصبح الماء من فوقهم ومن أسفل منهم. ومن أوجه التهويل أن الذي غشيهم هو شيء من البحر الذي هو اليم، وليس كله ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ ﴾ أي: شيء منه، فهذا البعض هو ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ والباقي لم يغشاهم، لعظيم البحر، وعظيم ملك الله تعالى، وعظيم جند الله جَلَّ في علاه. فجملة ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ استوفت الإغراق، والعذاب، والموت لهم، مع التهويل والتعظيم، وهي جملة قليلة الألفاظ، وكثيرة الدلالة.

ثم يخبر الله تعالى بأثر ضلال فرعون على قومه ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ فإن فرعون في حياته قد أضل قومه وما هداهم ولا أرشدهم إلى الحق والصلاح وسبيل النجاة، بل أبعدهم عن رشدهم وفوزهم وفلاحهم ونجاتهم، فقد ارتكب أمرين: الأول: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ ﴾ فإن فرعون بما زينه لقومه من الباطل والكفر أضلهم الطريق، إذ سلك بهم مسالك ضلال الكفر المتعددة. والأمر الثاني: ﴿ وَمَا هَدَىٰ ﴾ وما أوصلهم بعد الضلال والانغماس فيه إلى الهدى الذي ظهر له، بل تمادى بهم في ضلاله الذي رغب فيه، وزين لهم الباطل، وكَذَبَ عليهم في الحق، بأن صوره بالصورة التي تبتعد بهم عنه. مما يفيد خطورة التقليد والمتابعة لمن

مسالكهم الضلال، فإنهم يصدون غيرهم عن الحق. وأن الله تعالى زود الإنسان بالعقل الذي هو مدار التكليف والمساءلة، وقيام الحجة على الناس فرداً فرداً.

ثم يتوجه البيان إلى تذكير الله تعالى لبني إسرائيل بما امتن عليهم من الإنعام، بإنجائهم من عدوهم فرعون، وما أنزل عليهم من المن والسلوى، لتعزيز الإيمان في قلوبهم، وتعاهدهم بفضله وكرمه عَزَّ وجل ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴾ بدأ امتنان الله تعالى لبني إسرائيل بالنداء لهم ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ فخاطب الله تبارك وتعالى بني إسرائيل بما يفيد التخصيص والتنصيص عليهم، وبما ينتمون إليه، وهو إسرائيل، أي: يعقوب عليه السلام: يا سلالة نبي الله إسرائيل، والذي يفيد لفة الانتباه والتذكير والاهتمام، وحثهم على التمسك بما يجب عليهم. فيذكرهم سبحانه وتعالى بنعمة الانتماء للنبي الصالح، وبأقرب نعمة عليهم، والتي كانت آية عظيمة، إذ انشق البحر لهم أمامهم، فأنجاهم عَزَّ وجل بذلك من سطوة فرعون وجبروته ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ ﴾ أي: اذكروا نعمة الله تعالى حين أنجاكم من عدوكم فرعون، وهلاكه وجنوده أمامكم، فقد تم كمال الإنجاء، وتحققت لكم السلامة منه، ثم ذكر سبحانه وتعالى النعمة الثانية، وهي: ﴿ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ ﴾ أي: من ناحية الطور. ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنه جبل بين مصر ومدين، اسمه زَبِير، قال الأنباري: خاطب الله العرب بما يستعملون في لغتهم، ومن كلامهم. عن يمين القبلة وشمالها، يعنون: مما يلي يمين المستقبل لها وشماله، فنقلو الوصف إلى ذلك اتساعاً عند انكشاف المعنى، لأن الوادي لا يد له، فيكون له يمين. وقال المفسرون: جاء النداء عن يمين موسى، فلهذا قال: الأيمن. ولم يُرد به يمين الجبل[1] وذلك الموعد لأخذ التوراة، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هناك، وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل، كما يقصه تعالى قريباً[2] وفي تعيينهم وتخصيصهم بأنهم هم الموعودون بجانب الطور الأيمان، دون ذكر موسى الذي أنزلت عليه التوراة، ما يبين امتداد نعمة التوراة إليهم، فهي هدي الله وشرعه لهم، وموسى عليه السلام رسول ونعمة إليهم.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٧/٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٦٩/٣)

والنعمة الثالثة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ والمن حلوة كالعسل، وقيل كل رزق يحصل بلا تعب. والسلوى: طائر صغير، يقال له السمان[١] وقيل المن: الترنجين. فيمتن الله تعالى بما أنعم عليهم بتلك المنافع والفضائل من غير جهد ولا تعب، وهم في التيه، وذلك بفضله ورحمته التي تستوجب منكم الشكر والطاعة والانقياد لله تعالى ولرسوله.

ثم يحثهم سبحانه وتعالى على التمتع بتلك النعم التي تفضل عليهم بها ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴾ فكلوا مما تشتهون من الطيب الذي رزقناكم، ولا تتجاوزوا في النعمة التي أنعمت بها عليكم ما شرعته لكم، فتستوجبون غضب ربكم عليكم. فإن تجاوزتم فإنه يتحقق فيكم غضبي، ومن يحل به غضبي فقد هلك بالعقاب الذي هو السقوط في النار. وقد بدأ البيان الكريم بفعل الأمر ﴿ كُلُواْ ﴾ ليفيد الإذن، مع زيادة الإكرام لهم ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ أي كلوا من لذائذ وأطايب الرزق، والطيبات تشمل أن يكون حلالاً، سواء نوعه، أو كسبه. ثم بين سبحانه وتعالى الضابط الآخر لذلك ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ فلا يحملكم هذا الإنعام من السعة على الطغيان، بمجاوزة الحدود التي شرعها ربكم لكم. فلا تتجاوزوا ما يجوز إلى ما لا يجوز لكم، ويلزم من عدم الطغيان الاعتراف للمنعم بما أنعم، وشكره على ذلك بالحمد والثناء والاتباع. فإن تجاوزتم بالطغيان حل عليكم غضبي ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِي ﴾ أي: ينزل عليكم غضبي، وكلمة ﴿فَيَحِلَّ ﴾ تعني النزول والوقوع، أي: نزول غضب الله تعال عليهم، فيكونوا قد استوجبوا العقوبة، فإذا استوجبوا العقوبة وحل بهم غضب الله تبارك وتعال، جاءهم الهلاك ﴿ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴾ ومن يحل به غضبي فقد هلك بالعقاب، فهوى إلى النار. مما يفيد خطورة البطر، والطغيان بالنعمة، فإن ذلك يستوجب غضب الله تعالى، وإذا حل غضب الله عَزَّ وجل على العبد هوى وسقط في عقاب الله تعالى، وسقط عنه ما كان فيه من الخير والحظوة، فيتحول إلى السيء من الحال والعقوبة والنكال.

فبعد التحذير من البطر والطغيان في النعمة، يبين الله تعالى رحمته لمن تاب وأناب، وهي التوبة والرحمة التي تدفع العاصي إلى ترك معصيته، والاتجاه إلى التوبة والاستقامة، والتي هي قوة في الترغيب الذي لا ينقطع منه الرجاء ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ فإن من صفات الله تعالى

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٦٠/١)

أنه غفار ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾ وقد بدأت الآية الكريمة بالتأكيد على صفة المغفرة لمن تاب، وذلك بحرف التوكيد **(إن)** والتي اشتملت عليها ﴿إِنِّي ﴾ ثم زاد التأكيد بأسلوب المبالغة في المغفرة ﴿ لَغَفَّارٌ ﴾ التي تفيد كثرة المغفرة، وتواليها لعباده كلما استغفروه وتابوا إليه. وورد ضمير المتكلم مع نون التوكيد ﴿إِنِّي ﴾ فأفاد تقرير ما بعده، قطعاً وجزماً به، من أن المتكلم وهو الله سبحانه وتعالى غفار لمن تاب، وأصلح نفسه بطاعة ربه جَلَّ جلاله.

وقد عَيَّنَ وحَدَّد سبحانه وتعالى صفة المخصوصين بالمغفرة ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ فالصفة الأولى هي التوبة: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ وهي تفيد عودة التائب عن المعصية والخطأ الذي كان عليه، وتشمل التوبة: الاعتراف بالذنب، والندم على فعله، العزم على عدم العودة إليه، والطلب من الله تعالى أن يغفر ويتوب عليه. والصفة الثانية: تحقيق الإيمان ﴿وَءَامَنَ ﴾ وهو التصديق بكل ما يجب التصديق به، فيؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، وغيرها من لوازم الإيمان. والصفة الثالثة متعلقة بالعمل: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أي: وأدى في نفسه وسلوكه ما تتحقق به الاستقامة على أداء ما أمر الله تعالى به، والامتناع عما نهى عنه سبحانه وتعالى. ويدخل في ذلك بالوجوب طاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فيما أمر ونهى، لأن الله تعالى نص على طاعة نبيه عليه الصلاة والسلام في مواضع كثيرة، ومنها قوله تعالى في سورة الأنفال ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾ فقرن سبحانه وتعالى طاعة نبيه صلى الله عليه وسلم بطاعته، وجعل طاعة العبد للرسول شرط للإيمان، وبيان لصحته. وأما الصفة الرابعة، فهي: لزوم الاهتداء، بالاستمرار عليه ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ أي: لزوم ما هداه ووفقه الله تعالى إليه، وعدم الحيدة عنه حتى يموت على ذلك، قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: أي: استقام على السنة والجماعة وجماعة المسلمين[1] مما يفيد أن دلالة الاهتداء هي الموضحة لشأن التائب وحاله مع تلك الشروط لقبول التوبة منه. فهي علامة مصداقيته.

﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/١٦٩)

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ
غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ
ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ
وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ
لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن
نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾

ينتقل السياق والبيان الكريم إلى الإخبار عن فتنة قوم موسى عليه الصلاة والسلام، بعد ذهابه لمناجاة ربه تبارك وتعالى بجانب الطور الأيمن، وتأثرهم بباطل السامري ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ما لذي جعلك تستعجل يا موسى فتقدمت على قومك إلى جانب الطور الأيمن، وتركتهم خلفك، ولم تأت بهم معك؟ وهو سؤال من الله تعالى لموسى، وهو أعلم وأعرف بسبب ذلك، ولكن لتقرير الأمر، واستثارة الفهم، ومعرفة الفائدة المترتبة على السؤال، ولإدراك عاقبة التسرع التي حصلت. وهذه الآيات الكريمة توضح وتبين أحداث حصلت من قوم موسى بعد تركه لهم. وملخص ما ذكره أهل التفسير هو: أن موسى عليه الصلاة والسلام بعد أن أهلك اللهُ جَلَّ جلاله فرعون وجنوده بالغرق في البحر، اتجه موسى ومعه سبعون رجلاً اختارهم من بني إسرائيل وذهبوا إلى جبل الطور، حيث وعده ربه تبارك وتعالى بأن ينزل عليه التوراة عند جبل الطور بعد ثلاثين ليلة، ثم أتمها ربنا عَزَّ وجل بعشر، فبادر موسى عليه السلام إلى حضور الموعد شوقاً إلى ربه تبارك وتعالى، وخَلَّف على قومه هارون عليه السلام. وحدث في غيابه عنهم أن أضلهم السامري.

فقال سبحانه وتعالى لموسى ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ما حملك على العجلة بأن تسبق قومك يا موسى، بما يفيد أن اصطحابهم معك كان هو الأولى والأصح. وفي السؤال ما يثير أنه حصل شيء بسبب تقدم موسى على قومه. وفيه من الفوائد أهمية السؤال والتنبيه، وأهمية الحلم والتُّؤَدَة، وحاجة الناس للقائد، في توجيههم، ونصحهم، ومنع أن يتطاول عليهم أحد، وأن على القائد ألا يسبق الذين معه فيما يجب أن يكون معهم.

فحكى الله تعالى إجابة موسى عليه السلام بقوله عَزَّ وجل ﴿ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾ فقد تكلم موسى وأجاب على ما كان يتوقع من قومه أنهم على أثره، وأن استعجاله حتى لا يتخلف، فأراد عليه السلام إرضاء ربه بالتقدم والاستعجال، مع الشوق للقاء الله عَزَّ وجل. مما يدل على

تذوق موسى عليه السلام لحلاوة لقاء ربه عندما كلمه بأمر النبوة ﴿ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي ﴾ فهم على مقربة مني يتتبعونني، فيأتون بعدي. فكانت إجابة موسى على أساس الترتيب الذي كان يتوقع أن يسير عليه قومه في متابعته واللحاق به. وأما ما يخص استعجالي فهو ﴿ وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾ أي: مبالغة في إرضائك بالاستعجال، فإنني أريد أن أرضيك يا ربي.

فأخبره ربنا الذي لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء بما حصل من بعد ذهابه عن قومه ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ فقد ابتلينا قومك، لنختبرهم من بعد ذهابك عنهم، وذلك إخبار منه سبحانه وتعالى مباشرة بقوله عَزَّ وجل ﴿ قَالَ ﴾ أي: قال الله جَلَّ ثناؤه لرسوله موسى. وفي ذلك إخبار منه سبحانه وتعالى مباشرة لموسى، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: جواب سؤال مُقدَّر، كأنه قيل: فماذا قال الله له؟ فقيل: إنا قد فتنا قومك من بعدك، أي ابتليناهم واختبرناهم[1] فهو إخبار منه سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وللمخاطبين بأنه عَزَّ وجل أخبر موسى عليه السلام بفتنة قومه من بعه ذهابه عنهم إلى الطور ﴿ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ ﴾ فإنا يا موسى قد ابتلينا قومك، لنختبرهم من بعد ذهابك عنهم ﴿ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ فكان السامري سبباً في إضلالهم. كما جاء تفصيل ذلك في سورة الأعراف، فإنه بعد خروج موسى عليه السلام إلى الطور اتخذ قوم موسى من بعض حليهم التي استعاروها من القبط قبل حدوث الغرق عجلاً، وهو ولد البقر، وعملوه على شكل جسد، له صوت البقر.

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: أن السامري اتخذ من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً له خوار، والخوار صوت البقر، وكان هذا منه بعد ذهاب موسى لميقات الله تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك، وهو على الطور[2] قال الزجاج: والجسد هو الذي لا يَعْقِل ولا يُمَيِّز، إنما هو بمعنى الجثة فقط، وقال ابن الأنباري: ذِكرُ الجسد، دلالة على عدم الروح منه، وأن شخصه شخص مثال وصورة، غير مُنْضَمٍ إليها روح ولا نفس(٣) وفي هذا تعليم لموسى ولمن بعده أن الطاعة لا تكون بالاستعجال قبل الوقت والموعد، فإن طاعة الله تعالى تعني أداء الشيء وفق ما أمر، وفي الوقت المحدد بالمأمور به، فلا تُقدَّم الصلاة استعجالا في الطاعة، ولا يُقدَّم نسك عن وقته استعجالاً في الطاعة. وأن الاستعجال مخالفة، وقد يعقبها ابتلاء من الله

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٨٠/٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٥٧/٢) ملخص

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧٧/٣)

تعالى. وفيها إن الله سبحانه وتعالى يحب الحلم والأناة، ويُحب أن تُؤتَى الأمور في حينها ووقتها، ولا تُجعل محبة الأمر دافعاً لتقديمه ما لم يكن في تقديمه فسحة شرعية.

وبالرغم مما كان عليه موسى من شدة الاهتمام والعناية بشأن قومه إلا أنه حصل منهم ما أغضبه، فعاد إليهم بعد أن ناجاه ربه، وتَلَقّيه التوراة منه عَزَّ وجل ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴾ فعاد موسى إلى قومه وهو يحمل في نفسه أمرين: الغضب، والأسف ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا ﴾ قال أبو الدرداء رضي الله عنه: الأسف منزلة وراء الغضب، أشد من ذلك. وتفسير ذلك في كتاب الله تعالى: ذهب إلى قومه غضبان، وذهب أسفاً[١] فاجتمع في حال موسى عليه السلام أمران عظيمان، الأول: الغضب، والثاني: ما هو أشد منه، وهو الأسف، الذي هو الحزن والألم الشديد على ما كان من قومه.

ومن رحمة الله تعالى أن أخبره قبل وصوله لقومه، لأنه لو شاهد الأمر وعاينه قبل معرفته المسبقة لربما كان حال غضبه وأسفه أعظم من ذلك، مما يفيد أن في إخبار الله تعالى له قبل وصوله إلى قومه هي رحمة به من عدم حصول هول المفاجأة التي لا يحتملها. ثم من فوائد ذلك أن الإنسان قد يحصل على نعمة، وقد يردفها ويعقبها ابتلاء، وكل ذلك لحكمة من الله تعالى، مما يفيد أن الأنبياء يبتليهم الله تعالى في أقوامهم، فكيف بمن هو دونهم من الخلق، فإن لله تعالى حكمة ومشيئة عظيمة لا تدركها عقول الخلق.

فخاطب موسى قومه بسؤالين استنكاريين ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴾ فعاتبهم بسؤالين استنكاريين، زاجرين. فالعتاب الأول: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًا ﴾ ألم يعدكم ربكم بكل خير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك الوعد الصدق بإنزال التوراة، وهو وعد ليس لكم إنكاره، ففيها منهج الهداية، وطريق الفوز والسلامة، وكذلك أهلك عدوكم وأنتم تشاهدون الهلاك لهم. فكل ذلك وعود مليئة بالنعمة الحسنة.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠/٤٥٠)

وأما العتاب الثاني: ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ فينكر عليهم بأسلوب النفي، الذي ينفي أن يكون غيابه عنهم طويل المدة ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ ﴾ أطال عليكم زمن غيابي عنكم القصير؟ بما يفيد أن غيابي ليس بذاك الغياب الطويل، حتى تنسوا ما أمرتكم به ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أو أنكم بهذا الفعل والصنيع المقيت المشين استعجلتم أن يقع بكم غضب ربكم عليكم، فارتكبتم أسباب حلول غضب الله تعالى عليكم ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ فأخلفتم موعدي، بمعنى: فأخلفتم ما عاهدتموني عليه، بأن تقيموا وتستمروا على طاعة الله جَلَّ في علاه. وقد أوصيت بكم أخي هارون، فلم تطاوعوه، وتنتهوا عما نهاكم عنه من عبادة العجل، ولم ترعو غيابي، وتُجِلُّوا نعمة إنقاذكم من فرعون الذي استعبدكم طيلة تلك المدة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وكان إخلافهم موعده: عكوفهم على العجل، وتركهم السير على أثر موسى للموعد الذي كان الله وعدهم[١] فمخالفة أوامر الله تعالى توجب غضبه عَزَّ وجل. كما أن هذا الابتلاء لقوم موسى ما يبين حقيقة إيمانهم، أمام الآيات التي مروا بها، والنعم العظيمة الجليلة التي يرونها ويحسونها، ويتنعمون بها.

فأجابوا موسى عليه السلام بما أخبر به سبحانه وتعالى ﴿ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴾ قال قوم موسى لنبيهم موسى عليه السلام، ما أخلفنا عهدك الذي عاهدناك عليه برغبة منا على مخالفتك ﴿ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ فمخالفتنا لما وعدناك يا موسى أننا لم نملك أنفسنا عن الخطأ الذي وقعنا فيه. قال ابن كثير: أي: عن قدرتنا واختيارنا[٢] لم نطق حمل أنفسنا على الصواب، ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الذي وقعنا فيه من الفتنة[٣] ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ ﴾ أي: حملنا أوزاناً وأثقالاً من حُلي آل فرعون، التي استعاروها من القبط قبل حدوث الغرق ﴿ فَقَذَفْنَٰهَا ﴾ أي: فألقينا تلك الأوزار من زينة القوم في الحفرة التي حُفِرت. وذلك بهدف إعادة مصاغها بما اقترحه السامري ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴾ وكذلك ألقى السامري ما كان معه من الحلي. ليفهم منه التأكيد لموسى بأنه حتى الذي صاغ لهم من حليهم عجلاً جسداً له خوار، ألقى ما معه من حلي،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/١٣٢)
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/١٧٠)
(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/١٣٣)

فكأنه شجعهم بذلك الصنيع، وبتلك الفكرة، حتى جعل له صوت بمرور الهواء فيه، فأصبحوا لا يملكون شأنهم من تدرجه معهم في عبادة العجل. مما يفيد أن الإنسان قد يقع في حبائل المعاصي بالتدرج فيها، حتى يجد نفسه متلبساً بها، وكأنه لم يكن يملك من أمره شيئاً، لبيان قوة التأثير. مما يفيد الحذر، والوقاية من منحدرات المعاصي، التي تأخذ الإنسان شيئاً فشيئاً، ليجد أنه قد تلبس بها تلبساً كاملاً. ويفيد ويبين ما قام به السامري من صناعة العجل أنه ماهر في هذا المجال، الذي هو صناعة الذهب ونحوه من المعادن، وأنه بارع في صناعة التماثيل، والتي منها العجل الذي فتنهم به.

ثم يخبر الله تعالى بما كان من السامري، الذي أغراهم بصوت العجل ﴿ **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ** ﴾ فأخرج لهم من الحفرة التي جمع فيها الحلي، بعد أن أعاد صياغتها ﴿ **عِجْلًا** ﴾ وهو ولد البقر ﴿ **جَسَدًا** ﴾ وهو صف للعجل بأنه على شكل جسد ﴿ **لَّهُۥ خُوَارٌ** ﴾ له صوت البقر. وقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: أن السامري اتخذ من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً له خوار، والخوار صوت البقر، وكان هذا منه بعد ذهاب موسى لميقات الله تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك، وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة ﴿ **قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ** ﴾[1] ووجود الصوت للعجل الذي صنعه السامري دليل على أنه مجوف، فيدخل فيه الهواء، ويخرج من الجهة المقابلة، فيحدث الصوت. قال الزجاج: والجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز، إنما هو بمعنى الجثة فقط، وقال ابن الأنباري: ذِكر الجسد، دلالة على عدم الروح منه، وأن شخصه شخص مثال وصورة، غير منضم إليها روح ولا نفس[2] مما يبين دقة البيان، وتصويره لفظاً وكأن القارئ يشاهده بالتخيل له.

ثم يخبر الله تعالى بما قاله السامري ومن وافقه ﴿ **فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ** ﴾ فورد الجمع بالقول ليشمل السامري ومن وافقه إعجاباً بما صنع من العجل ﴿ **فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ** ﴾ فقرر لهم أن هذا العجل الذي له خوار هو ربكم، ورب نبيكم موسى، ونعته بالألوهية حتى يُؤَلَّه ويُعْبَد من دون الله عَزَّ وجل ﴿ **فَنَسِيَ** ﴾ أي: فضل وترك الدين، قال ابن جرير رحمه الله تعالى: فهذا

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٥٧) ملخص

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/١٧٧)

خبر من الله تعالى عن السامري، والسامري هو الموصوف به. قالوا: ومعناه أنه ترك الدين الذي بعث الله به موسى، وهو الإسلام[١] أي: أن الذي نسي هو السامري، وليس متعلق النسيان بموسى عليه السلام. ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي: ترك السامري ما كان عليه من الإسلام.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: فنسي السامري إيمانه وإسلامه[٢] ويأتي أيضاً بأن السامري قال لهم: هذا إلهكم وإله موسى الذي نسي، أي: نسي أن يخبركم بذلك. وهو قول آخر ذكره أهل التفسير، ومنهم ابن جرير رحمه الله تعالى عن قتادة رحمه الله تعالى: قال السامري: نسي موسى ربَّه عندكم[٣] ولعل المقصود به هو تحقق الدلالتين، واجتماعهما في السامري، بأن كذب عليهم السامري، فقال لهم: بأن موسى نسي أن يخبركم، وكذلك تركه لدين الله تعالى. وهذا من بلاغة القرآن العظيم وإعجازه في استيعاب نصه لما هو متقرر المعنى والدلالة، بأن يكون موقع ﴿ فَنَسِيَ ﴾ من السياق ما تتحقق به الدلالتين.

فينكر الله تعالى عليهم ضلالهم وغباءهم بهذا العجل الذي اغتروا بتشكيله، وحدوث الصوت منه، دون أن ينظروا إلى الحقائق الأخرى المبينة والموضحة لعجزه ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ وهذا استفهام استنكار، كيف يُفتنون بجسد لا يتكلم ابتداء؟ أيبلغ بهم سفههم أنهم تجاهلوا جماد هذا العجل الذي لا يستطيع أن يجيبهم إذا سألوه وخاطبوه؟ ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ مما يفيد كذلك أنه استفهام توبيخ وتقريع. ألم يروا ببصرهم وبصيرتهم أنه لا يستطيع أحدٌ أن يتحدث إليه؟ وكذلك من عجزه أنه فاقد النفع وفاقد إلحاق الضرر بالغير ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ ولا يملك شيئاً يضرهم، ولا يملك شيئاً ينفعهم به، فلا يستطيع أن يمنع عنهم شيئاً من الضر، ولا أن يدلهم على أي طريق من الخير والصلاح يتخذونه. مما يؤكد أهمية القياس العقلي، وأهمية التفكير، فإنه بمجرد التفكير الصحيح يتأكد لهم أن من هذه صفته لا يمكن أن يكون إلهاً يُعبد، ليرجون منه خيراً، أو يدفع عنهم شراً. فإن اتخاذهم للعجل معبوداً من دون الله تعالى ظلم لأنفسهم. مما يبين أن دين الله تعالى دين علم وفكر، إذ يخاطب الناس بالحقيقة التي تدركها عقولهم، وأن منهجه لا يخالفه عاقل، وأن الناس لو تأملوا بعقولهم شريعته لتمسكوا به، وعضوا عليها بالنواجذ، وأيقنوا تمام اليقين أن الله سبحانه وتعالى هو الذي لا يُعْبَد سواه.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/١٤٠) واختاره في ص (١٤٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢١٧)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/١٤٠-١٤٢)

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بما كان من نصح هارون لهم ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ فلقد كلم هارون عليه السلام الذين عبدوا العجل بالنصح والإرشاد لهم ،من قبل أن يأتي موسى عليه السلام ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ ﴾ ولقد تأكد وتحقق لهم القول بما يمنع عن هارون اللوم، وبما يبين أنه أزال عنهم اللبس الذي حصل لهم، فأوضح وأبان لهم أنه فتنة لهم ﴿ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ أي: ابتليتم بهذا العجل، واختبرتم به، بما يفيد التمحيص لكم، حتى يظهر صحيح الإيمان من مريض القلب. وأما ربكم فليس هو هذا على حسب زعم وافتراء السامري، بل ربكم الذي تعم نعمه جميع الخلق ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾ الذي يرحمكم بنعمه، وهدايته بإرسال المرسلين، وإنزال الكتب، ثم يؤكد لهم طلبه لهم بأن يتبعوه فيما نصحهم به، وأن لا يتبعوا السامري. ولا ينجرفوا وراء ما فُتنتم به ﴿ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ فاتبعوني بما تلزمكم المتابعة من العبادة التي عليها أنا وأخي موسى، ثم يؤكد عليهم طلبه بلزوم الطاعة ﴿ وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ فأطيعوا ما أمرتكم به من اتباعي في رفض عبادة العجل، وإخلاص العبودية لله تعالى، وحده لا شريك له.

ومن دقائق النصح الذي يبين اجتهاد هارون عليه السلام في نصحه لمن عبد العجل أن ورد قوله لهم بلفظين، يؤكد كل واحد منهم الآخر ﴿ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ فامتثلوا بي، ثم أضاف الطاعة ﴿ وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ والتي تؤكد المتابعة، فإن تابعتموني في عبادة الله تعالى وحده لا شريك له فأطيعوا أمري ﴿ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ فانقادوا لأمري الذي أمرتكم به، ووضحته لكم.

وقد تضمنت نصيحة هارون عليه السلام لهم الحكمة الوافية الضافية، إذ بدأ بكشف مناط هذا الحدث بأنه فتنة لكم، واختبار لإيمانكم، وقوة توحيدكم لله تعالى ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ ابتليتم بهذا العجل، واختبرتم به. ثم بين لهم المعبود الحقيقي، واختار اسم الرحمن وصفة الرحمة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾ مع توكيد ذلك بنون التوكيد ﴿ وَإِنَّ ﴾ وكذلك حصر الربوبية وقصرها على الله سبحانه وتعالى ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾ فليس هناك رب غيره جَلَّ في علاه. ثم تدرج معهم إلى اتباعه في العبادة على الوجه الذي بينه لهم، وترك عبادة العجل ﴿ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ ثم أكد لهم معنى الاتباع، بأن يطيعوه فيما أمرهم به وبينه لهم ﴿ وَأَطِيعُوٓا۟

﴿ أَمْرِي ﴾ فأطيعوا الأمر والشأن الذي تتبعونني فيه، وشجعهم على ذلك بأن نسب الأمر إليه ﴿ أَمْرِي ﴾ وذلك مفارقة ومقابلة لما أمرهم به السامري، فذاك أمر السامري المخالف لله تعالى، وهذا أمري الذي كلفنا الله تعالى به، ليبين أن أمره لهم وفق الدليل، ووفق مراد الله تعالى، وأما أمر السامري فإنه افتراء واختراع من نفسه، لا دليل ولا حجة عليه، بل إنه مخالف لمراد الله تعالى منكم. وليبين لهم قوة نصحه، ومعرفته. فكان بيانه غاية في الحكمة، لأنه نبي الله ورسوله عليه السلام، تحت إمرة أخيه موسى عليه السلام. فكان تدرجاً في غاية الأهمية والدراية بكيفية التعامل، ولم يُنفرهم بالتهجم عليهم، بل كان كلامه مفعم بالأدب في الدعوة.

ثم يُخبر الله تبارك وتعالى بما رَدَّ به الذين عبدوا العجل على هارون من العناد والإصرار على ما هم عليه من عبادة العجل ﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ فقالوا: لن نزال مقيمين وقائمين على عبادة هذا العجل إلى أن يأتي موسى، فننظر فيما يقول، قال القرطبي رحمه الله تعالى عن ﴿ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ فينظر هل يعبده كما عبدناه. فتوهموا أن موسى يعبد العجل. فاعتزلهم هارون في أثني عشر ألفاً من الذين لم يعبدوا العجل(١) ومن قوة إصرارهم أن جاء البيان الكريم بالجزم على البقاء على عبادته، ونفي كل ما يعارضه ﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ ﴾ فحرف ﴿ لَن ﴾ يفيد مع الفعل ﴿ نَّبْرَحَ ﴾ نفي الترك مطلقاً، مع الإصرار على عبادته ﴿ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ أي: والبقاء عاكفين على عبادة العجل حتى يعود موسى من جانب الطور. وأفاد الفعل ﴿ نَّبْرَحَ ﴾ مع حرف ﴿ لَن ﴾ شدة الملازمة وعدم الترك له، وكذلك الإتيان بلفظ العكوف مع نفي الترك ما يفيد قوة الإصرار والملازمة ﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ ﴾ فالعكوف في هذا السياق أفاد الإصرار وقوة الملازمة، بالقيام والاستمرار على عبادة العجل ، فالعكوف يحمل معنى الملازمة. مما يشير إلى شدة قناعتهم بما هم عليه، وإصرارهم على الباطل. كما يُستنتج من كلمة الاعتكاف أن عبادته مشتملة على أفعال تعبدية، كالتمسح، والدعاء، والتقرب إليه، فيحصل بذلك ربط أنفسهم به. فتحصل صفة الاعتكاف بالملازمة. فلا بد أن هناك شيء يلازمونه ليحصل منهم الاعتكاف.

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/١٥٧)

فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾

وبعد نصح موسى عليه السلام قومه بما يجب عليهم اتجه إلى أخيه هارون ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ فعندما رأى موسى العجل وما يقومون به من العبادة له، ووعظهم بما يجب عليهم، انتقل إلى أخيه المسؤول عنهم في غيابه، مُبتدأ أخاه هارون بالنداء ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ ﴾ للفت الانتباه، وشد الذهن إلى أن الأمر جلل فيما سيسأل عنه ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ فبادره بالسؤال الاستنكاري التعجبي. ما الذي يمنعك عندما رأيتهم ضلوا عن الحق بكفرهم الذي وقعوا فيه ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ فكان الأولى أن تتبع أثري إلى الطور، ومعك من اتبعك، إشارة إلى أن تترك من كفر بعبادة العجل، واتخذوه معبوداً لهم ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ سؤال تحقق عما حصل من أخيه مباشرة، ولم يسأل في ذلك غيره، للثقة التي يحملها في أخيه هارون عليهما السلام، وكذلك لمعرفة العلل والأسباب من مركزها، حتى يتخذ حيالها ما يناسب من الأمر، خاصة وأنه قَدِمَ غاضباً، لأن الله تعالى أخبره عند الطور بما حصل من قومه، وهو قوله تعالى ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ فكان السؤال استنكاري، بأنه لم يكن هناك ما يمنع من أن تلحق بي، فما الذي منعك من أن تلحق بي ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ فهل خالفت أمري. ففي تقدير موسى عليه السلام أن الأولى هو أن يلحق به هارون ومن معه ممن لم يعبد العجل، باعتبار أنه النائب له على قومهما، بما يفيد شدة اللوم، لقوة ما حصل من عدم لحاقهم به، ولما حصل من فتنة العجل.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يقول تعالى ذكره: قال موسى لأخيه هارون لَمَّا فرغ من خطاب قومه ومراجعته إياهم على ما كان من خطأ فِعلهم: يا هارون أي شيء منعك إذ رأيتهم ضلوا عن دينهم، فكفروا بالله، وعبدوا العجل، ألا تتبعني[1] وفي هذا دلالة على اختلاف الاجتهاد والتباين بين العقول فيما يمكن فيه الاجتهاد. على ما سيأتي بيانه من كلام هارون لأخيه عليهما السلام، بأنه خشي أن يُفَرِّق بينهم، بتركه لهم،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/١٤٥)

والمجيء إليه بمن اتبعه. وفيه أن للمسؤول أن يسأل من يخلفه عن العلل، ليتضح ويتبين له الحقيقة، التي يستعيد بها تكامل المعرفة في نفسه أولاً، ويعذر بها من يخلفه، ويتخذ ما يقرره على علم ودراية بكل جوانب الأمر. وفيه أن الغائب قد يتصور الشيء على غير ما اجتهد فيه من يخلفه. وقد يغضب من ذلك. فيلزم خليفته أن يتحمل، وأن يبين له الأمر في أدب. لأن واقع حال المسؤول ليس كغيره، فكيف إذا كان الذي أوكله وأرسله هو الله سبحانه وتعالى، فإنه حريص اشد الحرص على إرضائه، إلى حَد أنه استعجل إجلالاً وإرضاء لربه تبارك وتعالى.

فيُجِيب هارون بما قاله الله عَزَّ وجل عنه ﴿ **قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي** ﴾ خاطب هارون عليه السلام أخاه بأرق واجمل وأجَل الأساليب، داعماً كلامه بقوة صلة القرابة التي تُعبر عن شدة التجاذب والالتصاق بينهما، وما ينتج عن ذلك من قوة المؤازرة، وقوة العناية والاهتمام ﴿ **قَالَ يَبْنَؤُمَّ** ﴾ والتي لا يخالجها محبة الخذلان لأخيه، والذي ينتفي بها كل سوء. وفي هذا ما يدل على جميل الاستعطاف والتلطف. بما يفيد أهمية الترفق بالأخ، وامتصاص غضبه، واستثارة أقوى مجامع التلطف والاستعطاف. حيث ذهب إلى أعمق العلاقة، كما أن في ذلك تذكير بوشائج العلاقة بالأم، فهي أكثر إظهاراً للعاطفة والحنو.

ثم بعد تلك المناداة الخطابية الرقيقة يقول ﴿ **لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ** ﴾ بما يدل على أن موسى أخذ بشعر لحية أخيه، وبشعر رأسه، معاتباً له، ولكنه عتاب على سبيل الإكرام والتعظيم، ولم يكن ذلك على طريق الإذلال. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أي بلحيته وذؤابته، وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين، صلوات الله وسلامه عليهما. وأن ذلك متعارفاً عليه عندهم، كما كانت العرب تفعله من قبض الرجل على لحية أخيه وصاحبه إكراماً وتعظيماً، فلم يكن ذلك على طريق الإذلال[1] وكون هارون أكبر من موسى عليهما السلام ما يبين أن القيادة والسياسة والإدارة، وقوة التأثير ليست بالأكبر سناً، بل بما يهبه الله تعالى للعبد، وهذا يبين إعداد الله تعالى لمن يصطفيه رسولاً، وما يتميز به موسى عليه السلام من القدرات التي وهبها الله تعالى له. فكان من جليل أسلوبه في التعامل مع أخيه أن أخذ برأس أخيه ولحيته.

وهذا العتاب نتيجة ما أصاب موسى عليه السلام من الغضب، وهو غضب لله تعالى، وغَيرَةً على دينه عَزَّ وجل. فيطلب هارون من أخيه موسى عليهما السلام بأن لا يفعل ذلك، فليس في الأمر ما يستوجب ذلك، وأنه أبعد من أن يقع منه ما يكره موسى عليهما الصلاة والسلام ﴿ **لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ** ﴾ فإن الداعي والسبب الذي دعاني إلى عدم اللحاق بك هو ﴿ **إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ**

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٤/٧)

﴿وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ فإنني لو أتيتك بالذين معي، وتركت الذين عبدوا العجل من ورائي، فإنني خفت من عتابك ولومك لي، بأني فرقت بينهم، فخرجت مع فريق وتركت فريق.

كما أن في تخلف من عبد العجل ما أحدث الانقسام، بمعنى أنه رجح الجماعة على التفرق، ولربما حصلت بين الفريقين مشادة لا يُعرف نتيجتها إلا الله سبحانه وتعالى. وإن حصل أن سَلَّطتُ من اتبعوني على الذين خالفوني حصل سفك الدماء، وهي حيثيات مستنتجة، من منطوق وأسلوب هارون عليه السلام. وهنا يحصل أنك تقول ﴿وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ وهو القول من موسى بالقيام بأمر الخلافة له في قومه، بالإصلاح، وعدم إثارة التباغض والتفرق كما أمر. والذي ورد في سورة الأعراف ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فأمر أخيه بثلاثة أمور: الأول: أن يخلفه في قومه الذين هم بنوا إسرائيل. والأمر الثاني: أن يصلح فيما يخلفه فيه ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾ أي أصلح أمر بني إسرائيل، بحسن السياسة والتدبير. ومن دقة الوصية، أن نسب موسى نفسه إليهم، أي إلى بني إسرائيل ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ وذلك لرفع مستوى من يهتم بهم، ولبيان قيمة المأمور به وبهم ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ فأكد بهذا الأمر أهميتهم ومنزلتهم من موسى عليه الصلاة والسلام. والأمر الثالث: النهي عن ضد المأمور به ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ من التفرقة وغيره من إفساد العلاقة. بما يفيد أنني اجتهد في تحقيق ما طلبت مني. وهذا يدل على حصافة هارون، وأنه جدير بأن يطلب موسى من ربه تبارك وتعالى أن يجعله وزيراً له عليهما الصلاة والسلام. مما يبين أهمية اختيار النائب، وأن يكون حصيفاً حكيماً، يراعي المصالح، ويتجنب المفاسد.

ثم توجه موسى بخطابه إلى السامري ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ ما أمرك وشأنك فيما صنعت؟ ما الأمر العظيم الذي دفعك لهذا العمل الباطل؟ فإنه سؤال استفسار، واستنكار ولوم وتوبيخ، لكنه مملوء بحسن الألفاظ، ليسمع ويستنطق منه ما عنده من القول، وليعرف علل ذلك الأمر الجلل. فأجاب السامري بما حكاه عنه سبحانه وتعالى ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾ فيقول السامري جواباً على سؤال موسى له: فإنني فطنت وعلمت بما لم يعلموا به، ورأيت مالم يروه ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ وفي هذا إجمال لما بصره ونظره بعينه لجبريل عليه السلام، وكذلك بما بصره بالبصيرة من المعرفة من أمر صناعة العجل من حُلِي القوم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: علمت ما لم يعلموه، وهو فعلت من البصيرة، أي: صرت بما

عملت بصيراً عالماً[١] فمن قوة دلالة البيان أن جمع السياق بكلمة ﴿ بَصُرْتُ ﴾ ما بين نظر العين، وبين نظر البصيرة بالتأمل، التي تفيد المعرفة، فقد رأى بعينه ما لم يروه، وهو جبريل عليه السلام، فعمل العجل بتفكيره المتولد عن البصيرة من المعرفة بصناعة الذهب. ثم ليقول لهم: هذا إلهكم وإله موسى. وبناء على هذه البصيرة والإبصار بالمشاهدة ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ قبضت قبضة واحدة من تراب أثر فرس جبريل ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أي: ألقيت هذا الأثر مع الحُلِي التي صنع منها العجل. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي: من أثر فرسه، وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين، أو أكثرهم[٢] ومن فوائد الألفاظ: أن القبضة عند العرب هي: الأخذ بالكف كلها، والقبصة: الأخذ بأطراف الأصابع[٣]

وفي إلقائها مع الحلي أثناء التصنيع أو على العجل بعد تصنيعه دليل على أنه بَصُر ببصيرته أن لهذا الأثر تأثير. والأظهر أنه ألقاها على الحلية أثناء إيقاد النار عليها. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: وكما فعلت من إلقائي القبضة التي قبضت من أثر الفرس على الحلية التي أوقد عليها حتى انسبكت، فصارت عجلا جسداً له خوار[٤] ثم علل ذلك الفعل منه ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي: وكما حدثتك به فأيضاً ﴿ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ ذلك. فهذا الفعل هو كما حدثتك به، وهو ما زينته لي نفسي وحَسَّنته بهذا الصنيع الذي أعجبها. فهو اعتراف وتقرير منه على نفسه بما صنع، وأنها مجرد فكرة شيطانية سولتها وزينتها نفسه له. مما يفيد أن على الإنسان أن يحذر مما تُسَول له به نفسه من الأفكار الشيطانية، وأن يصرف نفسه عنها، ويصرفها عن نفسه وعقله بالتعوذ من الشيطان، والقيام بذكر الله تعالى. فالمتأمل في انحرافات الناس الدينية وغيرها، فإنما يجد أن الأصل فيها أنها وليدة أفكار حادثة في نفس المرء، ثم يُعْجَب بها، فيسارع دون أدنى اهتمام وتخوف من الله تعالى، فيترجمها إلى واقع، وربما أغرى بها غيره من الجهلة.

فأجابه موسى عليه السلام بما يناسب صنيعه، وفتنته لقومه، وصدهم عن عبادة الله تعالى ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤٨/١٦)
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٧٢/٣)
(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥٢/١٦)
(٤) المرجع السابق (١٥٢/١٦)

ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ فقال موسى عليه السلام للسامري ﴿ فَٱذْهَبْ ﴾ أي فانطلق من هنا حيث شئت ﴿ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ﴾ فإن لك في عموم حياتك ﴿ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ أي لا أمسّ أحداً ولا يمسني أحدٌ. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فكما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول لا مساس، أي لا تُمَاس الناس، ولا يَمَسُّونك[١] فكان الجزاء من جنس العمل، عدلاً في الحكم. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ذُكِر أن موسى عليه السلام أمر بني إسرائيل ألا يؤاكلوه، ولا يخالطوه، ولا يبايعوه، فلذلك قال له: إن لك في الحياة أن تقول: لا مساس[٢] قال الزمخشري رحمه الله تعالى: عُوقِب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطمَّ منها، وأوحش، وذلك أنه مُنِع من مخالطة الناس منعاً كلياً، وحُرِّم عليهم ملقاته، ومكالمته، ومبايعته، ومواجهته، وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضاً، وإذا اتفق أن يُماسَّا أحداً رجلاً أو امرأة، حُمَّ الماس والممسوس، فَتَحَامَّى الناس وتحاموه[٣] قال السيوطي رحمه الله تعالى: فكان يهيم في البرية، وإذا مس أحداً أو مسه أحدٌ حُمَّا جميعاً[٤] أي: أصابتهما الحمى. وبالتالي فإنه يتحاشى أن يمسه الناس أو يمس أحداً منهم حتى لا تصيبه الحمى، وبالتالي يتحقق فيه قول موسى عليه السلام ﴿ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ فكأنه ينادي من يقابله نهياً له وتحذيراً: لا مساس، لا مساس. ليتبين عقوبة الله تعالى إذا حَلَّت بالإنسان في أمر، أفسدت عليه ذلك فساداً ذريعاً. مما يفيد الحذر من أهل المعاصي، ومخالطتهم إلا لدعوتهم إلى الحق والخير، والتأثير عليهم. ومن دقائق البيان ورود القول بصيغة المضارع ﴿ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ ليفيد الاستمرار على ما يصيبه طيلة حياته. وأمَّا في الآخرة ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾ وإن لك موعداً في الآخرة لعقابك بما تستحق، ولن تحيد عنه أبداً، جزاء ضلالك وإضلالك لغيرك، وتغريرك بهم، لصدهم عن سبيل الله تعالى. وهذا الموعد لن تغيب عنه ﴿ لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾ ولن يخلفك اللهُ إياه، ولن تحيد عنه أبداً.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٧٢/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥٢/١٦)

(٣) الزمخشري، الكشاف (٨٣/٣)

(٤) السيوطي، تفسير الجلالين، ص (٣١٨)

ثم ينتقل البيان إلى شأن العجل، وما سيكون الأمر فيه ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ فبدأ موسى عليه السلام مخاطبة السامري فيما يخص عجله بدعوته إلى أن ينظر إلى مصير معبوده ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ فأبصر وشاهد معبودك الذي عبدته من دون الله تعالى. وقد أفادت ﴿وَٱنظُرۡ﴾ : النظر بالبصر، وبالبصيرة. فانظر ببصرك، بما ستعاينه وتشاهده عينك مما سيؤول إليه معبودك، ولما سيكون عليه إلهك من الحرق حتى يكون رماداً، ثم النَّسفُ له في اليم، ويشمل كذلك النظر بالعقل والتدبر، فانظر بعقلك وقلبك وتأملك إلى حقيقته الذي كَذَبْتَ به على الناس، فإن في إبصار النظر ما يعود على إبصار القلب، وهي البصيرة التي تؤلم من عرف حجم باطله، وخزيه في الدنيا والآخرة. وأيضاً يفيد التوجيه له بالنظر إلى التحقير والإذلال والتصغير لشأن السامري وللعجل الذي صنعه وعبده من دون الله تعالى.

ثم إن موسى عليه السلام نسب السامري إلى معبوده العجل، فقرره بما اعترف به، حيث نسبه إلى عجله كمألوه له ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ فتأمل إلهك، ومعبودك الذي عبدته، وتطلب من القوم أن يعبدوه من دون الله ﴿ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗا﴾ الذي داومت عليه ﴿عَاكِفٗا﴾ مداوماً على عبادته، وملازماً له، وفي هذا ما يستثير في نفس السامري الأسف والأسى على فعله هذا. فانظر إلى مصير إلهك ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ فإن عجلك الذي صنعت ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ لنهلكنه بالنار حرقاً لا يترك له أثراً، حتى يتفتت، ويصبح رماداً. قال الزجاج رحمه الله تعالى: إذا شَدَّد فالمعنى: نحرقه مرة بعد مرة[1] وعند ذلك ﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ أي: بأن نجعله يتفرق بالتطاير ﴿فِي ٱلۡيَمِّ﴾ أي في البحر، بمعنى ذَرّيه بالتطيير والنفض، حتى يذوب رماده ويتلاشى في البحر، بما يفيد المبالغة في إنهائه، بأن نجعلها يتطاير رماداً. فالنسف ﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ هو تطير الشيء بعد تَرَمُّدَهُ، لخفة مكوناته بعد حرقه، وذلك بقصد الإخفاء النهائي الذي لا يُبقي له أثراً. وأكد النسف له بكلمة ﴿نَسۡفًا﴾ لإفادة الجزم بفعل ذلك، ولا تراخي، ولا عدول عن نسفه في البحر. وأمر موسى عليه السلام للسامري بالنظر إلى إلهه الذ يعبده بياناً على حقارته، إذ كيف تعبد من ستراه يشتعل ناراً، ثم ننسفه في البحر. فلو كان إلهاً حقاً لدافع عن نفسه، ومنع غيره أن يصل إليه. فكيف عبدت مفعولاً به، مقهوراً، جامداً، لا حيلة

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٢٠)

له، ولا إرادة. فإن في ذلك دلالة على بطلانك، وبطلان قولك وما عبدت من دون الله سبحانه وتعالى. كما أن في هذا بيان لمن معه بحقيقة الأمر، وكشف كذب وزيف السامري. والإعلان لهم بالحقيقة، وتدمير الباطل حتى لا يعود. ليقدم منهجية في معالجة أمثاله بالقياس عليه.

ثم بعد ذلك يتجه موسى إلى بيان محور الحقيقة في الألوهية التي ليس هناك غيرها أبداً، فيخاطب بذلك الجميع بعد أن وجه السؤال للسامري، واستمع لجوابه ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴾ فإنما معبودكم الذي يجب عليكم أيها الناس عبادته هو الواحد الأحد، الذي ليس هناك إله غيره. فيحصر البيان الخطابي الألوهية في الله تبارك وتعالى، وحده لا شريك له بأداة الحصر والقصر ﴿ إِنَّمَآ ﴾ التي تفيد قصر الألوهية على الله تبارك وتعالى فقط، فلا غيره إله يُعبد أبداً ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ إنما ربكم الله فقط، فهو الإله الذي خلق وأوجد وملك، والذي له العبادة كلها، وله الشكر والحمد وكمال الثناء، والذي لا يُدعى ولا يُرجَى ولا يُخَاف إلا هو جَلَّ جلاله. فلا غيره إله أبداً وقطعاً.

كما تبين الآية الكريمة تفرده عَزَّ وجل بالوحدانية والألوهية ﴿ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ المتفرد بالألوهية، وأنه لا إله إلا هو، فقصر وحصر الألوهية فيه مرة أخرى، فالأولى: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ والثانية: ﴿ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فاشتملت على النفي والإثبات، نفي كل معبود يُعبد من دون الله تعالى ﴿لَآ إِلَٰهَ ﴾ ثم حصرها في الله سبحانه وتعالى ﴿إِلَّا هُوَ ﴾ فهذا تقرير بديع عظيم في قوة دلالته، وقوة بلاغته. ثم بينت الآية الكريمة عظيم علمه تبارك وتعالى، الذي لا حصر له، ولا نهاية لعلمه ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴾ فعلمه عَزَّ وجل قد اتسع لكل شيء، فهو عليم بجميع ما خلق من المخلوقات، وجوداً، وحياة، وعدماً، وحركة، وقولاً، وفعلاً، ولما في الصدور، ولما تعلمون وما لا تعلمون من خلقه، من الجن والملائكة، والسماوات السبع والأرضين، وما فوقها، وما تحتها، وما سما وارتفع، وما سقط وانخفض. فهي جملة وافية ضافية في الوصف وكمال الاحتواء، إذ أن كلمة ﴿وَسِعَ ﴾ تدل على الاتساع والإحاطة الكاملة التامة، وكلمة ﴿كُلَّ ﴾ تفيد الجمع والجميع والعموم دون استثناء أبداً، وأفادت كلمة ﴿شَيۡءٍ ﴾ الاستيفاء، فاستوفت الصغير والكبير، والذي يُرى، والذي لا يُرى، والذي يُسمع، والذي لا يُسمع، والذي يُعرف، والذي لا يُعرف، فاستوفت ما لم يمكن حصره ولا وصفه متسعاً للمُخَاطَب، وإذا ضُمَّت إلى كل ﴿كُلَّ شَيۡءٍ ﴾ استوفت

دلالة الإحاطة الكاملة التامة. ثم أفادت كلمة ﴿عِلْمًا﴾ كمال العلم والإحاطة المتصفة بالعلم الذي لا يغيب عنه شيء البتة. فأحاط تبارك وتعالى بكل شيء علماً، فوسع علمه عَزَّ وجل كل شيء، بحيث لا يغيب ولا يقصر عن علمه شيء أبداً.

وفي هذا التوجيه العام بوصف الله تعالى بما هو أهله وحقيقته، ما يبين كذب السامري وافترائه، وتجلية وإفصاحاً للحقيقة، حتى لا يعودوا لمثله، أو لما هو دونه. بعد أن أعلمهم بصفات ربهم تبارك وتعالى، وليكون ذلك هو ما يختم به قصة موسى عليه الصلاة والسلام بخير وصف لخير وأعظم موصوف سبحانه وتعالى.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان العبرة مما قَصَّه عَزَّ وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم في كتابه القرآن العظيم، وهو الامتنان والفضل العظيم لِمَا في ذلك من العلم والتفاصيل لأدق الأحوال المملوءة بالدروس والعبر لجميع العباد ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ فمثل ما قصصنا عليك أيها النبي والرسول أخبار وأحداث موسى وفرعون وقومهما، كذلك نخبرك بتفاصيل أحداث السابقين في هذا القرآن العظيم. فوجَّه سبحانه وتعالى امتنانه العظيم لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ وقد ابتدأت الآية الكريمة باسم الإشارة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما قصصنا عليك تفاصيل خبر موسى وقومه، فمثله نقص عليك تفاصيل ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ فمثل قوته، ودقائقه، وما فيه من العبر، والآيات والدلائل والحجج ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي: من حوادث وأحوال وأخبار الأمم الماضية، بما تزداد به الحجج والآيات المعجزة كثرة وتعاضداً. وفي ذلك تحقيق وتأكيد وتثبيت الحقائق بكثرة تعددها، حتى يَعْتَبِر من يريد أن يعتبر من السامعين، ويستهدي من يريد أن يهتدي من المستبصرين، وتقوم الحجة على كل من عاند وكابر وكفر.

ففي ذلك البيان عمق الزيادة، وقوة العبر والمواعظ والبينات والحجج التي تثبت نبوته صلى الله عليه وسلم، إذ يُخبره رَبُّه تبارك وتعالى بما لا يعرفه عليه الصلاة والسلام، ولا غيره من البشر، ولا ينكرها أهل

الكتاب لما في كتبهم. فبتلك الأخبار التي عَلِمْتَها بما أوحينا إليك من هذا القرآن التي تُثبت نبوتك ورسالتك، فيزداد البيان بها حجة ودلالة وبرهاناً. ومن دقة كلام رب العباد ورود الإقصاص بالفعل المضارع ﴿نَقُصُّ﴾ التي أفادت الاستمرار بما سيأتي من مزيد القصص عن أخبار ما قد سبق من الأمم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وإنما صيغ المضارع، لاستحضار الحالة الحسنة في ذلك القصص[١] والأنباء، تعني: الإخبار، ولكنه يحمل دلالة تعظيم ما سَيُخْبَرَ عنه، كما أفاد حرف ﴿مِنْ﴾ تبعيض الأنباء ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ﴾ فليس ما نقصه عليك هو جميع من سبق من الأمم. فإن القصص المقصوص عليك أيها الرسول ليس هو كل أنباء ما قد سبق من الأمم، بل: بعضها. بما تقوم به الحجة. ليدل على أن هناك أمماً كثيرة، وأنبياء ورُسُل كثير لم يتم الإخبار عنهم، وإنما الذي ورد عن الله تعالى هو بعض منها، وليست كلها.

ثم يُمجد ويبين الله سبحانه وتعالى نفاسة هذا الامتنان على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى أمته ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ فقد امتننَّا عليك أيها النبي بأن أعطيناك ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ من عندنا، بما يفيد التعظيم والعظمة لما أعطى سبحانه وتعالى، وهو القرآن الكريم الذي أسماه ﴿ذِكْرًا﴾ أي: القرآن العظيم. وفي هذا إشادة بعظيم شأن القرآن الكريم ومنزلته الكريمة العظيمة. وسُمّيَ القرآن في هذا المقام ﴿ذِكْرًا﴾ باعتبارين: الاعتبار الأول: لما فيه من العلاقة القوية بين هذا الاسم ﴿ذِكْرًا﴾ وبين ما في الأحداث عموماً من التذكير بالحق، وإثباته، وإزهاق الباطل وتدميره. وخاصة في هذا المقام باعتبار ذكر قصة موسى عليه السلام. وأما الاعتبار الثاني: فلما في القرآن الكريم من التذكير المتنوع عن الحق، وما يزهق به الباطل، والتذكير بما في القرآن العظيم من العبر والمواعظ، والقصص، والأحكام والتشريع، وما فيه من التذكير بأسلوب الترغيب والترهيب، والمقارنة بين الحق والباطل. فهو كتاب يُذَكِّر سامعه وقارئه بالحق والخير، وبما ينفعه في دينه ودنياه وآخرته. فناسب الاسم ﴿ذِكْرًا﴾ عطاء القرآن الكريم، خاصة مع ما تناولته سورة طه من ذكرها لأنباء موسى عليه السلام وقومه.

ثم يُخبر الله تعالى بحال وجزاء من أعرض عن كتابه ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا﴾ فإن مَن لم يقبله ولم يعمل به، ملتفت ومنحرف عنه ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا﴾ أي: يحمل إثماً عظيماً، وعقوبة قاسية. لأن الإعراض عن القرآن يعني عدم قبوله، وأنه مدبر عنه، ولم يؤمن به، ولم يقبله، ولم يعمل به. والإعراض عن القرآن يعني الإعراض عن الله تعالى، لأن من أعرض عن كتاب ربه جَلَّ جلاله

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٩٧/٧)

فقد أعرض عن ربه عَزَّ وجل، فله الخلود في الجزاء والعقاب لذلك الوزر ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴾ أي: البقاء في عذاب ذلك الوزر﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِ ﴾ لأن الخلود في الوزر يؤكد الخلود في الإثم، الذي لا ينقطع، لأنه كفر، وبالتالي يكون خالداً في العذاب ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴾ أي: وساء بهم ذلك الحمل الثقيل من الآثام التي أوردتهم النار وبئس المصير. أي: وبئس الحمل الذي يحملونه يوم القيامة، فساء من السوء، وهو كل ما يسوء من الأحمال التي حملوها من أوزار الإعراض عن ذكره عَزَّ وجل. فبناء على تلك الأوزار ساء ذلك الحمل الذي يحملونه. وهو يكشف عن قوة العذاب الذي يجدونه، نتيجة قوة الذي تركوه وأعرضوا عنه، وهو كتاب الله القوي العزيز. مما يبين إن التغافل عن كتاب الله جَلَّ في علاه بالإعراض عنه هو كفر، قد استوجب الخلود في العذاب. مما يفيد أن من قَبِلَ كتاب الله تعالى وآمن وعمل به، فهو في نعيم دائم يوم القيامة.

ثم يُخبر الله تعالى عن ذلك اليوم الذي يُنفخ فيه الصور﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴾ والصور: قرن عظيم الدائرة. ينفخ فيه المَلَك إسرافيل، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال (الصور: قرن ينفخ فيه)[١] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: والصحيح في الصور أنه قرن من نور، ينفخ فيه اسرافيل، قال مجاهد كهيئة البوق[٢] وهناك نفختان في الصور: الأولى: للفناء، والثانية: للإنشاء والقيام ﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾ فاذكر أيها الغافل والمعاند ذلك اليوم، وهو يوم يُنفخ في الصور النفخة الثانية، فيكون يوم الحشر ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴾ ويتم حشر المجرمين ذلك اليوم، بأن يُساقون إلى موقف يوم القيامة وهم زُرق العيون من شدة أهوال ذلك اليوم، والتي منها ما يصيبهم من العطش ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴾ فيتهامسون خفية، بأن يُسار بعضهم بعضاً ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴾ فَيُقَدِّرون حياتهم في الدنيا بأنها عشر ليال، أو نحوها. وهو على وجه التقليل التقريبي، لا على وجه الجزم في التحديد. فهم يستقصرون مدة مقامهم في الدنيا، مما يبين أن الإنسان في مواقف يوم القيامة، لا يرى سنوات الدنيا إلا ساعات، وفي مجموعها كأنها أيام قلائل. بما يفيد اغتنم أيها الإنسان هذه الحياة الدنيا، فرحيلك منها قريب، وحياتها قليلة بالنسبة للآخرة، وفي هذا بيان للواقع القادم، وشرح واضح وكاف للإنسان. فهي صورة وكأن الإنسان المُخَاطب يراها ماثلة أمامه من دقة الوصف والبيان. وهذا البيان والإنذار هو من

(١) أبوداود، سنن أبي داود (١٠٧/٥)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٩/١٣)

رحمة الله تعالى بالعباد، لأنه يريد لهم الخير والسعادة، فينوع لهم في البيان والإرشاد، ولكن البعض لا يريد إلا العاجلة.

ثم يُخبر الله تعالى بالمزيد من حال تناجيهم فيما بينهم، وهو أعلم بما يتناجون به ذلك الوقت قبل أن يتناجوا ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴾ فيخبر سبحانه بما سيكون قبل أن يكون، لعلمه عَزَّ وجل بما هو كائن قبل أن يكون، وكيف سيكون ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ وفي هذا بيان وتأكيد على ما سيقولون، بل لم يأت بصيغة المستقبل، وإنما ورد بيانه بصيغة المضارع، وكأنه حادث الآن، وهو يسمع عَزَّ وجل واقعهم وكأنك تنظر إليه. فإن الله تعالى ﴿ أَعۡلَمُ ﴾ والتي تفيد في السياق حصر الإخبار له عَزَّ وجل ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ والتي تحمل دلالة مطلق الوصف للعلم، فلا أحد يعلم عن ذلك شيء إلا الله سبحانه وتعالى ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ ﴾ وتَصَدَّرَ البيان الكريم بضمير المتكلم ﴿ نَّحۡنُ ﴾ الذي يفيد التعظيم والإجلال، مع إجلال ما اختص به من علم سبحانه وتعالى.

ومن دقة علمه سبحانه وتعالى بما سيكون قبل أن يكون قوله عَزَّ وجل ﴿ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴾ فهناك قول لأحسنهم رجاحة ﴿ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً ﴾ أي: أعدلهم قولاً. فحينها سيقول أعقل المتهامسين، والمسارين للحديث بينهم، وهو أعدلهم قولاً فيما يخص مدة حياتهم الدنيا ﴿ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴾ فما لبثتم في الحياة الدنيا إلا يوماً واحداً، وذلك لشدة الهول، فزاد عنهم في تقليل المدة، فكان أمثلهم في قياس مدة الحياة مع شدة الهول. بينما كان القول الأول: عشرا ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴾ مما يبين حال الإنسان عند الأهوال، فإنه ينظر إلى ما مضى من مُتع الحياة الدنيا وكأنها لا شيء. بل قد تلاشت جميع المتع، وصغرت، وقلت وتضاءلت مدتها، بل اضمحلت أمام الحساب والجزاء. فإنها موعظة في غاية الأهمية والأثر والتأثير لمن ألقى السمع، وتدبر كلام الله تبارك وتعالى، واستعرض تلك المشاهد القادمة، وكأنه يراها رأي العين.

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا

﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾

يخبر عَزَّ وجل عن أهوال يوم القيامة، وأحوال الإنسان حينها، وما يخص الجبال الرواسي التي على الأرض، بما يجعل الإنسان على علم بما هو قادم إليه، فيكون ذلك حجة عليه، وإنذار له، حتى لا يلوم إلا نفسه بعد أن أصبح على المحجة والحجة البيضاء، الواضحة الجلية ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ يقول الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ فإن الناس يسألونك أيها النبي صلى الله عليه وسلم عن الجبال، كيف تكون يوم القيامة؟ ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ قال المفسرون: النسف: التذرية، والمعنى: يُصَيِّرُهَا ربنا تبارك وتعالى رمالاً تسيل سيلاً، ثم يصيرها كالصوف المنفوش، فَتُطيرها الرياح، فتستأصلها ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أي: يدع أماكنها من الأرض إذا نسفها مستوية ممهدة ﴿ قَاعًا ﴾ قال ابن قتيبة: القاع من الأرض: المستوي، الذي يعلوه الماء ﴿ صَفْصَفًا ﴾ والصفصف: المستوي أيضاً، يريد: أنه لا نبت فيها[1] فتبقى أرضاً ملساء، مستوية، لا نبات، ولا انخفاض، ولا ارتفاع فيها، بل إن من دقة استوائها أنك ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ فلا ترى في الأرض ﴿ عِوَجًا ﴾ أي: الانحراف والاعوجاج يميناً، وشمالاً، كالأودية، والممرات الملتوية بين الجبال. ﴿ وَلَا أَمْتًا ﴾ أي: ليس فيها طلوع ونزول بالمرتفعات والمنخفضات، فالأمت هو الارتفاع والانخفاض، كالمنحدرات. وذكر الطبري رحمه الله تعالى أن ﴿ عِوَجًا ﴾ أي: أودية ﴿ وَلَا أَمْتًا ﴾ والأمت: الروابي[2] وهذا من عمق البيان في دقة الوصف، الذي يظهر وصفها بالصورة التي تكون عليها، وكأن الْمُخَاطَب يراها ويشاهدها.

ثم يخبر الله تعالى بمسيرة الناس وسيرهم، وهيئتهم يوم يسمعون صوت الداعي إلى موقف يوم القيامة، بعد خروجهم من قبورهم، حيث يبعثهم الله تبارك وتعالى، فيقومون منها ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ عند ذلك الحال يَتَّبِعُ الناسُ صوت داعي الله الذي

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٢٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/١٦٤)

يدعوهم إلى موقف يوم القيامة ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ ﴾ يريدون إسرافيل عليه السلام إذا نفخ في الصور ﴿ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ فلا معدل لهم عنه، أي: عن دُعائه، فلا يزيغون ولا ينحرفون، بل يُسرعون إليه، ولا يُحِيدون عنه، وعلى هذا أكثر العلماء[١] ومن قوة الموقف وهول صورته، أنه لم يُسَمَّ الداعي. كما أن الاتباع يكون وفق تعليمات صوت الداعي الذي يسمعه الجميع في لحظة واحدة، مما يدل على قوة الصوت، وضخامته، ووصوله إلى جميع العباد، أولهم وآخرهم، وفي لحظة واحدة. فإن قدرة الله تعالى أعظم من أن يتصورها الإنسان، أو يحيط بها علماً.

وأما أصوات الخلائق فيقول عنها تبارك وتعالى ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ ﴾ فجميع الأصوات متصفة بصفة الخشوع، الذي جمع معناه الذل، والخضوع، والخنوع، ووقوع الهيبة لمقام الرحمن تبارك وتعالى، الذي أظهر لهم فيه هول الموقف، ومجرياته التي يسيرون وفق مقتضياته، والتي يُؤمَرُ بها العباد وفق مُرَادِ الرحمن الرحيم. وأظهر النص البياني الكريم أن وقوع الخشوع متعلق بالصوت ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ ﴾ فهو الذي خشع، وفي هذا بيان لقوة خشوع أصحاب الأصوات في ذلك الموقف، حتى اتصفت أصواتهم بالخشوع، وهو تصوير بلاغي عظيم لحال الموقف، لأن الصوت هو الحاسة المعبرة عما يصيب الإنسان من الخوف والذل الذي يكون في القلب. مما يدل على رهبة الموقف الذي أظهر الله تعالى فيه مقامه الكريم، وقوته، وقوة سلطانه، وضعف هذا المخلوق. فإن كل هذا الخشوع هو لله تعالى الرحمن الرحيم، ترقباً لما سيكون من أمره وتدبيره عَزَّ وجل.

وورد اسم الرحمن من بين أسماء الله تعالى جميعها في هذا البيان الذي يصف فيه موقف يوم القيامة ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ ﴾ لبيان وإظهار رحمة الله تعالى في ذلك الموقف. فما قرن البيان باسمه الرحمن إلا ورحمته خير ما تكون في ذلك الموقف العظيم، يوم يفصل بين الخلائق، ويقضي فيهم بحكمه العادل، وبرحمته التي سبقت كل شيء. قال السعدي رحمه الله تعالى: والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يُري الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح، والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار. ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق، لما يشاهدونه، فيختص المؤمنين به وبرسله، بالرحمة[٢] فإن رحمة الله تعالى ظاهرة في الدنيا، وهي واحدة من تسع وتسعين رحمة، فكيف بالتسع والتسعين. فنسأل الله تعالى أن يرحمنا في الدنيا والآخرة بفضله وصفحه ومغفرته وكرمه وجوده، إنه هو الرحمن الرحيم، الغفور الودود.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/١٦٤)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٢٥٢-٢٥٣)

ثم يؤكد البيان العظيم من الرحمن الرحيم أن الناس في هدوء تام، وترقب عظيم وبالتالي ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ وهو الصوت الخفيف الخافت، إلى درجة الإخفاء، ليشمل جميع أنواع الأصوات، التي منها الكلام، وصوت الأقدام، والحركة بجميع أنواعها. فيكون مشيهم في هدوء وسكون وخضوع. قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: وطء الأقدام، والصوت الخفي، وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: قيل: إنه وطء الأقدام إلى المحشر، وأصله الصوت الخفي[١] وبالتالي لا تسمع لهم صوتاً منطوقاً، ولا صوتاً للمشي والمسير، إلا همس الأقدام وهي تمشي بهدوء وخشوع وتذلل.

ثم يتطرق ربنا تبارك وتعالى إلى موضوع الشفاعة يوم القيامة، فيثبتها بشرطين أساسيين ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ فلا يكون للشفاعة قبول عند الله تبارك وتعالى إلا لمن يأذن له الرحمن بالشفاعة، ويرضى له عما يقوله الشافع، وفيمن يشفع. وهنا يتكرر تأكيد ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة مرة أخرى ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ فقد ورد أولاً عند قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ ثم يتكرر في هذه الآية الكريمة ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ ليفيد التذكير والتعظيم لذلك اليوم الذي لا تنفع فيه شفاعة أحدٍ إلا بشرطين: الأول: إذن الرحمن الرحيم ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أي: من سمح ووافق له الرحمن أن يُشفع له. فيقبل الشافع والمشفوع له، فيسمح له بأن يشفع في المشفوع له. والشرط الثاني: أن يرضى الرحمن قول الشافع الذي سيقوله ﴿ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ فيرضى سبحانه وتعالى بقول شفاعة الشافع فيمن يشفع فيه. فمهما كان اهتمام الشافع بالمشفوع له، فلا يمكنه الشفاعة إلا إذا حصل على الإذن من الرحمن الرحيم، ورضي منه القول. مما يدل على منزلة الشافع عند الله تبارك وتعالى، إذ يسمح له فيما يرضاه ربنا تبارك وتعالى. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أي: لا تنفع الشفاعة أحداً إلا شفاعة من أذن له الرحمن ﴿ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ أي: رضي قوله في الشفاعة. وقيل: المعنى: أي إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له. وكان له قول يرضى[٢] فإن الملك لله تعالى.

ومن رحمة الله تبارك وتعالى أنه تكرر ورود اسم الرحمن من بين أسماء الله تعالى كلها في هذا البيان ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ لبيان وإظهار رحمة الله تعالى في ذلك الموقف. فما قرن البيان

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/١٦٨)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/١٦٤)

باسمه الرحمن إلا ورحمته خير ما تكون في ذلك الموقف العظيم، يوم يفصل بين الخلائق، ويقضي فيهم بحكمه العدل، وبرحمته التي سبقت كل شيء. ففي هذا اليوم اقترن اسم الرحمن عند خشوع الأصوات ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ ﴾ وعند الشفاعة ﴿ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴾ وفي هذا لفتة كريمة من الله تعالى لرحمته، وقت اشتداد الموقف على عباده فإنه أرحم الراحمين.

فإنه سبحانه وتعالى يعلم حقائق عباده فرداً فرداً ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴾ فيعلم شأن وأمر عباده ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ ما بين أيديهم من أمر الساعة، وما هم مقبلين عليه من شأن الآخرة، ومما سيصيرون إليه من ثواب، أو عقاب ﴿ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾ مما كان منهم من أمر الدنيا، مما خلَّفوه وراءهم من شأن دنياهم. فأحاط بهم إحاطة كاملة تامة. وأما العباد فلا يحيطون بالله تعالى علماً ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴾ فلا يُحيط خلقه به علماً سبحانه وتعالى، فهو أحاط بعباده علماً، وهم لا يحيطون به علماً. وفي هذا بيان لعظمة الله تعالى، وعظمة علمه، وقصور علم العباد، حيث يلزمهم هذا القصور أن يُذعِنُوا لعَلَّام الغيوب، الذي أحاط بهم علماً وقدرة، حتى استوفى علمه سبحانه وتعالى ماضيهم وحاضرهم مستقبلهم، وما يكون منهم قبل أن يكون.

﴿ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾ ﴾

ويستمر البيان في إيضاح مشاهد يوم القيامة، وحال الناس في ذلك اليوم العظيم، والمشهد الرهيب الجليل، فقال تعالى واصفاً حال الناس ذلك اليوم ﴿ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴾ فذلت وخضعت الوجوه لربها الحي القيوم. فامتداداً لخشوع الأصوات للرحمن ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة، فإنه كذلك هو مظهر وحال وجوه العباد، فقد كساها العنت الذي هو الذل والخضوع ﴿ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ ﴾ فإنه يكسو وجوه العباد الخضوع والذل والمسكنة لخالقها الرحمن الرحيم. حيث يُعطي

هذا الوصف من العنت للوجوه كمال الخضوع الذي اتصف بالخشوع والذل والاستسلام المطلق، وكما ظهر الخشوع في الصوت، فكذلك ظهر كمال الذل والاستسلام على وجوه الخلائق ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ وهذا الانكسار الذي اكتست به الوجوه هو إجلال وتعظيم وتقديس لله تعالى.

فإن ذلك العنت هو ﴿ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ لله تبارك وتعالى، الحي الذي لا يموت، المتصف بالبقاء الدائم الذي لا فناء له أبداً، وكذلك القائم على شأن خلقه ﴿ ٱلْقَيُّومِ ﴾ القائم على عباده وما خلق من المخلوقات. وفي اختيار الحي القيوم في هذا المقام، ما يُشعر بأن الإنسان يموت، ويفنى، ويُبعث، والذي يبعثك ويقوم بأمرك هو ربك المتصف بالحياة الأبدية التي لا موت فيها، والقائم على أمرك كله، من الخلق والإيجاد والرزق، ثم الموت ثم البعث والنشور بعد الموت، ثم الحساب والجزاء. فهو إيقاظ لحواس الإنسان بأن يفهم جلال ربه تبارك وتعالى، وعظيم مقامه وقدرته جَلَّ في علاه، فيدرك ضعفه وضعف جنسه، وذله وسكونه أمام خالقه وبارئه.

ثم يبين تبارك وتعالى الذين تكون لهم الخيبة في ذلك اليوم ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ فقد خسر وهلك من حمل في دنياه ظلم الكفر من الشرك والطغيان والفسوق، ومعاندة المرسلين، والتكذيب بالحق ورده وعدم قبوله. فقد خاب وخسر ذلك اليوم الذي يرحم الله تعالى فيه من لم يحمل الظلم، وهم المؤمنون. وهذا هو القِسْمُ الخائب الذي نال بأعماله الخسارة الفادحة التي لا مجال لتعديلها وإصلاحها. وأما القسم الثاني فهم: المؤمنون الذين جمعوا مع إيمانهم العمل الصالح ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ ومن يعمل بالصالحات التي أمر الله تعالى بها، وجمع معها الإيمان الذي أمر عَزَّ وجل به ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ فلا يخاف زيادة في سيئاته خلافاً لما فعل، وهو معنى ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا ﴾ فتضمن البيان نفي تحصيل أي نوع من أنواع الظلم، وكذلك ﴿ وَلَا هَضْمًا ﴾ أي: ولا يخاف أن تُنقص حسناته وثوابه. فإن الله تعالى يوفي المؤمنين الذين عملوا الصالحات أجورهم كاملة يوم القيامة، من غير أن يحصل لهم الظلم بتاتاً، سواء بزيادة سيئاتهم، أو بإنقاص حسناتهم.

ومن دقائق السياق الكريم أن جعل سبحانه وتعالى الإيمان شرطاً لقبول الأعمال الصالحات، بأسلوب أن جعلها قسيمان مترابطان لا يفترقان لتحصيل الموعود به من الخير ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ يعمل من الصالحات وهو مؤمن. فلا بد أن يكون مؤمناً عند عمل الصالحات. مما يفيد أن الإيمان وعمل الصالحات قسيمان لا يفترقان للمبشرين بتحصيل الأجر والمثوبة الكاملة التي لا تنقص، وأن لا يخافوا من

زيادة في السيئات، ولا إنقاص من الحسنات، مما يفيد بأن عليكم يا من آمنتم بعمل الطاعات، واجتناب المنهيات. كما أن في ورود العمل بصيغة المضارع ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ما يفيد الاستمرار في عمل الصالحات وعدم الانقطاع عنها حتى يتوفاه الله تعالى، وهو محقق معها الإيمان بما أمر الله تعالى به. وكذلك من دقائق البيان أن الخوف عادة ما يكون مما هو قادم ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ فنفى عنه حصول الخوف من الظلم والهضم، لتتحقق الطمأنينة في قلوب المؤمنين مما هو قادم. فورد بيانه بصيغة المضارع، المنفي ﴿فَلَا﴾ فلا تجعل الخوف يسايرك طالما أنك التزمت بما أمرك ربك تبارك وتعالى.

وكما بينا وأوضحنا في هذه السورة من البيان الشامل المبين، ورغبنا أهل الإيمان بعاقبة الخير المنفي عنه الظلم، وحذرنا أهل الكفر من الاستمرار في كفرهم ومعاصيهم، كذلك أنزلنا هذا القرآن بلسان عربي مبين ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ فكما حثثنا ورغبنا أهل الإيمان بالجد في عمل الصالحات، وحذرنا أهل الكفر من عنادهم ومعاصيهم فقد أنزلنا القرآن عربياً، وفصلنا فيه بالتنويع والتكثير من الوعيد، المتضمن للتخويف والتهديد، والثواب والعقاب، لعلهم بذلك يتقون الله تعالى، فيعملوا بالطاعات، ويجتنوا المنهيات، أو يُحدث لهم هذا القرآن وما فيه من التصريف من الوعيد ما يتذكرون به الحقائق، وما تستنهض به الفطرة السوية، فيكون لهم ذلك موعظة من الجد والورع.

وقد ابتدأت الآية الكريمة باسم الإشارة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أنزلنا عليك ما سبق من الآيات المشتملة على التحذير والوعيد، والاطماع والترغيب كذلك أنزلنا عليك أيها النبي صلى الله عليه وسلم هذا القرآن ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ وخصه وسماه الله سبحانه وتعالى بنوع اللسان الذي أنزل به ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ ليفيد المدح والثناء. فهو بلسانك العربي، وباللغة العربية، ليعطي ويبين منزلة التكريم للنبي عليه الصلاة والسلام، ولهذه اللغة العربية الممدوحة بهذا القرآن العظيم الذي نزل بها. وفيه تكريم للسان العربي، الذي يلزم بهذا الشرف والتشريف العناية بهذه اللغة التي تشرفت بأن نزل القرآن الكريم بها.

ثم أظهر سبحانه وتعالى مميزات كتابه القرآن الكريم بأنه مليء بما يعظ الإنسان، ويهديه إلى الحق، فقال عَزَّ وجل ﴿وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ﴾ وصرفنا بالتنويع والتعدد ما يحمل الإنسان على الإيمان والطاعة لله تعالى. والتصريف يتضمن التنوع والتعدد في البيان من الترغيب والترهيب، والتخويف والتهديد، والقصص، وضرب الأمثال، والمواعظ، بما يحث على التأمل والتدبر في كيف تنوعت فيه الحجج والبراهين، وكيف كان تصريفها بأنواع وأوجه التصريف المتعددة، التي يتجلى منها عظمة هذا القرآن الكريم، وأنه معجزة خالدة. ومع جميع تلك البراهين وتعدد تصريفها وبيانها إلا أن أكثر الناس معرضين عنها.

مما يبين ويفيد أهمية التفكر والتفهم في آيات الله تعالى، وفي منهج تصريف الله عَزَّ وجل لها، ليدرك الإنسان عامة، والمؤمن خاصة حكمة الله تعالى وحججه وبراهينه التي لا يحيد عنها إلا مكابر وزاهد عنها. كما يفيد هذا أهمية تصريف الأمثلة والبيان والشرح عند التعليم، فإنه أدعى للفهم والفقه، وبيان المعرفة وترسيخها.

وكذلك في قوله تعالى ﴿ وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ ﴾ ما يثير التعجب من كثرة وقوة الآيات والحجج، مع قوة تصريفها بالتنوع في البيان، وعرضها بأوجه مختلفة، فلامست الواقع والحاجات، التي تستقطب العباد إلى عبادة رب العباد. ففي القرآن العظيم تفصيل الآيات بالبيان، كما هو التصريف بالآيات في الآفاق والأنفس التي يحيل القرآن إليها للتدبر والتفكر والتأمل في عظيم دلالتها على لحق المبين.

وكل هذا التفصيل من الله تعالى لعباده من أجل أن تتحقق لهم التقوى، أو يتعظوا به فيتقوا ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴾ لعله يحصل بهذا التصريف من الوعيد ما تتحقق به التقوى من العباد، مما يبين أن مراد الله تعالى من عباده هو طاعته، وتحقيق الفوز بجناته، وليس مقصده ولا مراده تعذيبهم وهلكتهم، فهو أرحم الراحمين، ولكن هو استيفاء العدل مع عباده في الحساب والجزاء، ولكل امرئ ما اكتسب، وكلمة ﴿ لَعَلَّهُمۡ ﴾ تفيد استحثاث واطماع العباد بتحقيق التقوى، وليكون منكم الرجاء والإشفاق على أنفسكم.

وذُكِرت التقوى في قوله تعالى ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ ولم يُذكر الإيمان والعمل الصالح، لأن حالة التقوى إذا تحققت في العبد، فقد تحقق فيها الإيمان والعمل الصالح. لأن التقوى متضمنة للإيمان، وعمل الصالحات. كما أن تحققها يرتكز على قوتين: قوة الخوف من معصية الله تعالى التي تمنعه من المعصية والتقصير. وقوة الرجاء فيما عند الله تعالى من الخير، والتي تدفعه إلى البعد عن المعصية، ومتابعة الحسنة، بتحقيق الطاعة. فيتحقق بها كمال الإيمان، والحرص على كمال الطاعة والامتثال بعمل الصالحات. ثم لما أن الله تعالى عالم بقوة الإرادة وضعفها عند عباده، أورد جَلَّ جلاله الأمل لهم بتحققها من خلال هذا القرآن الذي هو بين أيديهم ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴾ فإن لم يباشروا الإيمان بما سمعوه من الحق فلعله ﴿ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴾ يتحقق لهم بهذا القرآن ما يُذكرهم بالحق والحقائق، فيتوبون ويؤبون إلى ربهم تبارك وتعالى. فإن القرآن كتاب اعتبار، إذ يتذكرون به ما حل بالأمم من قبلهم فيعتبروا بذلك، ويذكرهم بالمصير، ويذكرهم بالجنة والنار، ويذكرهم بسرعة زوال الدنيا، ويذكرهم بالحياة والموت، والبعث والنشور، وبآياته المبثوثة في الكون، وفي أنفسهم.

ثم يخبر الله تعالى بعظمته وجلاله ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ فإنه تعالى وتقدس ربكم سبحانه وتعالى عن كل ما لا يليق

به ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾ فتعالى الموصوف بالألوهية، الذي لا يؤله غيره من دونه، وكل شيء هو دونه عَزَّ في علاه، وهو ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ الذي مَلَكَ كل شيء خلقه، فله كمال الملك وتمامه وحده لا شريك له عَزَّ وجل، وهو الذي يهب الملك لمن يشاء، وينزعه ممن يشاء. وربكم هو ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ المنزه والمقدس عن كل باطل، والتي منها الشريك والولد، وهو الذي خَلْقُهُ وتَدْبِيرُه كُلُّهُ حق، ومنزه من العبث والسفه وجميع أنواع الباطل، فإنه الحق الذي يَبْطُلُ كل باطل. وصفة ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ تعني أنه المتصف بالحق في ذاته وأسمائه وصفاته، وتدبيره وتشريعه، وأحكامه، وفصله وقضائه، ووعده ووعيده، وكل شيء منه حق.

ثم يوجه ويُرشد سبحانه وتعالى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم حيال تشوقه وتلهفه على القرآن العظيم عندما ينزل عليه جبريل عليه السلام بالقرآن الكريم ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾ فلا تعجل أيها الرسول عند تلقيك القرآن من جبريل، فتسابقه قبل أن ينتهي منه، خشية أن تنساه، ورغبة في التأكد من حفظك لما أنزله عليك ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾ فلا تبادر وتستعجل على جبريل قبل أن ينقضي وينتهي مما أوحاه إليك. مما يفيد اطمئن على حفظك وإتقانك لما نَزَلَ عليك من القرآن الكريم، فإن الله تعالى هو الذي يجمعه ويثبته في فؤادك، ومن بعد إبلاغك به بَلِّغ به غَيَرك. مما يفيد أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان يتلهف للقرآن العظيم، وشدة محبته لكلام الله تبارك وتعالى، وحرصه على العلم، وإتقانه وإجادته على أكمل وجه. فأرشد الله تبارك وتعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى سؤال الله تعالى زيادة العلم على ما علمه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ فقل يا محمد سائلاً وداعياً ربك تبارك وتعالى أن يزيدك علماً. مما يبين فضل العلم، ومنزلته الرفيعة، وأن العلم من الله تعالى، يعطيه من يشاء بحكمته، وأن الله جَلَّ جلاله هو الذي يهب العلم، وأن على المؤمن أن يطلب من الله تعالى مزيد العلم، كما علم رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ ويفيد هذا كل من له مطلب وحرص على العلم، أن لا يستعجل في طلب العلم استعجالاً يُفَوِّت عليه ما قبله بالاختلاط، بل عليه أن يتريث، وينتقل من مسألة إلى أخرى، بعد اتقانها، كما هو نهج الصحابة رضي الله عنهم مع القرآن الكريم. وفي هذا من الفوائد ما يبين منهجية التعليم والتعلم.

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ
لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ

ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٍ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

ينتقل البيان والسياق الكريم إلى بعض أحداث أبينا آدم عليه السلام. حين نسي ما عهد الله تعالى به إليه ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴾ يخبر الله تعالى بما كان من أبينا آدم عليه السلام، بأنه عَزَّ وجل عهد إلى آدم بأن لا يأكل من الشجرة ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ ﴾ والعهد من الله تعالى الأمر والوصية لآدم ﴿مِن قَبۡلُ ﴾ من قبل أن يأكل من الشجرة، لأنه نُهي عنها، وقد علل تبارك وتعالى نقض العهد من آدم أنه بسبب نسيانه ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ ﴾ وهذا النسيان يدل على معنيين: الأول: أنه من النسيان. الذي يخالف الذكر، حكاه الماوردي[١] أي: السهو، فلم يتذكر ما تعهد به. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: يحتمل أن يكون آدم عليه السلام في ذلك الوقت مأخوذ بالنسيان، وإن كان عَنَّا النسيان اليوم مرفوعاً[٢]وقال السعدي رحمه الله تعالى عن آدم عليه السلام: وعهدنا إليه عهداً ليقوم به فالتزمه وأذعن له وانقاد، ومع ذلك نسي ما أُمر به، وانتقصت عزيمته، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعته[٣] والمعنى الثاني للنسيان: أنه الترك، قاله ابن عباس، ومجاهد، والمعنى ترك ما أمر به[٤]كما جاء في قوله تعالى عن المنافقين في سورة التوبة ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ تركوا الله تعالى، فتركهم. والمقصود بالنسيان هنا هي دلالة الترك: وهو الترك الذي ذكره ابن عباس ومجاهد. لأن إبليس عليه لعنة الله وسوس له، وزيَّن له الأَكل من الشجرة، وطَمَّعه بأنه يحصل على مُلْكٍ لا يبلى كما سيأتي. مما يفيد أن إبليس عرف مواطن الضعف في هذا الإنسان، وهو الإغراء والاطماع له، وأن الإنسان متشوف للبقاء، ومتشوف لسعة ما يملك، وهي قوة مؤثرة

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٢٦)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/١٦٦-١٦٧)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٢٥٥)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٢٦)

في متابعة الإنسان لها، ولذلك قد يخالف منهج الله تعالى سعياً وراء شهواته. مما يُوجب على الإنسان الحذر، ولا يجعل من ذلك فتنة له عن طاعة الله تعالى، وأنه يجب عليه لزوم منهج ربه جَلَّ في علاه، والصبر على ذلك. فإن النار حُفت بالشهوات، والجنة حُفت بالمكاره.

ومن دقائق السياق وبراعة البيان أن العهد المذكور في الآية لآدم عليه السلام ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ ﴾ لم يتناول ما هيه العهد، فَحُذِف المعهود، وهو النهي عن الأكل من الشجرة المحددة المعينة، لأن الله تعالى قد بينه فيما بعد، أثناء سرد مجريات حكاية آدم عليه السلام، وكذلك لإظهار عموم النقض للعهد وإبرازه دون اشغال ذهن الْمُخَاطب بالأكل من الشجرة، فظهر نقض العهد بقوة البروز والظهور في السياق الكريم. وكذلك جملة ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ تأتي بدلالة أخرى دون نقض الدلالة السابقة. أي: عهدنا إلى آدم من قبل أن يأكل من الشجرة. قال القرطبي رحمه الله تعالى: ومعنى ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل أن يأكل من الشجرة، لأنه نُهِي عنها[١] فأعطت دلالة النص معنيين، وكلاهما واقع، ولا تعارض بينهما، وهو أن الله سبحانه وتعالى عهد إلى آدم قبل أن يأكل من الشجرة، وحذره من إبليس، وكذلك تأتي بمعنى أن مخالفة آدم قبل هؤلاء من ذريته الذين لم يتعظوا بالقرآن الذي صَرَّفْنَا لهم فيه من الوعيد، وهو الذي عليه المفسرون في الغالب. بأن ذريته تطبعوا بما ظهر من آدم عليه السلام. وهذا من الإعجاز البلاغي لسياق القرآن الكريم، فيعطي أوجه متعددة، لا تعارض بينها، فيستوفي بالنص الواحد عدداً من الأغراض المتوافقة غير المتعارضة.

وبما يشير إلى أن الذين تركوا الإيمان من الناس هم مماثلين لما حصل من أبيهم آدم عليه السلام. وهم أولئك الذين صَرَّف الله تعالى لهم الوعيد في القرآن الكريم، وهم المذكورين في قوله عَزَّ وجل ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ فيحثهم ربنا تبارك وتعالى ويطمعهم في التقوى. بما يفيد إن كان قد نقض هؤلاء العهد فقد سبقهم أبوهم آدم.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بالمزيد عن حال آدم عليه السلام ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ أي: لم نجد له صبراً عن أكل الشجرة، والمواظبة على التزام ما أمر به، وتعهد به. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: وأصل العزم اعتقاد القلب على الشيء. يقال: عزَم فلان على كذا، إذا اعتقد عليه ونواه، ومن اعتقاد القلب حفظ الشيء، ومنه الصبر على الشيء[٢] فالعزم هو توطين النفس على الفعل، أو الامتناع عن الفعل، وعدم التردد فيه. مما

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/١٦٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/١٨٥)

يتطلب مغالبة النفس، وما يعتريها من الاندفاع، وتزيين الشيطان للمعاصي. وهذا يدل على أن هذه من الطبائع البشرية، التي يجب توقيها بالحزم والعزم في الأمر فعلاً إن كان خيراً، وامتناعاً إن كان معصية وشراً. ففي البيان ما يوجه العباد على أن عدم العزم على الرشد وتفويته ينحدر بالإنسان إلى الانحطاط، ويهوي به في المعاصي، وتحصيل الخسارة والندامة، كما حصل مع أبينا آدم، حيث كان إخلال العزم سبب منه في إخراجه من الجنة. فنسأل الله تعالى العزيمة في الرشد.

ثم يوجه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالتذكير والتعليم والتأمل لفعل إبليس مع آدم عليه السلام لَمَّا أمر الله تعالى الملائكة أن تسجد لآدم حين خلقه، وهو انتقال إلى تفاصيل العداوة لآدم من إبليس ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ فيا أيها النبي والمؤمنون تبع له صلى الله عليه وسلم، اذكروا ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ حين أمرنا الملائكة أن تسجد لآدم سجود تكريم ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ وهو فعل أمر يقتضي الوجوب، اسجدوا لآدم سجود تكريم، لا سجود عبادة، ولله تعالى أن يختص بالتفضيل من يشاء على من يشاء من عباده، فليس للمخلوق حق الاعتراض. وفي دلالة قوله تعالى ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ ما يفيد الوجوب اللازم الذي لا مناص ولا عذر لهم منه، كما يدل على سرعة التنفيذ المباشر. مع بيان أن القائل هو الخالق جَلَّ جلاله ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ وهنا أطاعت الملائكة ﴿ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ امتثالاً وطاعة، من غير سؤال عن علة السجود، وهذا غاية الطاعة والامتثال التي تمثلت بها الملائكة عليهم السلام. مما يبين مكانة الإنسان عند الله تعالى، إذ أمر الملائكة أن تسجد لأبيهم آدم عليه السلام، إكراماً له وعبودية لله تعالى، لأن طاعة الله تعالى فيما يأمر به عبادة له جَلّ جلاله. كما يفيد هذا الامتثال من الملائكة كمال الطاعة لأمر ربهم دون أي اعتراض أو سؤال واستفهام. فهم يفعلون ما يؤمرون، بما يؤكد أهمية الطاعة لله تعالى دون سؤال أو احتجاج عقلي، وبما يفيد ويؤكد وجوب تقديم النقل عن الله تعالى على العقل. لكمال النقل عن الله تعالى وقصور العقل. فأطاعت الملائكة عليهم السلام أمر ربهم تبارك وتعالى، وأما إبليس فامتنع عليه لعنة الله ﴿ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ فامتنع إبليس عن السجود استكباراً، واستعلاء. وكان امتناعه من غير تردد، على نقيض الملائكة التي سجدت من غير تردد، فهو المستثنى من الساجدين.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما أخبر وأعلم به آدم عن هذا العدو الذي هو إبليس ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ فقد قال جَلَّ جلاله منادياً عبده آدم

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ﴾ إنه نداء، يستوجب الانتباه لما بعده من البيان والإيضاح ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ فهذا المشار إليه هو إبليس، فإنه متصف بالعداوة لك، وأيضاً لزوجك، مما يتطلب منك الحذر منه. ثم بين له هدف إبليس الأول: وهو إخراجك وزوجك من الجنة ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ فلا تجعله يحقق مراده وهدفه فيكما، فيخرجكما من الجنة. فإنك إن خرجت منها حل بك الشقاء ﴿ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ مما يبين أنه لا شقاء في الجنة، بل نعيم دائم لا ينقطع، وإنك إن خرجت منها، فسوف تخرج إلى دار الشقاء، لما فيها من التعب والنصب، وطلب العيش والرزق والمسكن، مع وجود الأعداء، وما يتطلب ذلك من أمور لا حصر لها. وفي هذا تنبيه وتحذير لآدم من شر إبليس ومراده لك ولزوجك من الشقاء، فاحذر من طاعته، فإن طاعته توجب غضب الله تبارك وتعالى، وأنه لن يَدُلَّك على شيء إلا هو شر لك. وقد أسند وأحال سبحانه وتعالى الإخراج إلى إبليس، باعتبار أنه المتسبب في ذلك ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ وذلك بالإغراء والتزيين.

وفي إفراد آدم بالشقاء دون زوجته ﴿ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ ما يفيد أنه هو الْمُخَاطَب، وهو المعني بقيادة زوجته، فهو الذي يشقى بطلب العيش والرزق له ولها، وهو الذي يسير بها، فهو صاحب المسؤولية. مما يفيد أن الزوج هو المسؤول عن زوجته، وهو المؤثر عليها، وهي المصاحبة له. قال القرطبي رحمه الله تعالى: وإنما خصَّه بذكر الشقاء، ولم يقل: فتشقيان، يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج، فلما كانت نفقة حواء على آدم، كذلك نفقت بناتها على بني آدم بحق الزوجية[١] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وأُسنِد ترتيب الشقاء إلى آدم خاصة دون زوجه، إيجازاً، لأن في شقاء أحد الزوجين شقاء الآخر، لتلازمهما في الكون، مع الإيماء إلى أن شقاء الذكر أصل شقاء المرأة[٢] وكل هذا من فوائد السياق الذي يبين أن مبنى كل لفظة في القرآن الكريم له إعجاز في دلالته، وفي سياقه، وفي موقعه، وتركيبه ونظمه.

ثم ذكر الله تبارك وتعالى لعبده آدم خصائص الجنة التي تستوجب عدم طاعة عدوه إبليس، والحذر منه ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ فإن لك في الجنة كمال المعيشة، وكمال الستر، والذي لا يكون في غير الجنة. وكذلك خص هنا آدم بالخطاب سبحانه وتعالى، باعتباره المكلف بشأن زوجته، ومن ذلك أمر المعيشة، والكسوة من الملابس الساترة. فإن لك فيما أنت فيه من الجنة، ألا يحصل لك ولزوجك الجوع أبداً

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/١٦٨)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧/٢١٠)

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا ﴾ بما يفيد بالمقابل أنك ستجوع إن خرجت منها، فإن الجنة لا موطن للجوع فيها، ولن تعرفه أبداً في رحابها، وكذلك من خصائص نعيمها ﴿ وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ فلن يحصل لك الحاجة أن تبحث عما يسترك من الملابس، فأنت في كساء لا تعرى أبداً. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: إنما قرن بين الجوع والعري، لأن الجوع ذُل الباطن، والعُري ذُل الظاهر(١) مما يفيد أن العري ليس من خصائص أهل الجنة، وأن التعري في الدنيا مخالف للطبيعة الإنسانية التي فطر الله تعالى الناس عليها.

ومن نعيم وخصائص الجنة التي تستوجب الحذر من إبليس، أنك لا تعطش في الجنة أبداً، وأيضاً لا يصيبك حَرٌّ ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ فلا يصيبك الظمأ فتعطش، ولا تصيبك حرارة الشمس بحرها، فتؤذيك، فلن يحصل لك منها ما تكره، فأنت في ظل ممدود. وذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أن الظمأ هو: العطش ﴿ وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ أي: تبرز للشمس فتجد حرها، إذ ليس في الجنة شمس، إنما هو ظل ممدود، كما بَيْنَ طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، قال أبو العالية: نهار الجنة هكذا (٢) ومن دقائق مقابلة الظمأ والحر، ما ذكره الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى، حيث قال: وهذان أيضاً متقابلان. فالظمأ: حر البطن، وهو العطش. والضحى: حر الظاهر(٣) وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: الشبع والري والكسوة والْكَن، أي السكن: وهي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان...وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي: الجوع والعري والظمأ والضحو، ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقاء الذي حذره منها، حتى يتحامى السبب الْمُوقِع فيها، كراهة لها(٤) فهذا من جمال المقابلة، وجمال الترتيب، وجمال السياق، وعذوبة الألفاظ. مقترنة بوصف نعمة الجنة التي يتمناها كل مؤمن ومؤمنة، فسبحان الله العظيم.

ثم يخبر الله تعالى بما كان من أمر الشيطان مع آدم وزوجته ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ فموه الشيطان على آدم، بالخاطرة السيئة، المشتملة على معصية ما نهاهما تبارك وتعالى عنه، وخدعه بأسلوبه الشيطاني، فأغراه بالمستقبل، حتى يخرجهما عن النعمة التي ينعمون بها، ومنها نعمة ستر العورة. وقد ورد في سورة الأعراف بالتثنية، لآدم وزوجته ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ بينما في سورة طه ورد بإفراد آدم عليه

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٧٦/٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٨/١١)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٧٦/٣)

(٤) الزمخشري، الكشاف (٩١/٣)

السلام ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ وذلك باعتبار السياق أنه لآدم عليه السلام، فهو القائم على أمره، وأمر زوجته، وأنه المتولي للمسؤولية.

ثم يخبر الله تعالى بما أغوى الشيطان به آدم عليه السلام ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ هل أدلك على شجرة إن أكلت منها حصلت على الخلود والملك الذي لا ينقضي ولا ينقطع ولا ينتهي. فجاء بصورة الناصح المشفق الأمين الذي يريد له الخير. ليحصل الغرور بما وعده به. فقد أغرهما بالقسم، فانخدعا بذلك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: غرَّهُمَا باليمين، وكان آدم لا يظن أن أحداً يحلف بالله كاذباً[١] ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ فذاقا آدم وحواء ثمر الشجرة. فكان أول نتيجة تلك المعصية أنه انكشفت سوءاتهما، فكان حدثاً عظيماً لهما، وتأثرا تأثراً بالغاً، فجعل كل واحد منهما يسارع في التقاط أوراق شجر الجنة، فيضع ورقة فوق أخرى على عورته، ليستتر بها. مما يدل على فطرية الحياء، وأن الأصل الْجِبِلِّي للإنسان أنه يستحي أن يرى أحدٌ عورته، وذكر الطبري رحمه الله تعالى: أنه بعد انكشاف عورته، أخذ يجري في الجنة، فناداه الله تعالى: أتفر مني، فقال: لا، ولكني استحييك يا ربِّ[٢]

فعندما أغراهما الشيطان كَذِباً وزوراً أكلا منها ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾ فأكل الزوج والزوجة من تلك الشجرة التي نهاهما الله تعالى أن يأكلا منها، مما يدل على أن مكر الشيطان غلب عليه، واختل توازن إرادته أمام ضعفه ورغبته، فظهرت العقوبة مباشرة ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ فكان ذلك الأمر حدثاً عظيماً لهما، إذ انبعث مع ظهور عورتيهما شدة الحياء، ولذلك تسمى العورة سوأة لأن صاحبها يستاء من انكشافها، إذ يلحقه السوء والخجل والحزن العظيم من كشفها ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ فشرعا في جمع ورق شجر الجنة، ويلصقانه ويشدانه على عورتيهما ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وخالف أمر ربه، فتعدى إلى ما لم يكن له أن يتعدى إليه من الأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها[٣]

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٢٢/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١١/١٠)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩٠/١٦)

ثم يخبر تبارك وتعالى بعفوه عن آدم وزجه ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ فاصطفاه واختاره ربه تبارك وتعالى بأن اجتباه ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ ﴾ أي: اختاره وقربه بما أنعم عليه، ثم زاده تكريماً وحفاوة بأن تاب عليه ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ وايضاً هداه ﴿ وَهَدَىٰ ﴾ فلحقته مكارم ورحمة الله تعالى واحدة بعد الأخرى. مما يدل على عظيم رحمة الله تعالى وكرمه بآدم عليه السلام. وذلك أن آدم وزوجته اعترفا بما كان منهما من الخطأ، وطلبا من الله تعالى المغفرة، كما ورد في سورة الأعراف، وهو قوله تعالى حكاية عنهما ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ مما يبين أن هذا الاجتباء، وهذه التوبة والهداية من الله تعالى رحمة بهما، وقبولاً لتوبتهما عما وقع منهما. مما يبين ويفيد عظمة رحمة الله تعالى لمن تاب من ذنبه، حيث تجاوز بهما إلى أن هداهما بعد أن اصطفاهما وتاب عليهما، وليس هناك أعظم من الهداية التي تجعل العبد يسير في طاعة الله تعالى، متجنباً للمعاصي والآثام. فجعل لهما حياة على الأرض بأنواع النعم.

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ
فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا
فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ
وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى
ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾

يخبر الله تعالى أنه بعد أن اجتبى آدم وتاب عليه وهداه هو وزجته أمرهما بالنزول إلى الأرض ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ فقال ربنا تبارك وتعالى لآدم وإبليس، وحواء تبعاً لزوجها، باعتبار أنه هو المخاطب، وهي تبع لزوجها ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ﴾ اهبطا من الجنة إلى الأرض، أي: اهبط يا أدم أنت وإبليس من الجنة إلى الأرض، بعضكم لبعض عدو ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ فأنت يا آدم، وأنت يا إبليس بعضكم لبعض عدو، أي: فأصبحت العداوة متبادلة بينهم. وتصبح الذرية كذلك، لأن الخطاب قد ورد بأسلوب

الجمع ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ بينما في النزول من الجنة إلى الأرض ورد الأمر بالتثنية، باعتبار آدم وإبليس، فتكون حواء تابعة لزوجها. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً، أي: من الجنة كلكم[1] مما يبين دقة الكلمات، ودقة دلالتها. كما هو سياق القرآن الكريم ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ استمرار العداوة بين ذرية آدم وبين إبليس وذريته، وفي هذا الإخبار من الله تعالى ما يفيد تحذير بني آدم من عداوة وغواية إبليس وذريته، وأن عليكم أيها الناس أن تتخذوه عدواً لكم، بالحذر منه، ومدافعة شره.

ثم يخبر الله تعالى بما سيكون منه عَزَّ وجل من العناية لهم في الأرض ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ فإما يأتيكم مني ما تهتدون به، وهم المرسلون وما معهم من الكتب ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ فمن اتبع الهدى الذي يأتيكم به المرسلون من الله العزيز الحكيم، وما ينزل معهم من الكتب فإن من اتبع هدى الله تعالى فلن يضل ولن يشقى أبداً ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ فمن لزم هداي فلن يحصل له ضلال أبداً في الدنيا، ولن يصيبه الشقاء بالعذاب في الآخرة. لأن الله سبحانه وتعالى سيدخله الجنة، وينجيه من عذاب النار. قال ابن عباس رضي الله عنهما: من قرأ القرآن، واتبع ما فيه، هداه الله من الضلالة، ووقاه سوء الحساب، ولقد ضمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية[2] ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ مما يفيد أن من تمسك بهدى الله تبارك وتعالى فإنه في ضمان الله عَزَّ وجل.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن جزاء من أعرض عن عبادته، ليكون ذلك إنذار وإعذار ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ فمن أدبر وصد عن ديني وعن كتابي القرآن العظيم فلم يقبله، متولياً عن رسولي وما معه من الحق. فإن حياته تكون ضيقة عليه، وكذلك قبره ضيق عليه، ويُحشر يوم القيامة أعمى.

وقد جمعت كلمة ﴿أَعۡرَضَ﴾ تجاهل الحق بعد معرفته، فإن دلالة الإعراض تجمع صور وحالات الترك، والصد عنه، والإدبار، وصورة استغناء النفس عما أعرضت عنه، فلم تستجب لما ذَكَّر اللهُ تعالى به،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٧٧/٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢٧/٥-٢٢٨)

وبالتالي لم يتعظ به، فينزجر عما هو عليه من الكفر والمعاصي، ورجح وقدم هواه وغيره عليه، فهي تحمل دلالة عدم الاكتراث، وعدم الاهتمام، وعدم العناية، والصدود، والتجاهل، وعدم الإقبال، فهي ضد الإقبال ودلالاته، مما يدل على بلاغة وقوة معناها.

وأما دلالة كلمة ﴿ ذِكۡرِي ﴾ فقد أفادت مع كلمة الإعراض ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي ﴾ عموم ما يتحقق به ذكر الله عَزَّ وجل، وعلى رأسهم الرسول صلى الله عليه وسلم، والقرآن الكريم، وجميع الآيات والحجج والبراهين، والعبادات والتشريع عموماً. فالذكر يأتي بمعنى عموم العبادة. إذ يجمع العبادات كلها، لأنها ذكر لله تعالى. قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: الذكر طاعة لله، فمن لم يطعه لم يذكره، وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن[١] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: فإن الذكر يقع على سائر العبادات[٢] فالذكر هو انتباه القلب لربه تبارك وتعالى بكمال الطاعة.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن جزاء من أعرض عن دينه عَزَّ وجل ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ فله في الدنيا حياة ضيقة من التعب والنصب، مع الهم والحزن، وعدم انشراح الصدر. فالضنك هو شدة الضيق الذي يجلب الشقاء، وتنتفي به السعادة، فلا يشبع من الدنيا مهما كان عنده من الخير، مع ما يصيبه ويحيط به من الهموم على ما عنده مما يكفيه، وأما ما يتنعم به في الدنيا، فإنه لا يجاوز ظاهرها، أما قلبه فمليء بالضيق والهموم والحزن. وكذلك يكون حاله في قبره، فيضيق عليه ويُحْصَر في عذاب قبره. وقد وردت الأقوال في ذلك على ثلاثة دلالات، لخصها ابن الجوزي رحمه الله تعالى في ثلاثة أوجه: أحدها: القبر. والثاني: الدنيا. والثالث: جهنم[٣] والحقيقة أنها جميعاً مجتمعة في حق من أعرض عن ذكر الله تعالى. مما يفيد أن من تمسك بدين الله تعالى فإنه يعيش حياة سعيدة هنيئة، لما يجده في نفسه من طمأنينة النفس وراحة البال، وإن قل ماله، وضعف حاله، فلا تأثير لها على سعادته، لما وهبه الله تعالى من التوكل عليه عَزَّ وجل، والتسليم له، والقناعة بما عنده، وترقبه لنعيم الجنة، كما قال تعالى في سورة النحل ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧ ﴾ وأما من أعرض عن دين الله تعالى فإنه لا تسعه الدنيا وإن كثر ماله وانبسط له في جاهه، فنفسه خاوية من السعادة. وأما في

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٦/١)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٥٨/٣)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢٨/٥)

الآخرة فيقول تعالى عنه ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ فيحشر يوم القيامة أعمى البصر. ومذهول من هول ما سيكون عليه حاله، فلا رؤية له لشيء يحتج به، فيكون أعمى ببصره، وأعمى في بصيرته.

فقد قيل في دلالة ﴿أَعْمَىٰ﴾ أنه عمى البصر. وقيل: العمى عن الحجة، فكما تجاهل دين الله تعالى، يصبح جاهلاً لسبيله. قال مجاهد رحمه الله تعالى: عمى الحجة[١] وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه: عمى البصر[٢] ويستنتج من ذلك أنه أعمى في بصره، وأعمى في بصيرته. وهو ما رجحه الإمام ابن جرير رحمه الله تعالى، فقال: أنه يُحشر أعمى عن الحجة، ورؤية الأشياء، كما أخبر جَلَّ ثناؤه، فَعَمَّ ولم يُخصص[٣] قال السعدي رحمه الله تعالى: البصر على الصحيح[٤] فإن من عَمِي عن نِعَم الله من الدين والحجج والبراهين والآيات في الدنيا، فهو عن نعيم الآخرة أعمى. ومن كان في هذه الدنيا كافراً، وأعمى عن الحق، كان كذلك في الآخرة أعمى. فالجزاء من جنس العمل.

ولذلك يتساءل هذا الكافر عن علة حشره يوم المحشر أعمى، وقد كان في الدنيا بصيرا، مما يرجح دلالة فقدان البصر ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ فهو سؤال عن الحالة والألم الذي تمكن منه بفقده لبصره، فهو يقيس حاله في الآخرة على حاله في الدنيا، فما الأمر الذي صيرني إلى هذه الحال من فقدان البصر، فيأتيه الجواب مباشرة ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ فبدأت الآية الكريمة بالإشارة إلى حال هذا المستنكر في الدنيا، حيث قد تعامى وتغافل عن الحق في الدنيا فجاءه الجواب بما يستحق ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ فالأمر كذلك ﴿أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ فتركت آياتنا من الحجج والبراهين، وتجاهلتها معرضاً عنها، وكأنك في نسيان لها ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ فجزاؤك اليوم بمثله، فنتركك اليوم في النار والعذاب المهين. فالجزاء من جنس العمل.

فقد رَدَّ الله تبارك وتعالى عليه بجواب قد تجاوز عين السؤال الذي هو العمى إلى ما هو أعظم وأطم على الكافر، وهو الترك، والتجاهل له، ليذهب إلى جهنم وبئس المصير. بل ومن دقائق الخطاب أن ورد ذكر القائل بصيغة لم يُذكر فيه من هو ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ فالقائل له هو الله سبحانه وتعالى، ولكن بأسلوب الترفع

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٢٠٠)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٢٩)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٢٠٠)

(٤) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٢٥٨)

والتجاهل لذكر اسم الله تعالى، فلم يقل سبحانه وتعالى: قال الله، أو قال له ربه بل ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ﴾ تحقيراً له وتجاهلاً لمن تجاهل رسل الله وكتبه.

ثم يؤكد الله سبحانه وتعالى الجزاء الذي يلقاه من تعدى حدوده، مرتكباً للمحرمات، متجاوزاً هدي ربه سبحانه وتعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ وبمثل ما جزينا من أعرض عن ذكرنا، وترك من ترك ديننا فإنه كذلك نجازي من أشرك وكفر ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ﴾ وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا، فبمثل ذلك الجزاء الأليم نجازي ﴿ مَنْ أَسْرَفَ ﴾ بتطاوله في فعل الفسوق والمنكرات، فالإسراف هو المبالغة والتجاوز ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ﴾ ولم يصدق بالحجج والبراهين التي جاءته على أيدي المرسلين، وكذب بها، واستنكرها ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ وإن عذاب الآخرة أشد في قوته وتأثيره، وبقائه مما كان عليه الكافر من معيشة الضنك التي كانت له في الدنيا، وفي عذاب القبر، فإن حياة الضنك التي في الدنيا تنقطع وتنتهي بالبعث والنشور، وأما الذي في الآخرة فهو أشد، ولا ينقطع أبداً، فليس له نهاية.

ثم يتوجه إليهم بالسؤال الاستنكاري التوبيخي، الذي يقررهم ويدعوهم إلى لوم أنفسهم على ما هم فيه من النكال ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ أفلم يكن لهم فيمن أهلكناهم من قبلهم من الأمم ما يدعوهم إلى الهداية. سؤال استنكار وتوبيخ عن عدم الاستبصار في الحق واتباعه، والتمادي في الباطل ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَـٰكِنِهِمْ ﴾ أفلم يتبين لهم ممن عَرَّفْنَاهُم به، ممن سبقوهم من الأمم الذين كانوا يمشون آمنين في مطارحهم ثم أخذهم العذاب والنكال، أليس في ذلك ما يدفعهم إلى الإيمان ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَـٰكِنِهِمْ ﴾ فبالرغم مما كانوا فيه من الأمن والرخاء في سعيهم وفي مساكنهم إلا أن الهلاك قد حَلَّ بهم لكفرهم، وعدم قبولهم الحق الذي جاء به المرسلون. فبالرغم من ذلك الأمن والاستقرار والرخاء، والعيشة الهانئة إلا أنه لم يمنعهم ذلك من الهلاك بالعذاب الذي حل بهم من الله تعالى. فإن الأمن والرخاء لا يمنع أن يحل العذاب بمن كفر. وأن الرخاء ليس حاجباً ولا دليلاً على أنهم في رضاً من الله تعالى، فإن الله يستدرج المعاند حتى يهلكه بعمله الذي يأمن فيه، ويلهو ويفرح به.

ثم يعلل سبحانه وتعالى ما أنكره عليهم. فإن في ذلك الذي أخبرناهم به لآيات لأصحاب العقول ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ إن في تلك الحجج والبراهين بما حصل للأمم قبلهم لآيات عظيمة لأصحاب العقول الصحيحة، والفطر السليمة. بما يفيد أنهم لم يستفيدوا من عقولهم التي هي مناط التكليف، بل سعوا خلف شهواتهم، وعنادهم، وكبريائهم، وحسدهم، ولم يلتفتوا للحق الذي جاءهم واضحاً جلياً، ومدعوماً بالحجج والبراهين التي استسلم لها أولي النهى، وتركها السفهاء من الناس. فلا يلومَنَّ كل إنسان إلا نفسه. فحجج الله تعالى بين أيدي العباد، في الآفاق، وفي أنفسهم، وفي كتابه العزيز، وتشريعه الحكيم، وعموم دينه العظيم.

ثم يخبر جَلَّ في علاه حلمه، ورحمته ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: ولولا حكم سبق من الله تعالى بموعد عذابهم، الذي قد سماه عَزَّ وجل في أم الكتاب، وهم بالغوه ومستوفوه، فلولا ذلك لكان لزاماً أن يقع العذاب بهم، فإن العذاب في حقهم لازم لهم من دون تأخير، لكفرهم بالحجج البينة الواضحة، كما لزم الذين من قبلهم من الأمم الماضية. فإن هؤلاء المكذبين بالنبي صلى الله عليه وسلم استوجبوا العذاب، ولكن أخره عنهم سبحانه وتعالى لكلمته التي قضى بإمهالهم إلى أجل مسمى، وهو الذي عَيَّنَه تبارك وتعالى وحدده، ولولا ذلك لكان لزاماً أن يقع بهم ما يستحقون من العذاب، لشدة فجورهم. فإنه جدير بأن يحل على من كذب برسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم ما يستحق من العذاب.

فإن من شدة بغيهم وطغيانهم أنه لولا أن سبق من الله تعالى لقضى عليهم. بإهلاك أهل الباطل، ونجاة أهل الحق من بينهم. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: أي: ولولا كلمة سبقت من ربك يا محمد أن كلَّ من قضَى له أجلاً فإنه لا يخترمه قبل بلوغه أجله ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ يقول: ووقت مُسمًّى عند ربك سماه لهم في أم الكتاب، وخطه فيه، هم بالغوه ومستوفوه ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ يقول: للازمهم الهلاك عاجلاً[(١)] مما يفيد أن الله تعالى لا يؤاخذ أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه، كما يفيد هذا السياق: تعظيم جُرم هؤلاء، وتهويل ما وقعوا فيه من الشرك، حتى أنه اقتضى الأمر إهلاكهم مباشرة لولا أنه سبق من الله تعالى حكماً وقضاء بموعده، الذي قيل أنه يوم بدر، وقيل يوم القيامة. فإن الله تعالى عالم بما سيكون قبل أن يكون، ولكن ليبين ويدل بهذا السياق على هول وعظيم الشرك والكفر عموماً، وأن الجدير بأهل الشرك والكفر هو التعجيل لهم بالعذاب والإهلاك، وليس الإمهال لهم، فالاستحقاق الذي يليق بكفرهم هو استئصالهم بالهلاك والتدمير، ولكن لله تعالى كمال الحكمة فيما سبق من حُكْمِه وحكمته. مما يدل على حلم الله تعالى، وأنه جعل لهذا العالم نظاماً، يساير الأحوال، ويعطي الوقت للإنسان، لعله يعقل، ولعله يرشد، ولعله يتوب، ولا يبادره بما يستحق من الجزاء، فسبحان الله العظيم، والحمد لله رب العالمين على فضله وحلمه.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠٦/١٦)

﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾

لما أوضح تبارك وتعالى أن الكافرين استوجبوا العذاب، ولكن أخره عنهم لكلمته بإمهالهم إلى أجل مسمى، حتى يحين وقته، فلولا تلك الكلمة السابقة من الله بتقرير الأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة، لجاءهم العذاب بغتة، وبالتالي يوجه نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر عليهم ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾ فيأمر الله تبارك وتعالى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بما يجب أن يلتزمه مع المشركين، والكافرين عموماً، لما في ذلك الالتزام من تحقيق مبتغاه ورضاه عليه الصلاة والسلام. فأول ما يلتزم به هو: الصبر ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ فاصبر على ما يقولون من الأقوال في شأنك، وفي شأن دينك، وفي شأن من أسلم معك، فعاملهم بالصبر عليهم، والثبات على ذلك. وثاني ما يلتزم به هو: ذكر الله تعالى ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾ فسبح ربك واحمده، ونزهه عما لا يليق به، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: قال أكثر المتأولين: هذا إشارة إلى الصلوات الخمس ﴿ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ صلاة الصبح ﴿ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا ﴾ صلاة العصر ﴿ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ ﴾ العتمة ﴿ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ المغرب والظهر، لأن الظُّهْرَ في آخر طرف النهار الأول، وأول طرف النهار الآخر، فهي في طرفين منه. والطرف الثالث غروب الشمس، وهو وقت المغرب. وقيل النهار ينقسم قسمين، فَصَلَهُمَا الزوال، ولكل قسم طرفان، فعند الزوال طرفان، الآخر من القسم الأول، والأول من القسم الآخر، فقال عن الطرفين أطرافاً، على نحو ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ

﴿ قُلُوبُكُمَا ﴾ سورة التحريم[١] فيكون الأمر بالتسبيح ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي: فصل لربك، وسُمِّيت بالتسبيح لما فيها من كثرة التسبيح في الركوع والسجود، وكذلك التكبير. وبالتالي فلعلك بهذه الطاعة والصلاة لله تعالى، مع الصبر أن تُعْطَى ما يُرضيك ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ أي: ترضى بما يثيبك الله تعالى به على ذلك.

ومن دقائق البيان ولفتاته ما ذكره ابن عاشور رحمه الله تعالى، قال: ويجوز أن يكون المعنى: لعل في ذلك المقدار الواجب من الصلوات ما ترضي به نفسك دون زيادة في الواجب، رفقاً بك وبأمتك[٢] مما يدل على فضل الصبر، وفضل لزوم الصلوات، وأنها قوة للمؤمن على الخير، وعلى الانتصار على الأعداء، وقد ورد الأمر بها حتى في أثناء القتال في الحروب. كما أن فيها ما يتحقق به فلاح العبد الذي يرضى به في الدنيا والآخرة من الخير.

ويتلو هذا الأمر بالصبر والتسبيح النهي عن الافتتان بزينة الدنيا التي عليها الكفرة من المشركين وغيرهم، ليكون ذلك منهجاً في حياتك وحياة المسلين عموماً، باعتبار أنهم تبع لنبيهم صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ينهى الله تبارك وتعال نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم عن أن يمتد نظر عينه إلى ما رزق الكافرين، ومنحهم عَزَّ وجل من المال والذرية والمكانة والجاه ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ وهو نهي معطوف على ما قبله من الأمر بالصبر والصلاة، ليدل على الترابط بينها جميعاً في تحقيق الطمأنينة والرضا. وفي توجيه النهي للنبي صلى الله عليه وسلم تزهيد لشأن المنهي عنه، وذلك لعواقبه الوخيمة على المؤمن، فإذا كان هذا التوجيه في حق مقام النبي صلى الله عليه وسلم، فيكون في مقام غيره من المؤمنين أعظم وأكثر نهياً وتهويلاً وتعظيماً. وقد تم رفع قوة الخطاب وقوة التوجيه بأن وُجِّه النهي إلى مقام النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن عذوبة البيان ودقته أن أوقع النهي عن الامتداد للنظر، وليس على حصول النظر، فإن حصول النظر واقع لكل ما يمكن مشاهدته أمام عين الإنسان، ولكن ﴿ لَا تَمُدَّنَّ ﴾ تفيد أن لا يمتد النظر ويتطاول، ويستغرق في المداومة، والتأمل بإعجاب ورغبة وتمني لها. وإن كان التوجيه للنبي صلى الله عليه وسلم، فهو نهي لأمته عن الانشغال بما انشغل به الكفار من زينة الدنيا عن الآخرة، مما يفيد ألا يستغرق المؤمن في مراقبة ومتابعة فتن الدنيا، بل يستغرق في أمور الآخرة، فلا يُغَلِّب زينة الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، كما يفيد ذلك

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٢/١١)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٧٢/١١)

التنبيه للمؤمن إلى حدود النظر، وأنه بالاستغراق في المفاتن قد يأخذه عن الحق، ويشغله بما لا نفع فيه، أو يتمنى به ما عند صاحبه، من مال، أو مجد وجاه، أو مكانة ومنزلة.

ويفيد قوله تبارك وتعالى ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ قصر نظر العين عن التطلع والتَّشوُّف، ومنعها من الإعجاب بالمظاهر التي عليها الكفرة، كما يفيد دلالة ﴿ تَمُدَّنَّ ﴾ الزيادة المضطردة لتشوف لعين، التي يحصل منها التعقب والمتابعة للمنظور إليه، وانشغال الذهن به، فهو المتضمن للنظر بالعين نظر إعجاب. بما يفيد وجوب قصر النظر، وإيقافه عن التطلع والتعقب، لأن النظر الأول، والمعرفة الأولى تجر إلى التطاول في النظر، والالتفات إلى المزيد، فيتولد عنها سلسلة من التتابع، فأوجب قصرها عن ذلك، لأن في قصرها ما يُبعدها عن التشوف. وهو أدب ومعالجة للأمة في مساحة النظر التي يجب ألا تمتد، ثم يعقبها التتابع الذي يكون في تقصي لِمَا تراه وما تعلمه، فتنشغل به عن واقعها، ومتطلباتها وأهدافها، وحقيقة حياتها. مما يعلم الإنسان ألا يشتغل بما عند غيره عن أهدافه التي خُلِق من أجلها. ولا يلتفت إلى ما يشغله عنها مما عند غيره، بل ينظر لما هو مطلوب منه.

وأن عليه بأن لا يشغله غيره عن أهدافه ورسالته الحقيقية في الحياة. كما أوقع النهي على إرادة العين ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ فهي مصدر الرؤية، والمشاهدة، والمعاينة للأشياء، وهي الناقلة لصورة ما يُعجِبُ الإنسان، وهي المعبرة عن التشوف والإعجاب والتمني، فأعطى البيان الكريم مساحة كبيرة وواسعة في الدلالة، لتتجاوز بها موقع النظر والمنظور إلى التطلع والتشوف والتمني، والانشغال الفكري بما رأى، فهي غاية في البلاغة البيانية.

وأما موقع النظر فهو ﴿ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ قال مجاهد رحمه الله تعالى: الأغنياء، الأمثال، والأشباه[١] والأزواج: الأصناف، قاله ابن قتيبة رحمه الله تعالى. وقال الجوهري رحمه الله تعالى: الأزواج القرناء، قال الواحدي رحمه الله تعالى: إنما يكون ما دام عينه على الشيء، إذا أدام النظر نحوه، وإدامة النظر إليه تدل على استحسانه وتمنيه[٢] وجملة ﴿ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ تدل على التعدد، والكثرة، والمماثلة المتكررة بينهم، في أصنافهم المتعددة. مما يفيد ألا تطمع فيما أنعم الله تعالى به على غيرك، وتترقبه، وتتشوف له، وتتابعه، فينشغل قلب المؤمن بما ليس له، عما هو له، وعن آخرته بزينة الدنيا. ومن دقائق النص الكريم أن الله

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/١٢٧-١٢٨)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣/١٤٢)

تعالى نسب ما هم فيه من نعمة له عَزَّ وجل ﴿ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ ﴾ فالذي مَتَّعهم هو الله تبارك وتعالى بتلك النِّعَم. ولكن استخدموها في الترفع عن الحق.

وتضمن بيان النهي عن امتداد العين ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ ﴾ بلاغة بيانية عظيمة، فهو أبلغ من النهي عن النظر، فلو كان النهي عن النظر بصيغة: ولا تنظر، فإنه يأتي بمعنى امنع نظرك، وهذا لا يمكن، لأن النظر حاصل من كل أحد لما يمكنه أن ينظر إليه مما هو أمامه، ولكن موطن النهي ليس هو في النظر بل في امتداد النظر، وتطاوله، وتعقبه للمنظور إليه، وإشغال الذهن به، ومن ثم تقصيه بالتتبع البصري، وفي ذلك غاية الإعجاز البياني والإرشادي. كما تضمن النهي على بيان مواطن المنهي عن امتداد العين إليه ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فلا تمتد عينيك إلى ما متع الله تعالى به عباده من المشركين وعموم الكافرين. ليشمل بذلك جميع ما يتمتعون به من زهرة الحياة الدنيا. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه، وذلك مثل نظر من بَادَهُ الشيء بالنظر، ثم غض الطرف[١]

ونسب الله جَلَّ وعَلَى ما يتمتعون به من متاع الحياة الدنيا له عَزَّ وجل ﴿ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ ﴾ فهو الذي يعطي ويمنع، مما يفيد أن امتاع الله تعالى للعباد ليس مقصوراً على المؤمنين، بل إنه عَزَّ وجل يُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطائه. وقد أعطى معنى ﴿ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ دلالة الأصناف، وهم مَنْ أغناهم الله تعالى بالثراء ﴿ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فجعلنا حياتهم الدنيا زهرة يتزينون بها، فجعلنا لهم زهرة الحياة الدنيا ﴿ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ وأصل الزهرة: ما يظهر في النبات من الزهر، قال الرافعي رحمه الله تعالى: وزهر النبات: نَوره، والواحدة زهرة، ولا يُسمى زهراً حتى يتفتح[٢] مما يدل على تفتح الدنيا عليهم بزينتها. والمقصود بزهرة الحياة الدنيا: مفاتنها من جميع أنواع الزينة، كالمال والبنون، والجاه، وما يتبع ذلك من الخدم والمنازل والمراكب.

والمتأمل في تسميتها بالزهرة، ما يلفت الانتباه إلى حجمها مع قوة تأثيرها، فمع أن حجم الزهرة صغير في الشجرة الكبيرة، حتى أنه لا يأخذ من الشجرة حيزاً كبيراً، إلا اليسير منه، ومع ذلك فإنه ملفت فيها إليها، وجاذب للنظر والتأمل فيها، فكذلك حجم زينة الحياة الدنيا بالنسبة لعموم وحجم الحياة كلها فإنه لا يُشكل منها إلا نزراً يسيراً، غير أنه لافت للنظر، ومغري للعين، ومبهج للقلب، كما تبتهج الشجرة الكبيرة بالزهرة الصغيرة

(١) الزمخشري، الكشاف (٣/٩٦)

(٢) الرافعي، كتاب المصباح المنير (١/٣٥١)

فيها. ليكون ذلك درساً عظيماً للإنسان عموماً، وللمؤمن على وجه التعيين والخصوص. حتى من حيث حجم زينة الحياة الدنيا. ليتبين من ذلك دقة ألفاظ القرآن الكريم، وإعجازه البياني في كلماته، وتراكيب سياقه، ومباني ألفاظه، وحججه وبراهينه، وقوة بلاغته، وعظمة دلالاته، وسمو مقاصده، وعلو مكانته. فإنه القرآن المعجز من كل وجه.

والمقصد من إعطائهم زهرة الحياة الدنيا هو للاختبار ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبتليهم ونختبرهم، ماذا يصنعون به وفيه، فهل يطغيهم عن الحق وقبوله، أو يستخدمونه في الحق ويقبلونه؟ فهل يغترون به؟ ويقودهم إلى التفاخر والكبر. أو يقودهم إلى الحمد والشكر لله تعالى، الذي أنعم عليهم بما أعطاهم. ثم بعد البيان الفالق للحق من الباطل، يُرجح ربنا تبارك وتعالى أن الحق في الرزق الحقيقي، وهو ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ فما رَزَقَكَ اللهُ تعالى من النبوة والإسلام والرسالة والقرآن والشريعة ﴿خَيْرٌ﴾ فهو خير في الدنيا وفي الآخرة، وهو خير مما رزقهم. مما يعلم المؤمن بأن ما ناله المؤمن من رزق الله تعالى من الطاعة والعلم وعموم الخير هو خير من مفاتن الدنيا وزهرتها.

فقد أفادت كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ التفضيل والنوع. وكذلك ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أبقى أثراً وتحصيلا ونماء في الدنيا، وأبقى لك مما هم فيه في الآخرة، فمتاعهم زائل لا محالة، وذلك بزواله عنهم، أو زوالهم عنه بموتهم عنه، وأما رزق ربك لك باق لك أثره وأثر تحصيل أجره في الدنيا، وكذلك باق في الآخرة لك، تجده أمامك. وبالتالي لا تجعل لزهرة الحياة الدنيا قيمة، ولا أثراً، ولا وزناً، إذ هي زائلة ومنتهية، مهما كثرت، ومهما كانت بهجتها في النفوس. ومن دلائل التوجيه الكريم، أن الله تعالى لم يذم زهرة الحياة الدنيا، بل سماها بأجمل الأوصاف ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهي نعمة من نعم الله تعالى، ولكن صَحَّحَ المفهوم عنها بالحقيقة، مما يفيد أنه عند النصح والإرشاد، والدلالة على الخير أن لا يجرد الناصح النعمة عن حقيقتها، لتزهيد المنصوح فيها، بل يلزمه أن يصفها كما هي، ثم يبين ما يلحق بها من العلل إن لم تُستخدم في مجراها الصحيح. مبيناً كيف تكون النعمة ابتلاء واختباراً. فإن النفوس تُذعن للحقائق، ولا يستمر إذعانها للعواطف الخاطئة.

وهي قاعدة للاستقامة ومعالجة السلوك، وتصحيح الفهم والتصور، وضبط النفس عن عدم الافتتان بزهر الحياة الدنيا والانشغال بها عن الذي عند الله تعالى وأبقى. فإذا أرادت الدنيا أن تشغل النفس والفكر عن طاعة الله تعالى، قال المؤمن لنفسه معالجاً لها ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ وإن فتنه شيء من ملذات الدنيا، ليأخذه عما هو خير وأبقى، قال لنفسه ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ وإن فاته شيء من زهرة الدنيا، قال لنفسه ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ وإن رأى مفتوناً بالدنيا، نصحه بقوله تعالى ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ

وَأَبْقَىٰ ﴾ وإن مرض أحد بأمراض القلوب والحسرة على زهرة الحياة الدنيا، قال له ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ فهي علاج عظيم الأثر، وقوي التأثير، ونسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمنا، ويزيدنا علماً، ويرزقنا يقينا وقلباً سليماً، مشغولا بطاعته ورضاه، غير مفتون بمفاتن الدنيا.

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتمثلون بها في معالجتهم لأنفسهم، ومن ذلك: أن عروة بن الزبير رضي الله عنه: كان إذا رأى شيئاً من أخبار السلاطين وأحوالهم، بادر إلى منزله، فدخله وهو يقرأ ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ثم ينادي بالصلاة: الصلاة يرحمكم الله، ويصلي. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوقظ أهل داره لصلاة الليل، ويصلي وهو يتمثل بالآية[١] وفي هذا تطبيق عملي للصحابة رضي الله تعالى عنهم لكتاب الله عَزَّ وجل، ومنهج الرسول عليه الصلاة والسلام.

ثم يتدرج التوجيه الرباني الكريم مع نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى شأن الصلاة، وشأن الرزق، وبيان العاقبة الحسنة ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ يأمر الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يأمر أهله بالصلاة ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ ﴾ والأمر يستوجب الوجوب التكليفي، بأن يُوجِب على أهله إقامة الصلاة، بما يحقق أداءهم لها كما أمر الله تعالى بها. والمؤمنون تبع لنبيهم صلى الله عليه وسلم، وبالتالي يجب على الرجال أن يأمروا أهليهم بالصلاة. مما يستوجب ذلك معرفته لهم في إقامتها، وأداء أركانها وواجباتها. وهذا يدل على منزلة الصلاة، وأهميتها، وأنها أعظم العبادات بعد الشهادتين، وأنه يجب على المسلم ألا يفرط فيها، وفي الأمر بها.

ودلالة الأمر في حق أهل النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ ﴾ يشمل أهل بيته، والذين اتبعوه في دين الله تعالى، قال المفسرون: المراد بأهله: قومه، ومن كان على دينه، ويدخل في هذا أهل بيته[٢] صلى الله عليه وسلم. وقال ابن منظور رحمه الله تعالى في لسان العرب: وأهل كل نبي أمته[٣] ويطلق الأهل على الزوجة، فالأهل هم: أهل البيت، والأصل فيه القرابة، وقد أطلق على الاتباع، وأهل البلد[٤]

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/١٧٤)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٣١)
(٣) ابن منظور، لسان العرب (١١/٢٩)
(٤) الفيومي، كتاب المصباح المنير (١١/٢٩)

والأهل عموماً للرجل، هم: عشيرته، وذوو قرابته[١] قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أمره تعالى بأن يأمر أهله بالصلاة ويمتثلها معهم، ويصطبر عليها، ويلازمها، وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، ويدخل في عمومه جميع أمته، وأهل بيته على التخصيص[٢] فتستجمع دلالة الأهل: الزوجة والأولاد، والأقارب الأدنون، ومَنْ هُم تحت مسؤوليته، ورعايته. وتمتد للأتباع. كما أن في ورود الأهل بصيغة الجمع ما يفيد الكثرة التي تجمع التنوع ودرجات الصلة.

وفي قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ما يفيد أنك قائم بها أيها النبي، فَتَجَاوَزَهُ الأمر إلى أن يأمر غيره بها. فالأمر بها للغير ما يعني أنك قائم بها، فتجاوزه الأمر إلى أن يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بها أهله. وكذلك يكون المؤمن قائماً بالصلاة متجاوزاً بالامتثال في التطبيق والطاعة إلى أن يأمر بها من له عليهم ولاية. قال ثابت: وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة[٣] مما يدل عل أهميتها في قضاء الحاجات، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا همه أمر فَزِع إلى الصلاة، مما يستلزم العناية بل أشد العناية بأمر الصلاة، فهي مفتاح الخير والرزق والبركة، والتوفيق والنجاح والنجاة من الشرور والهموم.

وقد جمع التوجيه الكريم إلى الأمر بالصلاة الصبر عليها ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ واصبر عليها أيها النبي، أي واصبر على أدائها، وملازمة القيام بها على كمالها. ومن قوة البيان ودقائقه، وعمق دلالات ألفاظه، أن الأمر بالصبر على الصلاة ورد بأسلوب المبالغة ﴿وَٱصْطَبِرْ ﴾ فقد زِيد فيها بحرف **(ط)** فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، أي: عظيم المجاهدة في الصبر على أدائها والأمر بها. مما يفيد المغالبة والمجاهدة. فجاهد نفسك على الصبر. فقد وردت بصيغة المفاعلة ﴿وَٱصْطَبِرْ ﴾ التي تقتضي المبالغة في مجاهدة النفس، لأن الاصطبار هو شدة التصبر.

وكذلك من قوة البيان ودقائقه، وعمق دلالات ألفاظه، أن الأمر بالصبر على الصلاة موجه للنبي عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ بينما ورد الأمر بالصلاة، موجهاً للنبي عليه الصلاة والسلام بأن يأمر أهله ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ففي الأمر بالأهل ما يدل على أنك في المأمور به التي هي الصلاة أولى، وأن أداؤها من النبي عليه الصلاة والسلام حاصل ومتقرر، بل وفي ذلك دلالة على أنه معتني بها في نفسه

(١) ابن منظور، لسان العرب (٢٨/١١)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٤/١١)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٧٩/٣)

صلى الله عليه وسلم، فتجاوزه الأمر إلى أن يأمر أهله، وأما في تخصيصه بالصبر عليها فهو تجاوز من الأداء المتحقق منه صلى الله عليه وسلم إلى الصبر المتضمن لأعلى الكمال، المشتمل على السنن، والروية، وعدم الانشغال عن الكمال من السنن، ومن قيام الليل، وعموم النوافل، فلتكن هي شغلك الشاغل، لأن الله تعالى كافيك ما عداها من الرزق ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يعني: إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب[1] فلا نطلب منك أن تشغل نفسك بطلب رزقك ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ نحن نمكن الرزق منك ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فالعاقبة والنتيجة الحسنة المحمودة هي لأهل التقوى.

مما يدل على أن التقوى هي سنام الأمر، ومحوره ومنطلق القوة والإخلاص. فمن حققها بفضل الله تعالى عليه بها، فإن له العاقبة المحمودة في الدنيا وفي الآخرة بالجنة. وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وأَمَرَ اللهُ رسولَه بما هو أعظم مما أمر به أهله، وهو أن يصطبر على الصلاة. والاصطبار: الانحباس، مطاوع صبره إذا حبسه[2] وهذه الدقائق هي دلائل على عمق المعاني وعمق مقاصدها، بما يدل على الإعجاز البياني في القرآن الكريم، كما هو الإعجاز في طريقة التوجيه، وطرائق التوضيح، وعظمة التشريع، والذي لا يمكن أن يأتي إلا من خالق هذا الكون سبحانه وتعالى، رَبَّ كل شيء ومالكه. وفي هذا ما يبين أن من اعتنى واهتم بصلاته سَهّل اللهُ له رزقه، ويسر قضاء حاجاته.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى كشف حال المشركين الذين أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصبر على ما يقولون ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فاصبر على ما يقولون من الكلام الجارح فيك، بما يعني أن الله تعالى كافيك إياهم. ثم يخبر الله تعالى بتعنت قريش، وعنادهم، وتنطعهم ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ قال مشركي مكة ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وكأنه لم يأتهم صلى الله عليه وسلم بالبراهين والحجج، وكأن ما جاءهم به من الآيات والحجج لم تكفهم، بل مفاد ذلك أنهم يريدون آيات وفق ما يريدون ويشتهون ويختارون ويهوون. وفي قولهم هذا ما يفيد طعنهم فيما جاءهم به صلى الله عليه وسلم من الحق المبين. وهذا من قوة عنادهم واستكبارهم، ونكرانهم لما جاءهم من الحجج والبراهين، وأعلاها حجة القرآن العظيم، وهم أفصح الناس، وأعرفهم بإعجازه وقوة بيانه، وكذلك انشقاق القمر، وإخباره لهم صلى الله عليه وسلم بعيرهم عندما أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. ليتبين أن

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٧٩/٣)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٢٤/٧)

المعاند يتغافل عن الحق، ويحيد عنه، بما يُقنع به نفسه مما هو عليه من الفساد والكفر. ثم من فجورهم أنهم لم يقولوا: يأتينا بآية من ربنا، بل ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ من ربه هو، ليفيد الغرور والتمادي في الكبر والكفر الذي هم عليه.

ثم يرد الله تعالى عليهم بالحق الذي جاءهم من البينات، الشارحة والموضحة لِمَا حاق بالذين من قبلهم من الذين كفروا بِرُسُولهم ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ وهو سؤال استنكار وتجهيل لمطلبهم من الآيات في الوقت الذي جاءهم العظيم من البيان. فهو سؤال استغراب، يدل على العناد والكبرياء. ألم يأتهم في القرآن العظيم البيان الواضح لما في الكتب الأولى التي أنزلها تبارك وتعالى على من سبق من المرسلين. والمتضمنة لخصائص أخبارهم، ودقائقها. فإن في الإخبار بها معجزة عظيمة. ألم يكن في ذلك كفاية من الآيات والحجج التي ساقت لكم تفاصيل ما كنتم تجهلون، وبلسان عربي مبين. وعليه الصلاة والسلام أمي، لا يعرف الكتابة والقراءة، وليس له اطلاع على تلك الكتب كما تعرفونه عنه، أليس في وصول أخبارهم له معجزة.

وكذلك يدل النص الكريم ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ألم يأتهم بينة نبوته صلى الله عليه وسلم التي وردت في الصحف الأولى. وهي الكتب التي أنزلت على الرُّسُل السابقين. ففي جميع الأوجه ما يثبت أن القرآن الكريم معجزة خالدة. وفي هذا البيان من الله تعالى ذم وتشنيع لحال أولئك المعاندين لرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يتدرج الاستدلال ارتقاء بالحجة في إثبات ما هم فيه من الخطأ والزيغ ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ فلو أنَّا أهلكناهم من قبل أن نبعث النبي صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن عليه، لاستحقوا ذلك العذاب على ما هم عليه من الشرك، ومع هذا لم يهلكهم الله تعالى بما يستحقون، بل حَلِم عليهم، ولو أنه سبحانه وتعالى أهلكهم ﴿ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ وفيما لو أهلكهم الله عَزَّ وجل بما يستحقون، لقالوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً يبلغنا بما نحن فيه من خطأ، ويوجهنا بهديك ومرادك يا ربنا ﴿ فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ ﴾ فنتبع آياتك وحججك التي يأتينا بها الرسول، فنؤمن به ونصدقه ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ من قبل أن نقف هذا الموقف الذي ﴿ نَّذِلَّ

﴿وَنَخۡزَىٰ﴾ من قبل أن نقع في ذل العذاب ﴿وَنَخۡزَىٰ﴾ بدخول النار يوم القيامة، وأن نحشر مع الكفرة والملحدين.

ولو أن الله تعالى أهلكهم قبل بعثته صلى الله عليه وسلم لكان استحقاقهم للعذاب ثابت، لأن آيات الله تعالى الكونية، تثبت وحدانية الله تعالى، وأن الفطرة والعقول تُثبت خطأ اتخاذ الأصنام معبودات من دون الله تعالى، فهي جمادات، لا تتكلم ولا تنطق، ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها شراً، ولا أن تجلب لها خيراً، فكيف يرجوها العاقل ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ فإن هلاكهم فيما لو أهلكهم الله تعالى، فإنه لا يعطيهم الحق أن يقولوا ﴿رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ ولكن من رحمة وكرم الله سبحانه وتعالى على عباده، ومراده الخير لهم، فإنه لا يعذب حتى يبعث رسولاً، كما قال تعالى في سورة الإسراء ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ فيكون بذلك قد قطع الله تعالى على عباده الحجج، وأن الظلم منه مستحيل عَزَّ وجل. فما أكرم ربنا تبارك وتعالى.

وختم الله تبارك وتعالى سورة طه بالترهيب والوعيد الذي يستثير عقولهم لفهم الحق وإدراكه واتباعه ﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ فيأمر الله تعالى عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يخاطب المشركين ﴿قُلۡ﴾ أي: قل لهم ﴿كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ﴾ أنتم ونحن منتظرون على من تكون عليه دائرة الحوادث التي ستحدث له من الله تعالى، ومن هو صاحب الفلاح ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ فانتظروا، وهو توجيه لهم بصيغة ومفهوم الإنذار، فتربصوا على سبيل الوعيد والتحذير والإنذار ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ فسيعقب انتظارنا وانتظاركم ما يحصل لكم به العلم اليقيني إذا جاء أمر الله تعالى، سواء في الدنيا بالهلاك، أو في يوم القيامة بالعذاب، فستعلمون علم اليقين من هو منَّا صاحب الطريق الصحيح المستقيم ﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ ومن هو الذي على الهدى، الذي هو سبيل الحق والرشاد. فإن كلام ربنا تبارك وتعالى مُتَّصِف بالدقة في البيان، وقوة في الحجة، واستثارة العقل للفهم والإدراك، بلسان عربي مبين. فالحمد لله رب العالمين، اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ووفقنا لطاعتك وحُسن عبادتك، وارضنا وارض عنا برحمتك وفضلك وكرمك يا أكرم الأكرمين، وعلمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا.

تم بحمد الله إتمام سورة طه، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد.